ذكريات من الاتحاد السوفييتي

زيارات للمسلمين

في بلاد الروس والباشقرد

بقلم

محمد بن ناصر العبودي

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

ⓒ محمد بن ناصر العبودي ، ١٤٢٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العبودي ، محمد بن ناصر

زيارات للمسلمين في الاتحاد السوفيتي : بلاد الروس والباشقرد - الرياض.

٢٦٠ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك : ٣ - ٢٤٩ - ٣٦ - ٩٩٦٠

١- المسلمون في الاتحاد السوفيتي

٢- انشار الإسلام - الاتحاد السوفيتي أ- العنوان

ديوي ٢١٠,٩١٤٧ ٢٠/١٩٨٢

رقم الايداع ٢٠/١٩٨٢

ردمك : ٣ - ٢٤٩ - ٣٦ - ٩٩٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

كتب مطبوعة في الرحلات للمؤلف

(١) -في إفريقية الخضراء: مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين - بيروت دار الثقافة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

(٢) -رحلة إلى جزر مالديف إحدى عجائب الدنيا -الرياض دار العلوم ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٣) -مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين - الرياض النادي الأدبي١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

(٤) -جولة في جزائر البحر الزنجي أو حديث عن الإسلام والمسلمين في جزر المحيط الهندي - الرياض - المطابع الأهلية للأوفست ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

(٥) -رحلة إلى سيلان - الرياض - جمعية الثقافة والفنون ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م

(٦) -صلة الحديث عن إفريقية مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين – نشرته دار العلوم في الرياض ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٧) -مشاهدات في بلاد العنصريين، رحلة إلى جنوب إفريقية وحديث في شؤون المسلمين – نشره نادي القصيم الأدبي في بريدة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٨) -إطلالة على نهاية العالم الجنوبي - مكة المكرمة - نادي مكة الثقافي ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٩) -زيارة لسلطنة بروناي الإسلامية – طبع في الرياض ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

(١٠) - شهر في غرب إفريقية مشاهدات وأحاديث عن المسلمين - الرياض ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

(١١) - في نيبال بلاد الجبال، رحلة وحديث في شؤون المسلمين - الرياض - مطابع الفرزدق ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(١٢) - رحلات في أمريكا الوسطى - المطابع الأهلية للأوفست في الرياض ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(١٣) - إلى أقصى الجنوب الأمريكي رحلة في الأرجنتين وتشيلي - الرياض ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(١٤) - على ضفاف الأمازون، رحلة في المنطقة الاستوائية من البرازيل - نشره النادي الأدبي في أبها ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(١٥) - على قمم جبال الأنديز - الرياض مطابع الفرزدق التجارية ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(١٦) - في غرب البرازيل - الرياض - مطابع الفرزدق التجارية ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

(١٧) - في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر - طبع في مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

(١٨) - بقية الحديث عن إفريقية - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٢هـ.

(١٩) - جولة في جزائر البحر الكاريبي - مطابع الرياض الأهلية للأوفست عام ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(٢٠) - جولة في جزائر جنوب المحيط الهادئ - مطابع الفرزدق في الرياض عام ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(٢١) - داخل أسوار الصين (مجلدان) - مطابع الفرزدق التجارية - الرياض عام ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٢٢) - بلاد الداغستان - طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٣هـ.

(٢٣) - الرحلة الروسية - مطابع الفرزدق عام ١٤١٤هـ.

(٢٤) - مع المسلمين البولنديين - مطابع الفرزدق في الرياض عام ١٤١٣هـ.

(٢٥) - جمهورية أذربيجان - طبع مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٢٦) - في أعماق الصين الشعبية - نشرته مجلة المنهل.

(٢٧) - بين الأرغواي والبارغواي - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٢٨) - بورما الخبر والعيان - طبع بيروت عام ١٤١٢هـ.

(٢٩) - مقال عن بلاد البنغال - طبع بالرياض عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٣٠) - ذكريات من يوغسلافيا - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٣١) - كنت في بلغاريا - مطابع الفرزدق عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٣٢) - في جنوب الصين - طبعته رابطة العالم الإسلامي بمطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤١٤هـ.

(٣٣) - كنت في ألبانيا - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٤هـ.

(٣٤) - ذكرياتي في إفريقية - محاضرة طبعتها رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.

(٣٥) - أيام في النيجر - طبع بيروت عام ١٤١٤هـ.

(٣٦) - على أرض القهوة البرازيلية - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٥هـ.

(٣٧) - نظرة في شرق أوربا وحالة المسلمين بعد الشيوعية - طبع بيروت عام ١٤١٤هـ.

(٣٨) - بين غينيا بيساو وغينيا كوناكرى - مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٤هـ.

(٣٩) - من أنقولا إلى الرأس الأخضر - مطابع الفرزدق بالرياض عام ١٤١٤هـ.

(٤٠) - سياحة في كشمير - مطابع الفرزدق عام ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

(٤١) - يوميات آسيا الوسطى - مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٤هـ.

(٤٢) - نظرة في وسط إفريقية - مطابع الفرزدق عام ١٤١١هـ/١٩٩١م.

(٤٣) - بلاد القرم - نشرته دار القبلة في جدة.

(٤٤) - قصة سفر في نيجيريا (مجلدان) - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض.

(٤٥) - حديث قازاقستان - نشرته دار القبلة في جدة (تحت الطبع).

(٤٦) - المسلمون في لاوس وكمبوديا: رحلة ومشاهدات ميدانية - نشرته رابطة العالم الإسلامي في سلسلة دعوة الحق، وطبعته في مطبعتها عام ١٤١٦هـ.

(٤٧) - في جنوب الهند من سلسلة الرحلات الهندية - طبع في مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٧هـ.

(٤٨) - رحلات في أمريكا الجنوبية: غيانا وسورينام، مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٩هـ.

(٤٩) - إطلالة على أستراليا - طبع في مطابع التقنية للأوفست - الرياض عام ١٤١٧هـ.

(٥٠) - أيام في فيتنام - نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.

(٥١) - في غرب الهند - من سلسلة الرحلات الهندية - نشرته رابطة العالم الإسلامي عام ١٤١٧هـ.

(٥٢) - إطلالة على موريتانيا - نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.

(٥٣) - حديث قيرغيزستان، دراسة في ماضيها ومشاهدات ميدانية - نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٥٤) - زيارة رسمية لتايوان، نشر دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٥٥) - سطور من المنظور والمأثور عن بلاد التكرور – مطبعة النرجس، الرياض عام ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

(٥٦) - راجستان: بلاد الملوك: من سلسلة الرحلات الهندية - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

(٥٧) - في شرق الهند، من سلسلة الرحلات الهندية – طبع في مطابع التقنية للأوفست في الرياض عام ١٤١٩هـ.

(٥٨) -العودة إلى الصين، من سلسلة الرحلات الصينية – طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٠هـ.

(٥٩) - في شرق البرازيل، من سلسة الرحلات البرازيلية – طبع في مطابع التقنية في الرياض، عام ١٤١٩هـ.

(٦٠) - هندوراس ونيكاراقوا وكوستاريكا (من سلسلة الرحلات في

جمهوريات الموز)، مطابع التقنية في الرياض، عام ١٤١٩هـ.

(٦١) - من بلاد القرشاي إلى بلاد القبرداي، من سلسلة الرحلات القوقازية - طبع في مطابع التقنية للأوفست في الرياض، عام ١٤٢٠هـ.

(٦٢) - بلاد التتار والبلغار، من سلسلة رحلات الشمال - نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته بمطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

(٦٣) - بلاد الشركس: الإديغي - طبع مطابع التقنية في الرياض عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٦٤) - مواطن إسلامية ضائعة - مطابع التقنية في الرياض عام ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م.

(٦٥) - تائه في تاهيتي - طبعته مطابع التقنية بالرياض عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٦٦) -نظرة إلى الفلبين بين زيارتين: رسمية وخاصة.

(٦٧) -ذكريات من الاتحاد السوفييتي: زيارات للمسلمين في بلاد الروس والباشقرد. وهو هذا الكتاب.

مؤلفاته المطبوعة في غير فن الرحلات

(٦٨) - معجم بلاد القصيم (في ستة مجلدات) - نشرته دار اليمامة وطبعته بالمطابع الأهلية للأوفست بالرياض عام ١٣٩٩هـ، ثم طبع مرة أخرى في عام ١٤١٠هـ.

(٦٩) - أخبار أبي العيناء اليمامي – طبع في الرياض وبيروت عام ١٣٩٨هـ.

(٧٠) -الأمثال العامية في نجد، مجلد واحد، طبع في مطبعة دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة عام ١٣٧٩هـ.

(٧١) - الأمثال العامية في نجد (خمسة مجلدات) ساعدت دارة الملك عبد العزيز في الرياض على طبعه، ونشرته دار اليمامة للطبع والنشر عام ١٣٩٨هـ.

(٧٢) - كتاب الثقلاء - نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في سلسلة الكتاب السعودي.

(٧٣) - نفحات من السكينة القرآنية - طبع أكثر من مرة آخرها طبعة لوزارة المعارف لتوزيعها على مكتبات المدارس - نشرته دار العلوم في الرياض عام ١٤٠٣هـ.

(٧٤) - مأثورات شعبية - نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في سلسلة الكتاب السعودي.

(٧٥) - سوانح أدبية - طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤٠٥هـ.

(٧٦) - صور ثقيلة - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤٠٥هـ.

(٧٧) - العالم الإسلامي والرابطة - نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبع في مطبعتها عام ١٤١٤هـ.

(٧٨) - نظرة إلى العلاقات العربية مع أهالي جنوب الصحراء – مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٧٩) - المقامات الصحراوية - مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٨٠) - مساعدات المملكة العربية السعودية للمسلمين، وبخاصة الأقليات المسلمة – بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية – نشرته لجنة الاحتفال بمرور مائة عام على التأسيس، وطبعته في مطابع الناشر العربي في الرياض ١٤١٩هـ.

(٨١) - كلمات عربية لم تسجلها المعاجم، أحد بحوث المؤتمر الثاني للأدباء السعوديين، ونشرته جامعة أم القرى في مكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ.

(٨٢) - المملكة العربية السعودية بين الماضي والحاضر (لمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة) – ونشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطابعها في مكة المكرمة.

(٨٣) - مدلولات كلمات قضى عليها حكم الملك عبد العزيز، نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون (لمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية).

(٨٤) - رابطة العالم الإسلامي إحدى القنوات السعودية لمساعدة المسلمين – نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها بمكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فهذه مذكرات يومية دونتها عندما كنت في رحلة في أنحاء من الاتحاد السوفييتي -السابق- على رأس وفد من رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، وكنا تلقينا دعوة من رئاسة العلاقات الخارجية للإدارات الدينية الأربع لمسلمي الاتحاد السوفييتي لزيارة وفد من رابطة العالم الإسلامي إلى الاتحاد السوفييتي، والاجتماع بالمسؤولين في الإدارات الدينية هناك.

وقد رغبت الإدارات الدينية لمسلمي الاتحاد السوفييتي وهي توجه الدعوة أن يكون وفد الرابطة برئاسة الأمين العالم للرابطة، أو الأمين العام المساعد، وحددت مدة الزيارة بأسبوعين اثنين، وعدد أعضاء الوفد بحوالي عشرة.

وقد ذكرتْ أسباباً عديدة لطلب هذه الزيارة، ومن أهمها أن المسلمين هناك يتطلعون إلى زيارة وفد من المملكة العربية السعودية التي فيها الحرمان الشريفان، ولكون المملكة العربية السعودية تكاد تكون الدولة الإسلامية الوحيدة التي لم يقدم منها وفد إسلامي إلى الاتحاد السوفييتي.

وذكرت أن الغرض من الدعوة هو غرض إسلامي خالص، فالإخوة المسلمون في الاتحاد السوفييتي لا يطلبون مساعدات مالية كالتي يطلبها بقية الإخوة المسلمين في أنحاء العالم، لأنهم يتبرعون بأنفسهم للمشروعات الإسلامية ولتسيير أمورهم الإسلامية.

وإنما يطلبون تجديد الصلات وتعزيز الأخوة الإسلامية معهم.

إن زيارة وفد من رابطة العالم الإسلامي لمسلمي الاتحاد السوفييتي يكون على رأسه الأمين العام للرابطة، أو الأمين العام المساعد سيكون بحد ذاته حدثاً هاماً يتمناه المسلمون هناك، وربما لا ينسونه لآماد طويلة.

ولم يذكروا في الإدارات الدينية كل ما ينبغي أن يذكروه لتعليل عدم طلب المسلمين للمساعدات المالية، لأنهم في الاتحاد السوفييتي قد ربوا الناس وعودوهم على ألا يقولوا كل ما يريدون قوله، بل على ألا يقولوا كل ما يقوله غيرهم في العادة من المسلمين في الشعوب الأخرى.

ومن ذلك أنهم لم يقولوا: إن حكومة الاتحاد السوفييتي تمنع وصول المساعدات المالية للمسلمين من البلدان الخارجية، كما أن أوجه الإنفاق على الشؤون الإسلامية هناك محدودة جداً، فالمسلمون ليست لديهم الحرية في بناء المساجد التي يريدونها سواء من حيث العدد أو الأمكنة، وإنما قد تسمح لهم السلطات ببناء بعض المساجد، أو إعادة تعمير عدد معين محدود من المساجد التي سبق أن صادرتها السلطات الشيوعية، وفق مخطط لديهم يقتضي عدم انتشار المساجد وتعددها إلا للضرورة في بلدان ذات أغلبيات مسلمة معينة، وإذا سمحت السلطات الحكومية بإقامة مثل تلك المساجد، أو إعادة تعمير مسجد من المساجد القديمة فإن المسلمين من داخل البلاد يسارعون بالتبرع لبناء المسجد مدفوعين بالحرمان الشديد الذي صادفوه؛ بل ران عليهم عشرات من السنين كانوا ممنوعين خلالها من عمارة المساجد سواء بتشييدها أو من عمارتها بالعبادة.

وذلك رغم كون دخولهم محدودة، بل إن دخل الفرد في البلدان الشيوعية لا مجال لتحسينه أو رفعه إلى درجة أن يكون فيها الفرد قادراً على القيام بمشروعات مهمة حتى في الأماني.

إن الإخوة المسلمين كثر في الاتحاد السوفييتي، وهم يزدادون أكثر مما يزداد غيرهم من غير المسلمين، فيتبرعون من دخولهم المحدودة بما

يستطيعونه، والقليل من الكثير كثير.

وقد شملت زيارتنا أول ما شملت مركز الثقل للمسلمين في بلاد بخاري وما وراء النهر التي تمثلها في الوقت الحاضر جمهورية أوزبكستان، فزرنا فيها عدداً من المدن، وكتبت عنها كتاباً مستقلاً عنوانه: « في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر »، ثم جمهورية أذربيجان ولها كتاب بهذا العنوان، وبعدها زرنا (بلاد الداغستان) الواقعة في جبال قبج أو قبق كما كان أسلافنا العرب يسمونها، واسمها الآن عند كتابنا المقلدين: جبال القوقاز أو القفقاس، وألفت في ذلك كتاباً مستقلاً بعنوان: ((بلاد الداغستان))، وكل هذه الكتب مطبوع منشور، والحمد لله.

وبقي هذا القسم من الرحلة المشتمل على الحديث عن زيارة جمهورية (باشقردز ستان) التي اشتهرت عند الناس ببشكيريا، أو جمهورية البشكير، وهي جمهورية متمتعة بالحكم الذاتي داخل جمهورية روسيا الاتحادية، وكذلك عن بلاد الروس نفسها التي زرنا هنا المدينتين الرئيسيتين فيها: (لينين قراد) التي كانت تسمى قبل حكم الشيوعيين (بطرس بورج)، أي مدينة بطرس لأن (بورج) معناها: مدينة بالألمانية، مثلما أن (قراد) معناها مدينة باللغة الروسية، وكانت (لينين قراد) عاصمة لروسيا أيام حكم القياصرة، ومن بعد ذلك زرنا العاصمة: موسكو.

ولقد قيدت في مذكراتي اليومية التي تراها هنا ما شاهدته أو سمعته أو لاحظته مما يتعلق بأحوال المسلمين بخاصة، وبأحوال الناس بصفة عامة.

ومع ذلك فإنني لا أستطيع القول بأن ما فيها هو صورة كاملة لذلك كله، لأن الزيارة كانت زيارة رسمية تسير على برنامج معين، ومحاطة بطائفة من المرافقين والأعوان الذين أظهروا مرافقتهم لنا بكونهم معنيين مهتمين، وإن كان المقصود منها أن يكونوا محيطين موجهين للزيارة ولأنظار الزوار إن أمكنهم ذلك.

فكان معنا ونحن ستة نحو أحد عشر مرافقاً في الرحلة كلها، منهم خمسة من المرافقين الذين أسموهم إعلاميين من صحفيين ومصورين، وبعضهم يعرف العربية ويكلمنا بها، وبعضهم لا ندري عما إذا كان يعرف منها شيئاً، وهؤلاء كلهم من غير المسلمين، بل إنهم من الروس المختارين لهذه المهنة.

إلى جانب عدد من الإخوة المسلمين العاملين في الإدارات الدينية، وبعضهم لا ندري عن الغرض من وجوده معنا، فليسوا كلهم من الذين يظهر عليهم الإخلاص للدولة الروسية الشيوعية إذا اعتبرنا كونهم لا يتكلمون معنا ابتداءً عما قد يعتبر في داخل الاتحاد السوفييتي من محاسن هذه الدولة.

وبعضهم ساكت لا نعرف وجهة نظره ولا ما يخفيه؛ بل إننا لا ندري بالضبط ما هو الغرض من مرافقته لنا، إلا ما قيل لنا من كون ذلك من أجل خدمتنا.

فلم يكن بإمكاننا أن نرى كل ما نريد أن نراه، أو نستمع إلى من يرغب في أن نستمع إليه.

ومع ذلك فإننا نعترف بأن إخواننا المسلمين في الإدارات الدينية قد اجتهدوا في أن يجعلوا زيارتنا هذه زيارة مفيدة لنا ولهم، وأن رجال الإدارة في الاتحاد السوفييتي قد حرصوا على أن يظهروها أيضاً بالزيارة المعتبرة المتميزة، وإن كانوا من خلال ذلك قد حاولوا أن يستفيدوا منها دعاية لمذهبهم، أو تبريراً لسياسة حكومتهم، وذلك أمر مفهوم السبب.

والمعروف بل المعترف به في السياسة الدولية أن العلاقات ما بين الدول وعلاقة الرابطة بمسلمي الاتحاد السوفييتي هي في ظاهرها علاقة بين هيئات غير حكومية مبنية على أن يحاول كل طرف من الأطراف أن يستفيد من تلك العلاقة بقدر ما يمكنه في نطاق الأعراف المتعلقة بالضيافة، وفي حدود اللباقة

والكياسة.

ولذلك حاولنا أن نستفيد، ونحن نمثل رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، من هذه الزيارة إلى أبعد حدود الاستفادة الممكنة عن طريق توطيد العلاقات ما بيننا وبين المسؤولين في الإدارات الدينية هناك، وعن طريق إفهام الإخوة المسلمين من العامة الذين نجتمع بهم في المساجد، أو في أماكن أخرى بأنهم جزء من العالم الإسلامي الكبير، وبأنهم أحفاد قوم كان لهم شرف النهوض بالإسلام في هذه المناطق في قديم الزمان حتى نهضوا بالإسلام، ونهضت الدعوة إلى الإسلام بهم، فكان من ذلك ما سجله لهم التاريخ من تقدم ورقي ومن مكانة عالمية كانت مرموقة في الوقت الذي كان فيه الأوربيون يعتبرون من المتأخرين.

وحركنا مشاعرهم في العودة إلى هذا النبع الأصيل من منابع حياتهم الذي حاولت الشيوعية الملحدة، وقبلها القيصرية المتعصبة أن تغلق ما بينهم وبينه بالتدجيل والتضليل وبالكتمان والنسيان.

ثم إنني كنت أنتهز كل مناسبة، فأذكرهم بواجبهم تجاه ناشئتهم من أولاد المسلمين أن يعتنوا بتنشئتهم على الإسلام، ولو عن طريق التلقين في البيوت، والتعليم الحر في المساجد، لأن التربية الدينية محرمة كلياً في الاتحاد السوفييتي خارج المساجد التي حرم فيها أيضاً التعليم الديني فيما عدا المواعظ والكلام الذي لا يعد بمثابة تدريس منتظم.

أما الإخوة أعضاء الوفد فهم:

الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن آل باز.

الدكتور سعيد أحمد باديب.

الشيخ سالم بن عبد الله السالم.

الشيخ عبد الرحمن بن رشيد بن عوين.

الأستاذ رحمة الله بن عناية الله (سكرتيراً).

وقصدنا من كتابة هذا الكتاب هو ما قصدناه من كتب أخرى عن الإخوة المسلمين في الاتحاد السوفييتي هو إطلاع المسلمين في العالم على أحوالهم ،وإشراكهم فيما شاهدناه من أمرهم، إلى جانب ما تحويه مثل هذه الكتب مما يتكلم فيه الرحالة، فيدخل في أدب الرحلات،والاطلاع على الشؤون العامة في البلاد.

وقد استقبلت الكتب الأخرى التي طبعت بمثل هذه الطريقة استقبالاً كريماً من القراء الكرام، ولم يقتصروا على ذلك، بل طلبوا منها المزيد، كما طالبوا بالإسراع بطبع ما لم يطبع، فجزاهم الله خيراً على حسن ظنهم، وكريم تقديرهم. والله المستعان، وعليه التكلان.

المؤلف

محمد بن ناصر العبودي

تعقيب:

كتب هذا الكتاب مع ما فيه من الملاحظات أثناء زيارة الوفد للاتحاد السوفييتي التي تمت في أول عهد الرئيس جوربا تشوف، ولكن كان ذلك قبل أن يعلن سياسة البروستريكا. وما ترتب عليها من انفتاح نسبي أعقبه انفتاح عظيم كان فتحاً لسكان الاتحاد السوفييتي، ومنهم الإخوة المسلمون.

ثم توالت الأحداث الجسام في الاتحاد السوفييتي حتى انفرط عقد ذلك الاتحاد، وخرجت منه الجمهوريات الاتحادية التي كان يتألف منها ومنها الجمهوريات الإسلامية في آسيا.

ونال المسلمين المقيمين في جمهورية روسيا الاتحادية التي لا تزال تضم بلداناً إسلامية عريقة نصيب عظيم من الحرية في أمور دينهم، فأقبلوا على تعويض ما فاتهم من بناء المساجد وفتح المدارس، والرجوع إلى تراثهم الإسلامي الخالد.

وقد أبقيت ما كتبت في هذا الكتاب على حاله؛ لأنه صار جزءاً من التاريخ، والتاريخ لا ينبغي تغييره، وهو يدل على مرحلة صعبة من المراحل التي مرت بالمسلمين في جمهورية روسيا وما ألحق بها. إضافة إلى المشاهدات العامة عن أحوال البلاد التي تغيرت الآن إلى وضع آخر، نرجو أن يعقبه وضع لهم يكون أحسن من ذلك.

جمهــورية روســـيا

مقدمة

مسلمو الاتحاد السوفييتي في عهد القياصرة والشيوعيين:

بعد أن فشل الصليبيون في حروبهم، ومنيت حملاتهم بالهزيمة في الشرق العربي، وتقدم الأتراك العثمانيون إلى أوروبا بعد فتح القسطنطينية معقل الإمبراطورية الرومانية ومركز المسيحية الأرثوذكسية في عام ١٤٥٣م التجأ زعماء الصليبيين إلى إمارة موسكو التي اعتنق أميرها فلاديمير المسيحية الأرثوذكسية عام ٩٨٨م، وأجبر كافة الروس على اعتناق المسيحية، وأراد الصليبيون تعويض هزائمهم المتكررة، واستعادة ملكهم الزائل بقيام إمبراطورية جديدة في إمارة موسكو بدلاً من الإمبراطورية الرومانية.

وأصبح أمير موسكو قيصراً ومدافعاً عن الكنسية الأرثوذكسية،. وتجددت الحروب الصليبية في الشرق، ولكن ضد المسلمين التتار، واستولى الروس على بلادهم، وفرض القيصر الروسي إيفان الرابع اعتناق المسيحية على المسلمين، وهدم مساجدهم، وقتل الكثير منهم، حتى لقب بالرهيب أو المرعب، ثم استمر خلفاؤه من بعده في اضطهاد المسلمين، وحملهم على قبول المسيحية ديناً بحجة تحويلهم إلى سلاف وروس.

وفي عهد القيصرة حنة (١٧٣٨ – ١٧٥٥م) أقفلت جميع المساجد في بلاد التتار، وفي حوض الفولغا الأوسط، وألغيت الصبغة الدينية من الأوقاف المخصصة للتعليم والإحسان، ونقلت ملكيتها إلى الدولة، وطرد المسلمون من قراهم، وفرضت الضرائب الباهظة عليهم، وصدر أمر يقضي بالموت على كل من يمارس دعوة إسلامية، وأعلن عن إعفاء التتار الذين يقبلون النصرانية من الضرائب ومن الخدمة العسكرية الإلزامية.

ولكن في سنة ١٩٠٥م عندما صدر مرسوم قيصري بالحرية الدينية لمسلمي روسيا القيصرية، أعلن جميع المسلمين المنصرين بالضغط الشديد

والإكراه عودتهم إلى الإسلام وتمسكهم به، واتضح في هذه الفترة أن تنصير المسلمين لم يكن إلا تظاهراً، وأن النشاط الإسلامي لم يخبت بالاضطهاد، وإنما عمل المسلمون على نشر دينهم الإسلامي خفية بين القبائل الوثنية والمسيحية أيضاً، وبينما كان الروس يظنون بأن أمر الإسلام قد انتهى، ظهر أن الإسلام قد انتشر بين قبائل جديدة مثل الفوتياك والشيريمس، وأن عدداً بلغ من الكثرة ٥٣ ألف شخص أسلم بين سنتي ١٩٠٦ – ١٩١٠م رغم القوانين التي تحرّم التحول إلى أي دين من الأديان عدا مذهب الكنيسة الأرثوذكسية. ويقول الكاتبان الفرنسيان ألكسندر بنيفسن وشانتال:

كانت روسيا قد سيطرت على الأتراك والقفقاسيين خلال أكثر من ثلاثة قرون ونصف قرن، من ١٥٥٢ حتى ١٩١٧م، وفي هذه الحقبة الطويلة من التاريخ عاشت الشعوب التركية والقفقاسية محنة قاسية، وعانت صراعاً مريراً ومستمراً للحفاظ على تراثها الروحي والبقاء كشعوب متميزة، ولقد نجحت في كفاحها نجاحاً كاملاً إذ خرج الفاتح مهزوماً من المجابهة، فيما اندمج الإسلام المضطهد بعنف اندماجاً تاماً بثقافة هذه الشعوب وتقاليدها، وأصبح النواة الأكثر عمقاً لهويتها القومية. فالشعوب المسلمة في روسيا ظلت قبل كل شيء ورغم تغيير الأحوال السياسية والعسكرية منتمية إلى دار الإسلام.

بعد انتهاء فترة استرداد الأنفاس للمسلمين والنشاط الإسلامي فيما بين ١٩٠٥ – ١٩٢٤م عاد الاضطهاد الديني والقسوة الوحشية في استئصال الإسلام ومحاربة المسلمين من جديد على يد الشيوعيين الروس. وشنت السلطات الشيوعية حملات واسعة ضد الإسلام انطلاقاً من مبدئهم الضال: (الدين أفيون الشعوب)، واصطبغت المعركة الماركسية الموجهة ضد المسلمين بفرض الإلحاد عليهم، ومطالبتهم بالتنكر لربهم وخالقهم بكل عنف وقسوة.

وفي عام ١٩٢٤م بدأ العمل الفعلي في حرب الشيوعيين ضد الإسلام

بإلغاء المحاكم الشرعية والأحكام الشخصية الإسلامية، ثم أغلقت الحكومة السوفياتية ٢٦ ألف مدرسة و ٣١ ألف مسجد وجامع لمسلمي الاتحاد السوفياتي.

في عام ١٩٢٨م وفي عام ١٩٣٠ صادرت بقية الأوقاف الإسلامية التي كانت تؤمن باستمرار بعض النشاط الإسلامي والاجتماعي للمسلمين.

وأخيراً بدأت في عام ١٩٣٢ حركة شاملة للتخلص من علماء الإسلام ورجال الدين الذين قدر عددهم بحوالي ٤٥ ألفاً بتهمة الطفيلية والرجعية، واجتهد الملحدون والشيوعيون في نشر الدعايات الإلحادية والتعاليم الماركسية بين المسلمين، ومراقبة تصرفاتهم وسلوكهم، ومنعهم من أداء الشعائر الدينية، والعقاب بالقتل والسجن لكل من يؤدي صلاة، أو يقرأ القرآن الكريم وغير ذلك. واستمر اضطهاد الدين الإسلامي بلا هوادة حتى نشوب الحرب العالمية الثانية.

أثناء الحرب العالمية الثانية حاول جوزيف ستالين استمالة القوى الداخلية في حربه مع ألمانيا النازية، فخفت الحملات المسعورة ضد المسلمين، واتجهت الحكومة السوفياتية إلى احتواء المسلمين وممارستهم الدينية في الإدارات الدينية التي أحدثتها الإدارة ما كان ولا يزال متبقياً من المؤسسات الإسلامية. وحدث في نفس الوقت إنشاء دار فتيا للإسلام في الاتحاد السوفييتي، ودعا إلى مؤتمر إسلامي في أوفا تحت رئاسة المفتي عبد الرحمن رسولوف، وقام هذا المفتي في نفس العام بزيارة القاهرة وغيرها من البلدان الإسلامية.

وفي عهد خروتشيف فترة وصفت بالعودة إلى اللينينية، وبنهاية مرحلة الوفاق، واستعرت حملة جديدة وعنيفة ضد الدين دامت من ١٩٥٤ حتى ١٩٦٤، إذ أقفلت معظم المساجد المفتوحة، فهبط عددها إلى أقل من ٣٠٠ مسجد في عام ١٩٦٥، وشنت ضد الدين حملة دعائية كثيفة وشاملة جندت لخدمتها كل وسائل الإعلام العامة من صحافة وإذاعة وتلفزة ومسرح، وطبع

ما بين سنتي ١٩٥٤ – ١٩٦٤ تسعمائة وعشرون مصنفاً مناهضاً للإسلام باللغات الإسلامية.

وبعد سقوط خروتشيف، دخلت العلاقات ما بين الحكومة السوفييتي والإسلام مرحلة أخرى أقل عنفاً. فقد خف الهجوم الشامل، لكن الدعاية المعادية للإسلام تتابعت بشكل علني أكثر. وأوقفت حملات الهجوم ضد رجال الدين لأنها اعتبرت غير مجدية.

وفي السنوات الأخيرة افتتحت بعض المساجد الجديدة، وأعيد فتح المساجد المغلقة، ومنحت حكومة موسكو الإدارات الدينية الإسلامية حرية أكبر في العمل، وفي المقابل بذل الزعماء الدينيون مساهمتهم في الدعاية الإعلامية بأن المسلمين تغمرهم السعادة والسرور والرفاهية في الاتحاد السوفييتي. غير أن هذا التقارب التكتيكي لم يبدل الأساس المناهض للدين والأيديولوجية الماركسية اللينينية. لأن الشيوعية والدين ضدان لا يجتمعان، والفرق الوحيد بين عهدي لينين وستالين وعهدنا الحالي يكمن فقط في الطريقة التي تستعملها السلطات السوفياتية في محاربة الإسلام، بيد أنها تفضل في الوقت نفسه الصراع الأيديولوجي والتربية والإقناع على الضغط الإداري والقمع البوليسي.

تقع مهمة محاربة الدين على عاتق كل تنظيمات الدولة والحكومة والحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي. وتبعاً لذلك يمكن تنظيم دورات في الإلحاد العلمي في المصانع والمزارع مثلما تنظم في الجامعات، وقد كلفت بالدعاية المناهضة للدين النقابات العمالية، وفروع معهد "ماركس – إنكلز – لينين" في كل من الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية والكومسومول، ووزارات الثقافة في الجمهوريات، وكذلك الحزب الشيوعي في المناطق والمقاطعات والمدن، وكل المؤسسات المدرسية ابتداء من رياض الأطفال حتى أعلى مستوى جامعي.

ومنذ الحرب العالمية الثانية تمركزت الدعاية المعادية للإسلام تحت إدارة جمعية نشر المعارف السياسية والعلمية التي تضم فروعاً في كل جمهورية ومنطقة ومقاطعة. وتستخدم الدعاية المناهضة للدين كل وسائل الإعلام الجماهيرية من برامج إذاعية خاصة، وأفلام معادية، ومعارض ومتاحف ثابتة ومتنقلة، ومنشورات متنوعة من كتب وكراريس ومقالات صحفية ونشرات دورية متخصصة، وخاصة المحاضرات العامة العديدة، وكذلك الأحاديث الخاصة إذ يتوجه الاختصاصيون في الإلحاد إلى بيوت المسلمين لإعطاء دروس ومحاضرات في أصول المادية الجدلية.

ويبلغ متوسط المحاضرات الإلحادية ثلاثة آلاف محاضرة يومياً في مناطق المسلمين في الاتحاد السوفييتي.

أما وضع الدين الرسمي في الاتحاد السوفييتي كما نص عليه في الدستور الذي صدر في عام ١٩٢١م، والذي لا يزال ساري المفعول إلى الآن، فهو كالآتي:

المادة ٢٥: التعليم والتدريس أو التأهيل المهني يخدم المبادئ الشيوعية والتنمية الثقافية والجسمانية للشباب.

وفي المادة ٥٢: تنص على الآتي: تضمن الدولة لمواطن الاتحاد السوفييتي حرية الاعتقاد، أي الحق في اتباع أي دين، أو عدم اتباع أي دين، وحق أداء الشعائر الدينية، وكذلك حق القيام بالدعاية الإلحادية، ويحظر استخدام الدين في التحريض على العداء والكراهية. والدولة في الاتحاد السوفييتي منفصلة عن الدين، وكذلك التعليم.

وأصعب موضوع في المسألة هو التوازن بين القيام بالعبادات مع الحق في نشر الدعاية الإلحادية. فالدعاية الدينية التي تفسر بأوسع معانيها حتى تشمل أي شكل من التعليم الديني، أو المناقشات الدينية بين الأفراد ممنوعة. وحتى

القيام بالعبادات من جهة ثانية يفسر بشكل ضيق، ويعتبر قانونياً إذا جرى بالشكل وفي المكان الذي تحدده الدولة.

ومثلاً على ذلك: يجيز القانون لمن يدعو للإلحاد أن يفعل ذلك في كل مكان إلا في داخل المعبد، أي أنه يجوز له أن يقوم بالدعاية الإلحادية في كل مكان ما عدا داخل المسجد في بلاد المسلمين، ولكن لا يجوز لمن يدعو للإيمان أن يفعل ذلك إلا في داخل المعبد، فلا يجوز لإمام المسجد مثلاً أن يعظ أو يرشد أو يبصر الناس في دينهم إلا في داخل المسجد، فأي عدل في هذا؟ والفرق واضح بين سعة المساحتين بما بينهما، لا سيما إذا عرفنا أن مجرد دخول المرء إلى المسجد يحرمه من وظيفته إن كان موظفاً؛ لأن ذلك خروج على مبادئ الحزب الشيوعي، كما أن الذهاب للمسجد خلال أوقات العمل غير ممكن، وغير ممكن أداء الصلاة خارج المسجد لأن ذلك يخالف القانون.

اليقظة الإسلامية في الاتحاد السوفياتي:

لقد مضى على بدء الاستعمار الروسي لبلاد المسلمين أكثر من ٤٥٠ عاماً منذ أن سقطت قازان بيد القيصر إيفان عام ١٥٥٢م. وخلال هذه الفترة الطويلة تعرض المسلمون لضروب شتى من الاضطهاد والعنف، بدأه الصليبيون بفرض النصرانية بالقوة وإجبار المسلمين على اعتناق المسيحية، واستئصال الإسلام من صدور المؤمنين. وإذْ تولى الاضطهاد الصليبي بزوال الإمبراطورية القيصرية من روسيا، فإن العنف الإلحادي قد مارس قسوته وظلمه بالقتل والتعذيب البدني بهدف فرض الشيوعية الضالة عقيدة على المسلمين بدلاً من إسلامهم الحق، ولا تزال الماركسية السوفياتية - التي خففت من حدة البطش الجسدي – تمارس الاضطهاد المعنوي والفكري بقوة لا تقل عن البطش البدني في تضليل المسلمين وإفساد عقيدتهم، وإخراجهم عن طريق الإسلام المستقيم.

والنعمة التي أكرم الله ﷻ بها أولئك المسلمين المضطهدين، واحتار لها

الصليبيون والشيوعيون، هي أن الله تعالى أعانهم على التمسك بدين الإسلام في هذه المحنة، وأن احتكاك المسلمين بالظلم والاضطهاد الطويل، والعنف أثبت تمسكهم وارتباطهم الوثيق بالإسلام.. فالتقارير الصحفية وانطباعات الزائرين إلى المناطق الإسلامية.. علاوة على استقصاءات الحكومة السوفياتية والدراسات الغربية، تؤكد أن أساليب الاضطهاد المختلفة وعمليات الإبادة والتهجير والقوة والعنف والتذويب الثقافي والعنصري لم تؤد أهدافها في القضاء على روح الإسلام في نفوس المسلمين.

وقد عبر القادة السوفييت في أكثر من مناسبة عن مخاوفهم من تمسك المسلمين بتعاليم الإسلام؛ حيث جاء في الخطاب الذي ألقاه شريف رشيدوف السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي في أوزبكستان عام ١٩٧٩: "إن رجال الدين يتأقلمون بذكاء مع الأوضاع الجديدة، ولهم مقدرة على لبس الملبوس لكل حالة، وهم يدافعون عن بعضهم بعنف.. ويبدون اهتماماً خاصاً بالشباب، ومن خطأ القول إنهم يخوضون حرباً خاسرة، وإن نفوذهم يتبدى في الأعداد المتزايدة التي تؤم المساجد دون الأعداد التي تشارك في الأعياد والشعائر الإسلامية.

وقد أشارت معظم الدراسات السوفياتية إلى أن نسبة المتصفين بالإلحاد هي ٢٠٪ من المسلمين، وأن ٨٠٪ منهم يعلنون بوسيلة أو بأخرى إيمانهم بالله ﷻ، ويمارسون بعضاً من الشعائر الإسلامية، وحتى إن الملحدين أو المتصفين بالإلحاد الذين تقدر نسبتهم ٢٠٪ من رجال الحزب الشيوعي، ويتولون مناصب حزبية أو حكومية عالية هم في غالبيتهم مسلمون يلتزمون بالختان والزواج الإسلامي والدفن في مقابر المسلمين، ويؤدون الصلاة والصيام سراً، ويعلنون إسلامهم بعد التقاعد، وعلى هذا فإن الدراسات الحديثة تقدر نسبة المسلمين الذين يلتزمون بتعاليم الإسلام ما بين ٩٥ – ٩٩٪ من جملة المسلمين بما يؤكد على أنه لا يوجد مسلم ملحد كامل يكفر بجميع أحكام دينه. وإن كانت

مناصبهم تلزمهم بإظهار الكفر، إلا أنهم في قرارة نفوسهم يرون أنهم مسلمون، وأن تخليهم عن المراكز الحكومية في إدارة مجتمعاتهم يؤدي إلى إشغالها بعناصر روسية أجنبية تزيد من قوة سطوة الاستعمار وسيادة الروس في بلادهم.

وفي التحقيق الذي نشره دور جينوف في مجلة موسكو فيت نوكا في شهر أبريل عام ١٩٦٧ قال فيه إن بعض المثقفين السوفييت، وهم أعضاء الحزب الشيوعي وفي الكوموسمول وملحدون عن اقتناع، يعتبرون أنفسهم مسلمين، ولا يزالون يحافظون على أداء بعض الشعائر الدينية.

كما أثبتت الوقائع والدراسات العلمية بأن الشبان المسلمين المتشبعين بالثقافة الشيوعية، والمعروفين بالتلاحم في المجتمع السوفياتي، يرفضون ظواهر الترويس، ويتمسكون بشخصيتهم الإسلامية وإرثهم التاريخي وصفاتهم القومية، وتتفق كل التحقيقات على نقطة واحدة مشتركة هي أنها تكشف تعلق المؤمنين وغير المؤمنين الفريد بمجموعة من الممارسات التي تشكل طريقة العيش الإسلامية، والتي تميزهم عن الروس، وتكون عقبة أمام التقارب البيولوجي (الزواج) بين المسلمين وغير المسلمين. حيث لم تفلح الضغوط المادية والمعنوية في حمل المسلمين والمسلمات على الزواج من غير أهل دينهم إلاّ بنسب قليلة.

أحدث إحصائية لأهم القوميات الإسلامية في الاتحاد السوفييتي

كما أعلن عنها في ١٩ يناير ١٩٩٠م

اسم القومية	عام ١٩٨٩م	عام ١٩٧٩م	معدل الزيادة
الأوزبك	١٦٦٨٦٢٤٠	١٢٤٥٥٩٧٨	٣٤٪
القازاق	٨١٣٧٨٧٨	٦٥٥٦٤٤٢	٢٤،١٪
الأذاريون	٦٧٩١١٠٦	٥٤٧٧٣٣٠	٢٤٪
التاجيك	٤٢١٦٦٩٣	٢٨٩٧٦٩٧	٤٥،٥٪
التركمان	٢٧١٨٢٩٧	٢٠٢٧٩١٣	٣٤٪
القيرغيز	٢٥٣٠٩٩٨	١٩٠٦٢٧١	٣٢،٨٪
التتار	٦٦٤٥٥٨٨	٦١٨٥١٩٦	٧،٤٪
الداغستانيون	٢٠٧٢٠٧١	١٦٥٦٦٧٦	٢٥،١٪
جوفاش	١٨٣٩٢٢٨	١٧٥١٣٦٦	٥٪
الباشكير	١٤٤٩٤٦٢	١٣٧١٤٥٢	٥،٧٪
الشيشان	٩٥٨٣٠٩	٧٥٥٧٨٢	٢٦،٨٪
اوستين	٥٩٧٨٠٢	٥٤١٨٩٣	١٠،٣٪
قراقلباق	٤٢٣٤٣٦	٣٠٣٣٢٤	٣٩،٦٪
قباردو	٣٩٤٦٥١	٣٢١٧١٩	٢٢،٧٪
قريم	٢٦٨٧٣٩	١٣٢٢٧٢	١٠٣،٧٪
الاويغور	٢٦٢١٩٩	٢١٠٦١٢	٢٤،٥٪
انغوش	٢٣٧٥٧٧	٢٨٦١٩٨	٢٧،٦٪
ترك	٢٠٧٣٦٩	٩٢٦٨٩	١٢٣،٧٪
قراجاي	١٥٦١٤٠	١٣١١٧٤	١٩،١٪
كرد	١٥٢٩٥٢	١١٥٨٥٨	٣٢٪
آريج	١٢٤٩٤١	١٠٨٧١١	١٤،٩٪
ابخاز	١٠٢٩٣٨	٩٠٩١٥	١٣،٢٪

بلغار	٨٨٧١١	٦٦٣٣٤	٣٢،٨٪
دونكان	٦٩٦٨٦	٥١٦٩٤	٣٤،٨٪
شركس	٥٢٣٥٦	٤٦٤٧٠	١٢،٧٪
بلوش	٢٩٠٩١	١٨٩٩٧	٥٣،١٪
عرب	١١٥٩٩	٦٨١٣	٧٠،٢٪

والأنظمة الشيوعية لا تجري إحصاءاتها طبقاً لأديان الناس، ولكن حسب قومياتهم وقبائلهم، وهذه الإحصائية لا تعكس عدد المسلمين في الاتحاد السوفييتي بالضبط؛ لكن توضح عدد أفراد كل قومية مسلمة، وبموجب الإحصاء الأخير قد بلغ عدد سكان الاتحاد السوفييتي ٩٦٥ ٦٨٨ ٢٨٥ نسمة، ويقدر عدد المسلمين الإجمالي بنحو ٧٥ مليون نسمة.

الجمهوريات السوفييتية ذات الصبغة الإسلامية

الاسم	المساحة	عدد السكان	نسبة المسلمين	العاصمة
جمهورية اذربيجان السوفييتية	٨٦٨٠٠كم٢	٧٢٧٠٠٠٠	٢٨٪	باكو
جمهوريةاوزبكستان السوفياتية	٤٤٧٤٠٠كم٢	١٩٨١٠٠٧ ٧	٨٦٪	طاشقنند
جمهوريةتاجيكستان السوفياتية	٤٣١٠٠كم٢	٥٤٩٠٠٠٠	٨٨٪	دوشنبه
جمهوريةتركمانستان السوفياتية	٤٨٨١٠٠كم٢	٣٧٨٩٠٠٠	٨٦٪	عشق آباد
جمهورية قازاقستان السوفياتية	٢٧١٧٠٠كم٢	١٦٧٨٢٠٠ ٠	٥٢٪	الما آتا
جمهوريةقيرغيزستان السوفياتية	١٩٨٥٠كم٢	٤٥٩٠٠٠٠	٧٣٪	فرونزه

الجمهوريات الذاتية ذات الكثافة الإسلامية

الاسم	المساحة	عددالسكان	نسبة المسلمين	العاصمة
جمهوريةتتارستان	٦٨٠٠٠كم	٤٢٥٠٠٠٠	٥٠٪	قازان
جمهورية باشكيريا	١٤٣٦٠٠كم	٤٣٢٠٠٠٠	٥٦٪	اوفا
جمهورية جوفاش	١٨٣٠٠٠	١٨٢٩٠٠٠	٥٨٪	جيبوكسراى

جمهورية قبرداى بلغار	١٢٥٠٠كم٢	٧٦٢٠٠٠	٥٥٪	نالجيك
جمهورية داغستان	٤٠٣٠٠كم٢	٢٣٥٠٠٠٠	٦٠٪	محج قلعه
جمهورية ششنانيفوش	١٩٣٠٠كم٢	١٧٣٥٠٠٠٠	٦٦٪	غروزني
جمهوريةاوستيناالشمالية	٨٠٠٠كم٢	٩١٩٠٠٠	٥٥٪	ارجونيكيزى
جمهورية انجازيا	٨٦٠٠كم٢	٧٥٠٠٠٠	٣٠٪	سوقومي
جمهورية اجاريا	٣٠٠٠كم٢	٤٥٠٠٠٠	٤٠٪	باطومي
جمهورية ادمورتيا	٢١٠٠كم٢	١٨٥٠٠٠٠	٥٢٪	ازيفسك
جمهورية موردفيا	٦٢٠٠كم٢	١١٥٠٠٠٠	٥٥٪	سارنسك
جمهورية ناخجيفان	٥٥٠٠كم٢	٢٩٧٠٠٠	٩٥٪	ناخجوان
جمهورية ماريا	٣٢٠٠كم٢	٩٥٨٠٠٠	٥٢٪	يوشكاراولا
جمهورية قره قلباق	١٦٤٩٠٠كم٢	١٤٥٠٠٠٠	٨٠٪	نوقوس

المقاطعات الذاتية ذات الكثافة الاسلامية

الاسم	المساحة	عددالسكان	نسبة المسلمين	العاصمة
مقاطعة ناغورنو —قره باغ	٤٤٠٠كم٢	٢٧٨٠٠٠	٣٠٪	ستيافاكرت
مقاطعة قره جاي شركس	١٤١٠٠كم٢	٤٥٠٠٠٠	٦٠٪	شركسك
مقاطعة اديغا	٧٦٠٠كم٢	٥٤٠٠٠٠	٥٠٪	مابكوب
مقاطعة اورينبورغ	١١٢٠٠٠كم٢	٢٥٠٠٠٠٠	٥٠٪	اورنبرغ
مقاطعة غورنو — بدخشان	٦٧٣٠٠كم٢	١٨٠٠٠٠	٨٥٪	خوروغ

قبل الوصول إلى بلاد الباشقرد

اعتدنا على أن نقدم بين يدي المشاهدات في البلد الذي نكون على وشك الوصول إليه لمحة تعريف تساعد القارئ الكريم على تصور مسرح الرحلة، وخلفيات بعض المسميات فيه، وحتى تساعده على تصور تاريخي مجمل لماضيه.

وهذا ما أردت تقديمه بين يدي الكلام على (جمهورية بشقردز ستان) أو بشكيريا.

المعالم الجغرافية

١- اسم البلد:

تسمى المنطقة جمهورية باشقردز ستان، ويعرفها بعضهم باسم بشكيريا.

٢- الموقع والمساحة:

تقع جمهورية باشقردزستان في جنوب جبال الأورال، يحدها من الشمال والغرب "جمهورية تتارستان"، من الجنوب تحدها محافظة "أورنبورغ"، أما الشرق الشمال فيحد بمنطقة سيبيريا.

هذا الموقع الذي يجعلها همزة وصل بين قارتي آسيا وأوروبا.

تبلغ المساحة الإجمالية للجمهورية (١٤٣٦٠٠) كلم مربع

٣- المناخ:

يسود المنطقة مناخ قاري بارد (مضطرب)، فالشتاء بارد ويسوده فترات من التجمد لا سيما فوق المرتفعات، وتنخفض درجة الحرارة إلى ما دون الصفر بكثير؛ حيث يتراوح المعدل السنوي لدرجة الحرارة بين (+١) درجة فوق الصفر بالمنطقة الجنوبية الشرقية، و (-٦) ست درجات تحت الصفر بالمنطقة الشمالية

الغربية المحاذية لسيبيريا ، أي يمكن أن تصل درجة الحرارة في بعض الأحيان إلى (-٣٠) ثلاثين درجة تحت الصفر.

مدة الشتاء في الشمال (٧ أشهر)، "من شهر أكتوبر – شهر إبريل"، أما في الجنوب فمدة الشتاء هي (٥ أشهر) "من شهر نوفمبر إلى شهر مارس".

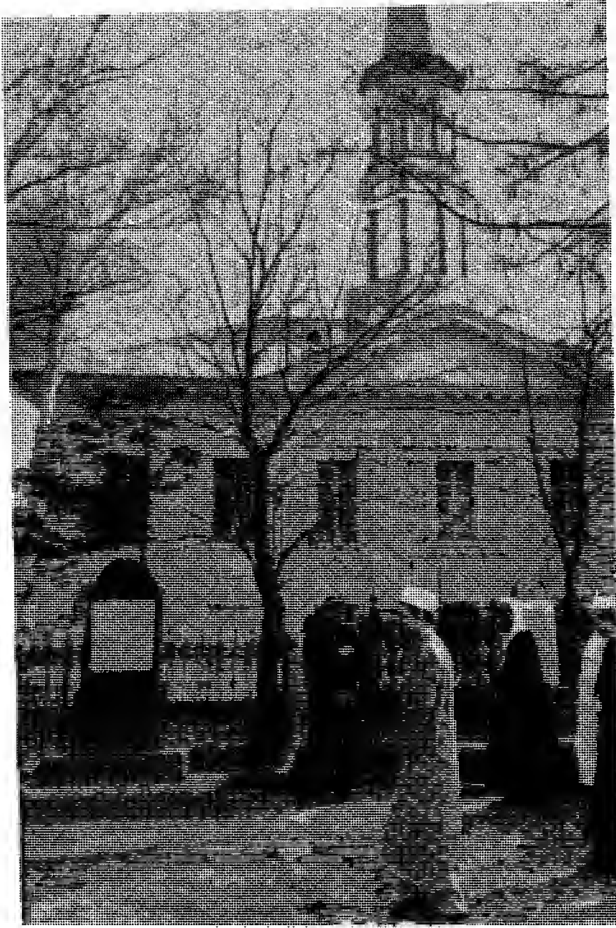
٤- التضاريس:

نظراً لموقع الجمهورية الموجودة في شرق روسيا الاتحادية، وكذلك محاذاتها لنهر "الفولغا" فإن طبيعة المنطقة تتميز بكثرة السهول خاصة في المنطقة الغربية للجمهورية، أي مجرى بعض روافد نهر الفولغا مثل نهر (كاما) حيث يوجد الطرف الجنوبي من جبال الأورال، كذلك تنبع منها عدة روافد تتجه إلى نهر الفولغا ونهر الأورال، وتمثل هذه الروافد ممرات تعبرها الطرق.

٥- المدن الرئيسية:

يوجد بجمهورية "باشقردز ستان" مدن رئيسية هي:

الرقم	اسم المدينة
١	العاصمة (أوفا)
٢	مدينة (ستبرليتماك)
٣	مدينة (صالافات)
٤	مدينة (أكتيابر سكايا)
٥	مدينة (بيلوريتسك)
٦	مدينة (نيفتيكماهسك)
٧	مدينة (إيشمباى)
٨	مدينة (كوميرتاى)
٩	مدينة (بيرسكا)
١٠	مدينة (بيليبيا)



جامع أوفا

٦ - عدد السكان:

يبلغ عدد سكان جمهورية باشقردز ستان أربعة ملايين و(٣٢,٠٠٠) ألف نسمة حسب آخر الإحصائيات التي جرت سنة ١٩٩٥م، ويتوزع سكان الجمهورية على المدن والأرياف، حيث يسكن في المدن حوالي (٢٠٠٠٠٠٠) نسمة، أما في القرى فيسكن حوالي (٩٨٠٠٠٠) نسمة، ويمكن شرح توزيع السكان في الجمهورية حسب الجدول التالي:

الرقم	اسم المدينة	عدد السكان
١	العاصمة (أوفا)	١,٠٠٠,٠٨٥ ألف نسمة
٢	مدينة (ستيرليتماك)	٢٤٨ ألف نسمة
٣	مدينة (صالافات)	١٥٠ ألف نسمة
٤	مدينة (أكتيابر سكايا)	١٠٥ ألف نسمة
٥	مدينة (بيلوربتسك)	٧٢,٥ ألف نسمة.
٦	مدينة (نيفتيكماسك)	١٠٧ ألف نسمة.
٧	مدينة (إيشمباي)	٦٩،٩ ألف نسمة.
٨	مدينة (كوميرتاي)	٦٤،٣ ألف نسمة.
٩	مدينة (بيرسكا)	٣٤,٩ ألف نسمة.
١٠	مدينة (بيليبيا)	٥٣,٤ ألف نسمة.

أغلبية سكان جمهورية بشقردرستان هم الشعب البشكيري الذي يتكلم إحدى اللغات التركية، وهم مسلمون أحناف مثلهم مثل التتار، لكن فرضت عليهم اللغة الروسية، وأصبحت اللغة الرسمية، كما يعيش في بشكيريا عدد كبير من القوميات الأخرى مثل الروس الذين يعتبرون القومية الثانية بعد البشكير، والتتار، وكذلك البيلاروس، والأوكرانيون، والتشوفاش لكن بنسب قليلة، وبعض القوميات الأخرى.

٣ – اللغة الرسمية للمنطقة واللهجات المحلية:

اللغة الرسمية الأكثر تكلماً والتي تستعمل في المنطقة هي اللغة الروسية، لكن في السنوات الأخيرة وجد اهتمام كبير واتجاه للناس نحو اللغة "البشكيرية والتتارية" لغتهم الأصيلة.

وبما أن المنطقة يسكن فيها عدد من القوميات المختلفة، لهذا توجد لكل قومية لغتها الخاصة رغم أنهم كلهم يعرفون اللغة الروسية، أهمها:

١) الروس   اللغة الروسية.

٢) التتار   اللغة التتارية.

٤- التوزيع الديني للسكان، والمذاهب المتبعة.

نظراً لأن أغلبية السكان من البشكير والتتار، فإن الديانة الأكثر انتشاراً هي الديانة الإسلامية، و(المذهب المتبع في الفروع هو المذهب الحنفي)، ثم تأتي المسيحية الأرثوذكسية في الآونة الأخيرة، وانتشر العمل الكبير التي تقوم به الجمعيات المسيحية؛ حيث إنهم لديهم إمكانات مادية كبيرة.

٧- نبذة تاريخية عن تأسيس جمهورية باشقردزستان:

تأسست جمهورية باشقردزستان في ٢٠ آذار ١٩١٩م واحدة من الجمهوريات الاشتراكية الفيدرالية السوفييتية، وكانت أول جمهورية مستقلة ذاتياً، وكانت أول عاصمة لها هي (سترليتاماك). ثم بعدها نقلت العاصمة من "سترليتاماك" إلى (أوفا)، وأصبحت العاصمة للجمهورية الآن.

٨- تاريخ دخول الإسلام إلى المنطقة:

وصل الإسلام إلى بلاد الخزر في جبال القوقاز في النصف الأول من القرن الهجري الأول، وذلك بعد فتح مدينة باب الأبواب التي تسمى الآن دربند، وأصبحت ثغراً إسلامياً هاماً، واستمر التوسع في انتشار الدعوة الإسلامية في العصرين: الأموي والعباسي، فوصل الإسلام إلى بلاد الصقالبة في حوض نهر الفولغا، ثم بلاد البلغار المجاورة، حيث طلبوا من الخليفة العباسي إرسال وفد إليهم يعلمهم أمور الدين، فأرسل الخليفة المقتدر وفداً إلى هذه المنطقة لتفقيه أهلها في الدين، ووصل إليها مع الوفد الكاتب ابن فضلان الجغرافي المشهور، فكتب عن أهل المنطقة، وذكر البشكير ضمن منطقة حوض الفولغا، وكانت زيارته في بداية القرن الرابع الهجري.

فبعد اعتناق الصقالبة والبشكير الإسلام مبكراً، وانضمامهم إلى دولة البلغار التي اعتنق حكامها الإسلام، بدأ البلغار في محاولة إدخال ملك روسيا إلى الدين الإسلامي.

وبعد أن غزا المغول بلاد الشعب البشكيري، وفرضوا سيطرتهم على بلادهم حافظ البشكير على عقيدتهم الإسلامية، ثم أسلم ملوك المغول، فصارت الدولة إسلامية، وهاجر الكثير من البشكير إلى العالم العربي، وكان منهم "علم الدين البشكيري" نائباً للسلطان قلاوون في سوريا، وقد جند المماليك عدداً منهم، وظل البشكير على علاقة بدولة الأتراك العثمانيين، ثم احتل الروس أرض الباشكير سنة ١٥٥٧م في عهد الإمبراطور إيفان الرابع، والذي عرف بـ "إيفان الرهيب" أو المدهش؛ حيث حاول الروس زعزعة عقيدة الإيمان في قلوب البشكير الذين قاوموهم بشتى الوسائل، وذلك ما تفسره الثورات التي قاموا بها مثل ثورة سنة ١٧٧٣م على إثر صدور قوانين ترغم السكان على أن يعتنقوا المسيحية كرهاً.

واضطهد المسلمون بصفة عامة، والشعب البشكيري بصفة خاصة، ومن بين هذه القوانين التي أصدرتها الإمبراطورة كاترين الثانية سنة ١٧٧٨ لتقييد حرية العبادة، وإجبار كل الناس على التدين بالمسيحية، وقاوم البشكير مرة ثانية وتحدوا ذلك بكل شجاعة، بل وإنهم قاموا أيضاً بنشر الدعوة بصورة سرية، وكانت من نتائج هذه الدعوة إسلام قبيلة الشيرميس رغم اعتناق الكثير منهم المسيحية، هذا رغم القوانين التي كانت تعاقب كل من يتحول من المسيحية إلى الإسلام بصرامة، وبعدها هاجر كثير من البشكير إلى قرى الشيرميس لإقامة المساجد، ذلك أن القوانين الروسية كانت تحرم معتنقي الدين الإسلامي الجدد من بناء المساجد، ولما صدر قانون حرية التدين في روسيا القيصرية في سنة ١٩٠٥م نشط الباشكير في الدعوة علانية حيث أصبح عدد المدارس الإسلامية في باشقردزستان أكثر من ستة آلاف مدرسة.

وعندما استولى الشيوعيون في روسيا على الحكم أعلنوا قيام جمهورية باشكيريا الاشتراكية سنة ١٩١٩م، ثم بعد أربع سنوات ألغيت المدارس،

وهدم الكثير من المساجد، ودخل البشكير مرحلة أخرى من التحدي من أجل العقيدة، ولكنهم لم يستكينوا ولم يهنوا بعد هذه الإجراءات، وقاوموا حتى اضطر الشيوعيون إلى الاعتراف بالإدارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفييتي ومسلمي سيبيريا، ووضع مقرها في عاصمة الجمهورية أوفا سنة ١٩٤٣م، ولهذه المدينة تاريخ إسلامي حافل.

وبما أن أهم المشكلات المطروحة في مجال الدعوة في المنطقة هي نقص الدعاة المؤهلين لتدريس الدين الإسلامي، وكذلك نقص الكتب الإسلامية والخاصة بتعليم اللغة العربية. لهذا لا بد من توفير أو تكوين جماعات محلية يمكن الاعتماد عليها مستقبلاً من أجل العمل الإسلامي مع قوميتهم، كذلك توفير الكتب الإسلامية المترجمة، وكذلك العمل على بث برامج تلفازية وإذاعية إسلامية خاصة بالمناسبات الإسلامية، وتوفير الأشرطة السمعية والبصرية الخاصة بالأفلام الإسلامية والدروس والمحاضرات.

وهذا حديث عن المسلمين في بشكيريا مختصر من حديث للشيخ عبدالباري عيسايف الرئيس السابق للإدارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفييتي وسيبيريا، وهو لا يخرج عن النطاق الرسمي في حديثه إلا بما لا يتعارض مع ذلك.

نتحدث عن نشاطات واحدة من الإدارات الدينية آنفة الذكر، وهي الإدارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفييتي و سيبيريا، وعن حياة المسلمين في هذه الأقاليم، فهي إحدى المنظمات الإسلامية القديمة التي أنشئت قبل مئتي عام. نبغ خلالها علماء بارزون بالتصانيف والآثار القيمة. وأكثرهم ألفوا آثارهم باللغة التركية، وبعضهم باللغة العربية و تصانيفهم وآثارهم مفيدة للجميع، و أكثرهم قد مضوا قبل ثورة أكتوبر و بعضهم بقوا وكتبوا آثارهم، وطبعوا كتبهم في مطابع قازان وبطرسبورغ بعد الثورة. وحتى الآن فإن هذه الإدارة الدينية لمسلمي سيبريا والقسم الأوروبي من الاتحاد

السوفياتي تنشط نشاطاً لا بأس به، وبعد ثورة أكتوبر انتخب بين مسلمي باشكريا وتاتاريا سماحة المفتي رضاء الدين بن فخر الدين، وهو من أبرز العلماء بالاتحاد السوفياتي وأكثرهم تضلعاً في التفسير والحديث والتاريخ والسير، وفي كل هذه العلوم له آثار مفيدة يستفيد منها حتى الآن مسلمو تاتاريا وباشكيريا وأبناء الوطن.

وتوفي رحمه الله سنة ١٩٣٦ وعمره يناهز ٨٠ سنة. وبعده انتخب سماحة المفتي عبد الرحمن رسولي، نشأ سماحته في أسرة معروفة بكرم الأخلاق والدين، و له آثار مفيدة. توفي سماحته سنة ١٩٥٢م. فبقي منصب الفتوى خالياً سنة كاملة. و تواردت العرائض إلى الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان إلى سماحة المفتي إيشان باباخان رحمة الله عليه بأن تعيين المفتي متوقف بإجماع العلماء التاتاريين والباشكيريين على رأي سماحة المفتي إيشان باباخان رحمه الله تعالى. وبعد ذلك دعا سماحته علماء الأمصار من تاتاريا وباشكيريا و القسم الأوروبي، وألقى كلمة تحدث فيها عن تاريخ النظارة الدينية لمسلمي سيبريا والقسم الأوروبي، ومهمتها وخدماتها الجليلة ابتداء من المفتيات الأولى.

فسأل كل واحد من علماء تتار و باشكيريا أن ينتخب واحداً منهم، ولكنهم اتفقوا على أن يعين المفتي من جانب سماحة إيشان باباخان. فأجاب بأن لدينا عالماً مشهوراً تاتارياً وحافظ كلام الله من علماء تاتار، ولكنه الآن معين من قبلنا لمسجد جمكينت التي تقع قرب طشقند بمسافة ١٢٠ كيلومتراً، فهو جدير لمنصب المفتي، واتفق آراء العلماء على هذه الفكرة الصحيحة التي عرضها سماحة المفتي إيشان باباخان رحمة الله عليه. فتعين سماحة الشيخ الحافظ شاكر خيال الدين بن شيخ الإسلام في سنة ١٩٥٣. وتوفي سماحته في سنة ١٩٧٤ (رحمه الله تعالى)، و بعد وفاة الشيخ شاكر خيال الدين انتخب سماحة المفتي عبد الباري عيسايف رئيساً للنظارة الدينية

لمسلمي سيبريا والقسم الأوروبي من الاتحاد السوفياتي. وكان هذا المفتي من قبل إماماً وخطيباً لمسجد لينينغراد.

وقد تحدث الشيخ باقتضاب عن تاريخ الشعب الباشكيري الشقيق، وعن حياة المسلمين ونشاطهم العملي في باشكيريا، وعن منجزات هذا القطر المزدهر العملية والإبداعية عبد الباري عيسايف فقال:

تقع بقعة باشكيريا في جنوبي الأورال وقسم من المجرى الأوسط لنهر الفولغا، وقاما وتوبول والأورال، وجاء في المصادر القديمة، وخاصة في مؤلفات كل من ياقوت الحموي "معجم البلدان"، وللقزويني "عجائب المخلوقات"، و لأبى الفداء "تقويم البلدان" أن ظهور القومية البشكيرية يعود إلى القرن التاسع. وأنهم كانوا يقطنون خلال الحقبة من القرن ٩ إلى القرن إلى ١٣ جنوب جبال الأورال، وعلى سواحل بحر الخزر وفي السهول الواقعة بين نهري الفولغا والأورال. تبلور الشعب الباشكيري كقومية جراء اندماج القبائل التركية والأويغورية، وانضمت إلى هذه المجموعة قبائل بوزان وتانفاور وأوسيرغان وغيرها. وفي القرن الـ١٠ اندمجت معها كذلك قبائل كيبتشاك وبلغار ونوغاي التي تقطن بمحاذاة ضفاف الفولغا. وفي القرن السادس عشر تكونت القومية الباشكيرية تكويناً تاماً. ودخلت إحدى لهجات اللغة التركية في أساس اللغة القومية للباشكير.

كان الشعب الباشكيري يزاول قديماً تربية المواشي والصيد البري وصيد السمك وقطع الخشب وتربية النحل. وفي وقت لاحق وتحت تأثير البلغار انتقل سكان باشكيريا الغربية إلى الحياة الحضرية، وراحوا يعملون بالزراعة.

وكما تؤكد عليه المراجع والمصادر التاريخية بدأ الدين الإسلامي الحنيف بالانتشار في هذه الديار التي تتشكل منها باشكيريا الحالية، منذ القرن العاشر الميلادي. وبهذا الصدد كتب علامة الشرق القديم رمزي في

كتابه "تلفيق الأخبار وتنقيح الآثار في وقائع قازان والبلغار وملوك تاتار" واستند في قوله على المعطيات التي أوردها ياقوت الحموي في مؤلفه "معجم البلدان" فقال: «أرسل الخليفة المقتدر بالله في عام ٣٠٩هـ أحمد بن فضلان بن عباس بن رشيد بن حماد إلى بلاد باشكير كرسول له، وكلفه بدعوة السكان إلى اعتناق الإسلام.

فكان ذلك بداية لدخول الباشكير إلى الدين الإسلامي الحنيف».

وفي عام (١٢٢٩م – ٦٢٥هـ) زحفت إلى باشكيريا جحافل التتر المغول. وفي سنة ١٢٣٦ وقعت باشكيريا كلياً تحت سلطة قوات باطي خان. وفي أواسط القر الـ ١٠، وعلى أثر انقسام الأوردة الذهبيةإلى عدة إمارات، دخلت باشكيريا الجنوبية الشرقية ضمن إمارة نوغاى أوردة، وانضمت باشكيريا الغربية إلى إمارة قازان.

ومنذ القرن الـ ١٨ شرعت بالتطور في باشكيريا الصناعة والتجارة، ولعبت دوراً كبيراً في اقتصاد البلاد الصناعية التعدينية في الأورال .

وبعد انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى غدت باشكيريا بمرور الزمن قطراً صناعياً متطوراً ،ذات زراعة ممكنة.طرأت تطورات كبيرة في البلد على الحياة الاجتماعية وقضي على الأمية إلى الأبد.

تعتبر باشكيريا اليوم جمهورية متطورة اقتصادياً وثقافياً. إنها تشغل في السنوات الأخيرة المرتبة الثانية في الاتحاد السوفييتي بعد جمهورية تاتاريا ذات الحكم الذاتي باستخراج النفط، وبالإضافة إلى ذلك تستخرج في باشكيريا كميات هائلة من الغاز الطبيعي، والفحم. طرأ تطور كبير جداً على نظام توليد الطاقة الكهربائية الذي انضم إلى نظام الطاقة في ضفاف الفولغا وأورال، وتعمل على نهر أوفا محطة كهربائية بقدرة ١٦٦ ألف كيلو واط.

وطرأ تطور كبير خلال العهد السوفييتي على صناعة إنتاج المكائن

والسيارات. فتنتج المعامل الضخمة في مدن: أوفا وستيليتا ماك وصلوات السيارات الجبارة والماكنات الضرورية لاقتصاد جمهوريتنا. تشتهر المناطق الجبلية من باشكيريا بثرواتها الطبيعية حيث تستخرج كميات كبيرة من فلزات الحديد والنحاس وغيرها من المواد الثمينة.

وبفضل الاهتمام الدائم من لدن السلطة السوفييتية أحرزت الجمهورية نجاحات كبيرة في مجال العلوم. فتأسست في باشكيريا معاهد الأبحاث العلمية والمختبرات الخاصة بالاستخدام الأمثل للنفط ومعالجته. وفي سنة ١٩٥١ تأسس في باشكيريا فرع أكاديمية العلوم السوفييتية الذي وحد بين معاهد الأبحاث العلمية المتخصصة في الجغرافيا وتاريخ وعلم اللغات والآداب والاقتصاد والكيمياء العضوية. وفي الوقت الراهن يعمل في مختلف المعاهد التابعة لفرع الأكاديمية ٤٠٠ عالم ونيف، منهم ٢٠ بدرجة دكتور في العلوم، و١٥٠ بدرجة مرشح للعلوم. ويقوم علماء الجمهورية بمساهمة كبيرة في تطوير العلم والتكنيك في عموم البلاد، ويقدمون وصايا محددة بهدف تطوير الفروع الهامة في اقتصاد جمهورية باشكيريا ذات الحكم الذاتي.

وطرأت تغيرات كبيرة على حماية الصحة. وتعير دولتنا اهتماماً بالغاً بهذا الصدد لأعداد الكوادر المحلية من الأطباء، ولبناء المؤسسات الصحية. ففي الجمهورية الآن حوالي ٤٠٠ مستشفى تحتوي على ٣٥٨٠٠ من أسرة المرضى، و٥٢٠ مستوصفاً يعمل فيها بنجاح ٦٥٠٠ طبيب، و ٢٥٣٠٠ ممرض وممرضة. وعلاوة على ذلك ثمة في باشكيريا ٣١ مصحاً، و١١ داراً للاستجمام والراحة. حيث يرتاح فيها آلاف المواطنين سنوياً.

تبلغ جمهورية باشكيريا ذات الحكم الذاتي نجاحات لم يسبق لها مثيل في شتى مجالات الحياة، ويعمل شعبها المتعدد القوميات بنجاح لجعل الحياة أكثر بهاء وروعة. أما الإدارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفييتي وسيبيريا وقيادتها، فتبذل جهوداً كبيرة في نشاطها اليومي من أجل

إغناء الحياة الروحية لمسلمي باشكيريا بأحكام القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ . ثمة المساجد الموجودة على رقعة الجمهورية. وخلاف ذلك، ثمة مساجد كبيرة في موسكو و لينينغراد ونوفوسيبيرسك، وهي أيضاً تقع تحت إشراف الإدارة الدينية آنفة الذكر، تقول الآية القرآنية: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ .

وانطلاقاً من هذا الاعتبار الإلهي للمساجد تقوم مساجد باشكيريا بدور كبير من أجل نشر وتعميق أحكام الإسلام بين المسلمين.

يتمسك مسلمو الاتحاد السوفييتي على الدوام بقوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ ، وكمثال على هذا التعاون نذكر ما تسديه الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان برئاسة سماحة المفتي ضياء الدين خان بن إيشان باباخان إلى إدارتنا في مجال إعداد الأئمة الشباب.

إن الأئمة الشباب الممتلئين عزماً وحيوية يساهمون مساهمة فعالة في نشاط إدارتنا الدينية بعد تخرجهم من مدرسة « مير – عرب » الدينية في بخارى، وعودتهم إلى موطنهم باشكيريا ، ويديرون أمور المساجد إدارة جيدة جداً ، ومن بين هؤلاء الأئمة الشباب يمتاز خاصة الإمام الخطيب في الجامع الكبير بمدينة أوفة الشيخ عباس بيبارصوف أنه واصل دراسته بعد التخرج من « مير –عرب » في كلية الشريعة الإسلامية بدمشق لدى الجامعة. أما في جامع لينينغراد فيعمل إماماً خطيباً الحاج جعفر بانتشايف، وهو أيضاً متخرج مدرسة « مير – عرب » الدينية ، إنه يتمتع باحترام عميق من لدن المؤمنين في لينينغراد. وذلك بفضل تعمقه في المعارف الدينية التي تلقاها خلال مدة دراسته في مدرسة « مير – عرب » وبفضل اطلاعه على أحكام القرآن الكريم والسنة النبوية.

وثمة ممثل آخر للجيل اليافع من أئمة باشكيريا ، وهو طلعة تازييف. إنه يدرس في الوقت الراهن في جامعة " الأزهر " بالقاهرة. ويقول تازييف باعتزاز

إن مرد دراسته الناجحة في القاهرة هي معلوماته التي تلقاها في مدرسة « مير – عرب » ببخارى.

من الصعب هنا ذكر أسماء كافة أئمتنا الشباب، فيكفي القول إن عشرات من مسلمي باشكيريا يدرسون الآن في مدرسة « مير عرب » ببخارى، والمدرسة الدينية العليا بطشقند، المسماة باسم إمام المحدثين – الإمام البخاري.

تقوم الإدارة الدينية في أوفا بأعمال مدير قسم العلاقات الخارجية مع البلدان الأجنبية. وفي هذا المجال يبذل جهوداً كبيرة مدير قسم العلاقات مع البلدان الأجنبية لدى الإدارة الدينية رشيد غلمانوف. وقام بزيارة ودية لإدارتنا مختلف الوفود الإسلامية من إندونيسيا، والأردن، واليمن، وتشاد، والسنغال، وكميرون، ومن البلدان في العالم العربي والإسلامي.

إننا أطلعنا أعضاء الوفود بكل سرور وضيوفنا الأكارم على حياة ونشاطات مسلمي باشكيريا والإدارة الدينية، وعلى منجزات الشعب الباشكيري في شتى ميادين الحياة. وسافر ممثلو مسلمي باشكيريا بدورهم في عداد الوفود الإسلامية من الاتحاد السوفييتي إلى مختلف البلدان الإسلامية للاطلاع على حياة ومنجزات إخوتهم في الدين وهكذا، فقد زار ممثل إدارتنا الشيخ عباس بيبارصوف قبل مدة بلغاريا الشعبية، وقد لعبت هذه الزيارة - ولا ريب - دوراً كبيراً في إقامة علاقات أخوية بين مسلمي بلغاريا وجمهورية باشكيريا السوفييتية ذات الحكم الذاتي.

قال الله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾، وامتثالاً لمشيئة الله وإرادته فإن الإدارة الدينية في أوفا تهتم اهتماماً بالغاً بالمساجد وتحرص على ترتيب ونظافة الموجودة منها في الجمهورية، وترمم القديمة منها.

فقد بوشر في هذه السنة بأعمال كبيرة لترميم جامع كبير في أوفا. إنه

بني عام ١٨٣٠. ورممت كذلك بالطابوق منارة المسجد. وتقدم المنظمات التابعة للدولة مساعدات كبيرة للإدارة الدينية في هذه الأعمال، كتأمين مواد البناء، وغير ذلك. وجدير بالذكر أن المتطوعين يساهمون مساهمة كبيرة في ترميم المساجد. وهذا ما يظهر مرة أخرى إخلاص وولاء مسلمي بلادنا لدينهم وسعيهم من أجل الحفاظ على آثار الفن المعماري لأسلافهم على أكمل وجه. إن إخلاصهم وسعيهم من أجل عمل الخير سيجازى خيراً عند الباري ﷻ إن شاء الله. فقد قال الله تعالى ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٩﴾ ﴾

وفي هذا الصدد، تجدر الإشارة إلى أن الإدارة الدينية قد افتتحت ثلاثة مساجد جديدة خلال الـ (٧ – ٨) أشهر الأخيرة، وقد افتتحت مساجد جديدة في مدن الماتييفسك في تاتاريا، وموزغ في موردفيا، وبلدة أيريوك بمحافظة كيروف في روسيا السوفييتية، وتعين الأئمة الخطباء ذوي التحصيل الديني للمساجد آنفة الذكر.

كما وتهتم الإدارة الدينية باستمرار بتوفير الكتب الدينية الضرورية للمسلمين، وذلك لتسهل عليهم تطوير معلوماتهم الدينية. وفي هذا المجال تقدم مكتبة الإدارة الدينية خدمة كبيرة للمسلمين فهي تحتوي على ١٣ ألف كتاب في مختلف مسائل الدين الإسلامي. وعلاوة على ذلك. يستلم المسلمون سنوياً التقاويم الدينية التي تصدرها الإدارة الدينية، وتصدر الإدارة الدينية كذلك الفتاوى بشأن المسائل التي تهم المسلمين.

وفي ختام حديثه، لجأ سماحة المفتي عبد الباري عيسايف إلى الآية القرآنية الكريمة: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ ثم ابتهل إلى الله العلي القدير أن يهدي شعوب العالم كافة إلى طريق الصواب والرشد، وأن يوطد الحق والعدل والسلم والأمان في العالم كله. آمين.

انتهى كلامه، وهو معيّن من السلطات الشيوعية ويتكلم بما تريده أن يتكلم به.

٨- المصادر الرئيسية التي تعتمد عليها موارد الجمهورية:

يعتمد اقتصاد الجمهورية بالدرجة الأولى على مواردها المعدنية الغنية بها مثل الحديد والنحاس والنيكل الذي يستعمل في صناعة الطائرات والذهب والفضة، وكذلك المحروقات (النفط والغاز) والصناعات الخشبية وبما أن الجمهورية محاذية لكثير من روافد نهر الفولغا مما أعطى الفرصة على توليد كمية كبيرة من الطاقة الكهربائية.

أما من الجانب الزراعي فتعتبر جمهورية بشقردزستان جمهورية زراعية بالدرجة الأولى حيث يوجد فيها أكثر من ٤٠ مزرعة نموذجية (جماعية)، وخمسين مزرعة حكومية، والحاصلات تتمثل في القمح والشوفان والشعير والبنجر السكري، ويعتبر الرعي وتربية الحيوانات حرفة هامة في باشكيريا لا سيما النطاق الجنوبي من جبال الأورال حيث المروج الطبيعية، وتربي الخيول الباشكيرية المشهورة كما تربى الأبقار والأغنام والماعز.

٩- أهمية التجارة في الجمهورية:

نظراً لطبيعة اقتصاد المنطقة، وكذلك موقعها، فالتجارة تحتل مكانة مرموقة، والاستثمار في هذا المجال يلقى نجاحاً كبيراً.

وأهم المركبات السياحية الموجودة في المنطقة هي المركبات الطبية للاستشفاء، كذلك المناطق التاريخية الإسلامية.

وتتمثل المشكلات الاقتصادية التي تواجه المنطقة في الاستثمار والاستيراد والتصدير إلى الخارج رغم أهميتها، و يمكن الاستثمار عن طريق المسلمين بالمنطقة، وأهم المجالات التي يمكن الاستثمار فيها هي النفط، والغاز، و في الزراعة.

١٠- نسبة الأمية:

في جمهورية باشكيريا لا توجد الأمية إلاّ بقدر ضئيل، وهناك عدد من السكان قد أنهوا الجامعات والمعاهد أو (دراسات عليا).

ويوجد بالجمهورية عشرة معاهد وجامعة واحدة، ومراكز وأقسام جامعية متخصصة.

ومن مشكلات المسلمين في المنطقة هو نقص الدعاة المؤهلين، مع أن الجمهورية أغلبية سكانها مسلمون نظراً لضعفها وقلتها.

نشاط المنظمات غير الإسلامية

أهم المنظمات التي تنشط في المنطقة كغيرها من المناطق الأخرى في روسيا الاتحادية هي تلك المنظمات التي تقوم بالدعوة للمسيحية، وهي كلها قادمة من أوروبا الغربية أو من أمريكا الشمالية، وتتبع هذه المنظمات مختلف الكنائس المسيحية (البروتيستانت، الكاثوليك، الأرثوذكس، الأنجليكان ...إلخ)، وينشطون أيضاً في القرى المأهولة بالمسلمين، ومن أهم وسائلهم التنصيرية هو الإغراء بالمال، وكذلك امتلاكهم إمكانيات مادية كبيرة.

الباشقرد في الكتب العربية القديمة

لا يعرف كثير من مثقفينا المسلمين بلاد الباشقردز بل ربما ظن أن تسميتهم هذه تسمية محدثة أطلقها عليهم الروس أو المتأخرون من غيرهم، ولذلك لا يحاول حتى الرجوع للكتب العربية التي قد تذكرهم مع أن ذكرهم واضح بل مجلجل في كتب أسلافنا العرب الأماجد الذي لم تكن تمنعهم الموانع من بعد المسافة أو صعوبة الاتصال ولا عاقتهم العوائق من الحصول على المعلومات عنهم.

لذلك رأيت أن أنقل شيئاً عن ذكرهم في كتبنا القديمة من كتاب جمعه أحد فضلاء المنطقة وهو الشيخ إم، إم، الرمزي من أهل قازان، وحشد

فيه النصوص العربية الواردة عن (الباشقردز) ومحصها، وهو أوفى ما رأيته من الكتب في هذا الموضوع. قال:

" الباشقرت، وربما يتلفظ بالغين المعجمة أو الجيم بدل القاف، وبالميم والجيم الشين، وتأوه تبدل في العربية في جميع لغاته، وإلا فيقال: باشقرد، وبشغرد، وبشجرد، ومجغرد. وأما الروس والمتروس والأفرنج والمتفرنج فيقولون: باشكير، وعلى كل حال فهم أمة عظيمة من الأقوام التركية، ومسكنهم الآن نهر وولغا وجبال أورال وفي شرقيها، والمشهور أنهم كانوا ممتدين قبل هذا التاريخ بمائتي سنة إلى نهري إيلك وقوبدابل إلى مسافة في شرقيهما من صحراء قزاق حال كونهم رحالة نزالة، ثم طردتهم القزاق إلى مساكنهم الحاضرة.

وقد صرح بعض السواح المتقدمين من المسلمين كونهم في طاعة بلغار في مساكنهم الحاضرة، ويعين بعض منهم مساكنهم في حدود الإفرنج كما قال الملك المؤيد أبو الفداء في تاريخه: ومن النصارى أيضاً باشقرد، وهم أمة كثيرة ما بين ألمان وبلاد إفرنجة، وملكهم وغالبهم نصارى، وفيهم مسلمون، وهم شرسو الأخلاق. ا.هـ.

وقال في كتابه تقويم البلدان: بلاد الباشقرد في الإقليم السابع، وهم ترك جاوروا الألمانيين على عهد متواثق، وهم مسلمون من جهة فقيه تركماني ويصرهم بشرائع الإسلام، وأكثر عمائرهم في نهر دوما لعله طونه، وعلى جنوبيه قاعدتهم.

قال القزويني في عجائب المخلوقات: باشغرت جيل عظيم من الترك بين القسطنطينية وبلغار، حكى أحمد بن فضلان رسول المقتدر بالله إلى ملك الصقالبة (يعني البلغار) لما أسلم، فقال عند ذكر باشغرت: وقعنا في بلاد قوم

من الترك، فوجدنا هم شر الأتراك، وأقذرهم، وأشدهم إقداماً على القتل، ووجدتهم يقولون للصيف رب[1]، وللشتاء رب، وللمطر رب، وللحياة رب، وللموت رب، وللأرض رب، وللسماء رب هو أكبرهم؛ إلا أنه يجتمع مع هؤلاء بالاتفاق، ويرضى كل بعمل شريكه. ا. هـ.

ونقل أيضاً عن السفير المشار إليه أنه قال: رأيت قوماً يعبدون الكراكي[2] إلا أنه لم يقل إنهم من الباشقرد.

ثم قال القزويني: قال لي فقيه من أهل باشقرت إن أهل باشغرت أمة عظيمة، والغالب عليهم النصارى، وفيهم جمع من المسلمين على مذهب الإمام أبي حنيفة، ويؤدون الجزية إلى النصارى كما تؤدي النصارى هنا إلى المسلمين، ولهم ملك في عسكر عظيم، وأهل باشغرت في خركاهات[3] ليس عندهم حصون، وكان كل حلة من الحلل إقطاعاً لمتقدم صاحب شوكة، وكان كثيراً ما تقع بينهم خصومات بسبب الإقطاعات، فرأى ملك باشغرت أن يسترد منهم الإقطاعات، ويجري لهم الجامكيات من الخزانة دفعاً لخصوماتهم ففعل، فلما قصدهم التتار تجهز ملك باشغرت لالتقائهم، فقال المتقدمون: لسنا نقاتل حتى ترد إلينا إقطاعاتنا. فقال الملك: لست أرد إليكم

---

(١) قلت: كأنهم كانوا على مذهب أفلاطون، فإنه يقول بوجود رب لكل نوع يقال له رب الأنواع. وتحقيقاته ليس هذا محل إيرادها. انظر المكتوبات. وكذلك قدماء اليونان كانوا يقولون بوجود إله على حدة للبر والبحر والحرب والصلح والتجارة إلى غيره من الأمور، إلا أنهم كانوا يصورون تمثالاً لكل واحد منها يعبدونه. ا. هـ. منه عفي عنه.

(٢) وتمامه: فقلت: إن هذا من أعجب الأشياء. وسألت عن سبب عبادتهم الكراكي، فقالوا: كنا نحارب قوماً من أعدائنا فهزمونا، فصاحت الكراكي وراءهم فحسبوها كميناً منا فانهزموا، ورجع الكرة لنا عليهم، فنعبدها لأنها هزمت أعداءنا. ا. هـ. فهذا يدل على أنهم قوم لا ينسون المعروف، ولو صدر من غير ذوي العقول بلا اختيار وقصد وروية، فكيف إذا كان من ذوي العقول قصداً واختياراً. منه عفي عنه.

(٣) الخركاهات: جمع خركاة، وهي الخيمة الكبيرة.

على هذا الوجه، وأنتم إن قاتلتم فلأنفسكم وأولادكم. فتفرق ذلك الجمع الكثير ودهمهم سيف التتار بلا مانع، وتركوهم حصيداً خامدين. ا.هـ.

قلت: بالنظر إلى أول كلامه وإلى قوله يؤدون الجزية إلى النصارى ليس هؤلاء الباشقرد الذين في أطراف أورال؛ بل طائفة الباشقرد الذين في حدود الإفرنج. والذي حكاه ابن فضلان إنما هو في شأن باشقرد أورال بلا شبهة.

قال الحموي في معجم البلدان: باشغرد بسكون الشين والغين معجمة، وبعضهم يقول: باش جرد بالجيم، وبعضهم يقول: باش قرد بالقاف، بلاد بين القسطنطينية وبلغار، وكان المقتدر بالله قد أرسل أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد مولى أمير المؤمنين، ثم مولى محمد بن سليمان إلى ملك الصقالبة، وكان قد أسلم هو وأهل بلاده، ليفيض عليهم الخلع، ويعلمهم الشرائع الإسلامية، فحكى جميع ما شاهد منذ خرج من بغداد إلى أن عاد، وكان انفصاله في صفر سنة تسع وثلاثمائة، فقال عند ذكر الباشغرد: وقعنا في بلاد قوم من الأتراك يقال لهم الباشقرد، فحذرناهم أشد الحذر، وذلك لأنهم شر الأتراك، وأشدهم إقداماً على القتل، يلقى الرجل الرجل فيفرز هامته ويأخذها ويتركه، ويحلقون لحاهم. وكل واحد من كفارهم قد نحت خشبة على قدر الإحليل ويعلقها عليه، فإذا أراد سفراً أو لقاء عدو قبلها وسجد لها وقال: يا رب افعل بي كذا وكذا. فقلت للترجمان: سل بعضهم ما حجتهم في هذا، ولم جعله ربه ؟ فقال: لأني خرجت من مثله، فلست أعرف لنفسي موجداً غيره. ومنهم من يزعم اثني عشر رباً: للشتاء رب، وللصيف رب، وللمطر رب، وللريح رب، وللشجر رب، وللناس رب، وللدواب رب، وللماء رب، ولليل رب، وللنهار رب، وللموت رب، وللحياة رب، وللأرض رب، والرب الذي في السماء أكبرهم إلا أنه يجتمع مع هؤلاء باتفاق، ويرضي كل واحد منهم ما يعمل شريكه، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وأما أنا فإني وجدت بمدينة حلب طائفة كثيرة يقال لهم الباشقردية

شقر الشعور والوجوه جداً، يتفقهون على مذهب أبي حنيفة ﷺ، فسألت رجلاً منهم استعقلته عن بلادهم وحالهم، فقال: أما بلادنا فمن وراء القسطنطينية في مملكة أمة من الفرنج يقال لهم الهنكر، ونحن مسلمون رعية لملكهم من طرف بلاده نحو ثلاثين قرية؛ كل واحدة تكاد أن تكون بليدة إلا أن ملك الهنكر لا يمكننا أن نعمل على شيء منها سوراً خوفاً من أن نعصي عليه، ونحن في وسط بلاد النصرانية، فشمالينا بلاد الصقالبة، وقبلينا بلاد اليابا يعني رومية... وفي غربينا الأندلس، وفي شرقينا بلاد الروم القسطنطينية وأعمالها. قال: ولساننا لسان الفرنج، وزينا زيهم، ونخدم معهم في الجندية، ونغزو معهم كل طائفة؛ لأنهم لا يقاتلون إلا مخالفي الإسلام، فسألته عن سبب إسلامهم مع كونهم في وسط بلاد الكفر، فقال: سمعت جماعة من أسلافنا يتحدثون أنه قدم إلى بلادنا منذ دهر طويل سبعة نفر من المسلمين من بلاد بلغار، وسكنوا بيننا، وتلطفوا في تعريفنا ما نحن عليه من الضلال، وأرشدونا إلى الصواب من دين الإسلام، فهدانا الله والحمد لله، فأسلمنا جميعاً، وشرح صدرنا للإيمان، ونحن نقدم إلى هذه البلاد ونتفقه، فإذا رجعنا إلى بلادنا أكرمنا أهلها وولونا أمور دينهم.

فسألته: لم تحلقون لحاكم كما يفعل الفرنج؟ فقال: يحلقها منا المتجندون، ويلبسون لبسة الفرنج، أما غيرهم فلا. قلت: فكم مسافة ما بيننا وبين بلادكم؟ فقال: من هنا إلى القسطنطينية نحو شهرين ونصف، ومن القسطنطينية نحو شهرين ونصف إلى بلادنا.

وأما الإصطخري فقد ذكر في كتابه: من باشجرد إلى بلغار خمسة وعشرون مرحلة، ومن باشجرد إلى البجناك، وهم صنف من الأتراك، عشرة أيام. انتهى من معجم البلدان بحروفه.

يقول جامع هذه الحروف: لا أحد يجهل في هذا الوقت موقع بلاد الباشقرد، وموقع بلاد وينغرية (ماجار)، والمسافة بينهما وسمتهما، ولا كون

الباشقرد ساكنين مقيمين في مساكنهم الحاضرة من الزمان القديم.

وقد عين هؤلاء الكبراء - أعني أبا الفداء، والقزويني، والحموي - مساكن باشقرد في ونغرية، وماجار ستان، فإن صدر هذا عن واحد منهم لقلنا إنه سبق قلم، أو وقع غلطاً من قلم الناسخ، ولا يمكننا أن نقول لعلهم كانوا تحت حكومة الماجار قبل مهاجرة الماجار من أرض باشقرد إلى مساكنهم الحاضرة، فإن كلام أبي الفداء والحموي، وأول كلام القزويني أيضاً يستأصل عرق هذا الاحتمال، فالمعرفة والدراية والتحقيق والتدقيق والمهارة في التصرف في الكلام على أصوله إنما هي في توجيه مثل هذا الكلام المتناقض المغلق، والاقتدار والمكنة إنما تظهر في مثل هذا، وذلك إنما يمكن بأن يثبت صدور هذا الكلام عن هؤلاء الأعلام ووقوعه عنهم غلطاً وسهواً، أو كونه سهواً من قلم النساخ، وإن هؤلاء القوم الذين ذكروهم بعنوان الباشقرد ليسوا بباشقرد؛؛ بل هم القوم الفلاني مستنداً إلى دليل ما ولو كان ضعيفاً، أو بأن يقال: نعم، إنهم من الباشقرد كما قال هؤلاء الفضلاء، وإن الباشقرد كانوا أولاً في مملكة وينغرية وماجار ستان، وألسنتهم كانت عين ألسنة الماجار، ولونهم كان أشقر مثل لون الماجار وجنسهم، لا فرق بينهم قط، إلا أنهم هاجروا من مساكنهم المذكورة، أعني وينغرية، بعد عصر هؤلاء الفضلاء في الزمان الفلاني، واستوطنوا في أوطانهم الحاضرة، أعني ما بين أورال وولغا، وتركوا لغة ماجار، وتعلموا لغتهم الحاضرة، وانسلبوا عن الشقرة وتلونوا بلونهم الحاضر كذلك مستنداً إلى دليل ما ولو ضعيفاً، أو بأن يقال: إنهم غير باشقرد أورال، وإنهم تحولوا بعد ذلك عن وينغرية إلى المملكة الفلانية، ثم اشتهروا هناك بالاسم الفلاني، وهم الآن القوم الفلاني، أو أنهم اضمحلوا بالكلية، ولم يبق منهم أثر مستنداً إلى قول أو دليل ما ولو ضعيفاً ومحتملاً، فاختر أي شق شئت من هذه الشقوق الثلاثة وأثبته إن قدرت.

حتى إن الفاضل المرجاني لم يتعرض لهذا قط، ولم يبد فيه شيئاً من

الاحتمالات، مع أن من عادته أن يذكر في مثل هذه المسألة احتمالات لا يسبق إليها وهمٌ واهمٍ قط، بل قال بعد أن ذكر شيئاً مما نقلناه عن ابن داسة في حق المجفرية: هذا يقتضي كون المجفريه طائفة من الباشقرد، وينبغي أن يكون إطلاق لفظ كانطون على حكام باشقرد مأخوذاً من لفظ كندة المذكور، ثم أورد بعده حكاية من الخرافات لا تعلق لها بما نحن فيه قط، وكون لفظ كانطون مأخوذاً من لفظ كندة وإن كان جائزاً إلا أن عين لفظ كانطون لما كان بمعنى الناحية في لغة فرنسا أو أسويجرة كان القول بأن إطلاق لفظ كانطون على حكام باشقرد لكونهم حكام الناحية أولى وأقرب إلى الصواب من الذهاب إلى الاحتمال الذي أبداه، كما يقال الآن لحكام الناحية بالروسية زيمسكي لكونه بمعنى حاكم الناحية.

وهذا شيء ساقنا إليه الاستطراد، ولنرجع إلى ما نحن فيه.

ثم قال نقلاً عن أبي حامد الأندلسي: إن الباشقرد في طاعة البلغار. وقال أيضاً نقلاً عن أبي إسحق الإصطخري: من باشجرد إلى بلغار خمس وعشرون مرحلة وإلى البجاناك[1] الذين هم صنف من الترك عشر مراحل. وباشجرد صنفان:

صنف في آخر غزية (قرغز) ووراء بلغار، وهم زهاء مائتي ألف نفس، ومواضعهم محكمة، وهم في طاعة البلغار.

وصنف متاخم لحدود بجاناك اهـ.

وهذا وإن خفف الإشكال المذكور من وجه، ولكنه لا يدفعه بالكلية، أما تخفيفه فإنه يؤيد أن الذي نقل عن أبي الفداء والقزويني والحموي صحيح لا سهو فيه ولا غلط ولا مخالفة؛ لكون مساكن باشقرد في أراضيهم الحاضرة من القديم، لكون الباشقرد الذين ذكروا غير الباشقرد

(١) الباجناك: هم البوشناق.

الذين في أطراف أورال؛ بل هم صنف آخر منهم كانوا في حدود الإفرنج ومملكة الماجار، ولا إشكال في ذلك بما تقدم مراراً من أن الماجار والباشقرد من جنس واحد. وأما عدم دفعه الإشكال بالكلية، فإنه لا يظهر منه أنه إلى أي شيء آل أمرهم، وأنهم أين ذهبوا. وهذا هو أصل الإشكال مع قطع النظر عن كونهم باشقرد أو غيرهم، فإن التعبير عنهم بباشقرد يمكن أن يكون سبق قلم وغلط النساخ لقرب الألفاظ، والأسامي بعضها من بعض، فكأنه لم يذهب الإشكال قط، ولا يمكن الجواب عنه أنهم تركوا الإسلام بعد القرون المذكورة ودخلوا في النصرانية، فإن ذلك مع كونه بعيداً عن العقل بمراحل لم يتعلق به النقل أيضاً قط، فإنه لو وقع مثل هذا الأمر العظيم لذكر في واحد من التواريخ خصوصاً من طرف جمعية ميسيونير نصارى الذين إذا ظفروا في مدة سنين بإدخال واحد من السكارى ومدمني الخمر، أو من سائر الفساق في دين النصارى ولو ظاهراً بصرف مبالغ جسيمة من الأموال يشيعون ويشهرون في جميع العالم أنهم أدخلوا ألوفاً في دين النصارى، وإن لم يظفروا به، يشيعون ذلك كذباً وافتراء كما لا يخفى عادتهم الشيطانية هذه على أحد، فإن وقع مثل ذلك في وقت لم لا شهروا أن ذلك العالم صاروا بأجمعهم نصارى.

ومثل ذلك في كونه مستبعداً عند العقل ومحالاً عادياً القول بفنائهم ومحوهم بالكلية، فلم يبق إذاً من الاحتمالات المذكورة إلا القول بتحولهم وهجرتهم من ديارهم إلى ديار أخرى من بلاد الإسلام، وعدم هجرتهم إلى بلاد الدولة العلية العثمانية من قبيل البديهي لعدم ذكرها في واحد من التواريخ العثمانية مع كثرتها وانتظامها، ولا نقدر أن نقول إنهم المسلمون الموجودون الآن في مملكة لهستان (بولونيا بالاك)، فإن كارامزين يصرح بكونهم من التتار الباقين من توقتامش خان كما سيأتي عند ذكر أحواله، ويكفينا دليلاً على ذلك شهرتهم بذلك، واشتهارهم عند أهل القريم والعثامنة بتتار لبقة، فأي مناسبة لهم بالقوم الذين نحن الآن بصدد بيان أحوالهم، فحينئذٍ فلا

مانع من أن نقول إنهم طائفة ميشر الكائنين في ولايات طنبو وبنزا وسراطاو ونيزني، والباعث على الذهاب إلى هذا الاحتمال ثلاثة: أحدها ظهور أن طائفة ميشر ليسوا من التتار الذين وردوا إلى تلك الديار عند خروج جنكز خان ظهوراً بيناً[1] لوجود الاختلاف بين هاتين الطائفتين من جهة العادات، واللهجة واللغوة ولإطلاق لفظ ميشر في مقابلة التتار في جميع المحاورات حتى إنه يقول الميشر للتتار في معرض السب والتنقيص يا تتار، وكذلك يقول التتار للميشر: ياميشار. وثانيها القرب بين لفظ ميشر وماجار وباشقرد خصوصاً لفظ مجر الذي هو أحد فروع لفظ ماجار ومجغر على ما تقدم من ابن داسة.

وكذلك لفظ بشجرد الذي هو أحد فروع لفظ باشقرد، فلا بعد في كون هذه الألفاظ محرفة عن أصل واحد مثل: إسكيت، وإسكوتيا، وسيتيا ... إلخ. وهنغرية وهنغارية إلخ ... نحو ما تقدم، ومثل ألفاظ بغداد، بغداذ، بغدان، بغدين، مغدان، وبرطاس وبرداس. فرداس ومردازو موردوا على ما سيجيء ذكره، وأمثال ذلك مما لا يعد ولا يحصى، ألا ترى أن الروس والإفرنج يقولون للفارس برسيه وبرسيان وبارت، وللعثماني أوتوماني ولنييون بابونيا إلى غير ذلك من التحريفات، حتى الألفاظ المتداولة فكما أنه لا يلزم كون هؤلاء مغايرين لأنفسهم لمغايرة هذه الألفاظ المحرفة، كذلك فيما نحن فيه، لم لا يجوز أن يكون ألفاظ ميشر، مجر، مجغر، بشجرد إلخ منحرفة من أصل واحد ؟ ولم لا يجوز أن يكون إطلاق لفظ باشقرد، وبشجرد على قوم ميشر وماجار من الفضلاء المذكورين لشهرة الأولى وعدم شهرة الثانية في عصرهم ؟ أو لكون الأولى أصلاً والثانية محرفة عنها !.

---

(١) وأدل دليل على ذلك هو وجود طائفة ميشجر في تلك القطعة في ابتداء ظهور الروسية على ما ذكره كارامزين نقلاً عن نيسطور الذي هو أول مؤرخي الروسية حيث قال عند تعداد الأقوام الموجودين فيها عند ظهور الروسية وتعيين مساكنهم أن قوم ميشجر وموردوا كانوا في الجنوب الشرقي من قوم ميرا. ا. هـ. انظر كيف جعل هذين القومين متجاورين في ذلك الوقت كما أنهما اليوم كذلك. منه عفي عنه.

وثالثها كون بلاد القوم المذكورين الذين نحن الآن بصدد بيانهم قريبة ومجاورة وملاصقة لتلك الولايات، حتى إنه يمكن أن نقول على ما مر بيانه من ابن داسة، وعلى قول كارامزين في بيان الماجار، إنها عينها، فيكونون وثنيين وعبدة النار في عصر ابن داسة، ثم يتشرفون بالدخول في دين الإسلام بالسبب الذي ذكره الحموي والقزويني بعد انسحابهم إلى جهة الغرب قليلاً على ما ذكره كارامزين، وبعد ورود التتار إلى تلك الديار واستيلائهم على سائر الأقطار، وتشرفهم بالدخول في دين الإسلام في عصر بركة خان عليه الرحمة والغفران، وانقلاب تلك الديار دار إسلام، جاؤوا إلى أقرب ناحية منها من مساكنهم، أعني بها ولايات طنبو، وبنزا، وسرطا، ونيزني التي يمكن أن يقال إنها مساكنهم الأصلية على ما مر من ابن داسة وكارامزين، ثم يبدل اسمهم السابق، أعني مجغر، أو مجر، أو باشقرد، أو بشجرد، على قول بعضهم إلى ميشر، كما بدل في حق هنغرية إلى ماجار، وتبدل لسانهم الأصلي إلى لسان الترك والتتار الذي هو اللسان الرسمي في تلك الديار في العصر المذكور ولسان العامة والأمة الغالبة، ولو معنى في دائم الأوقات.

ويؤيد هذا وجود كثير من ألفاظ الروس في لسانهم، فإن هذا يدل على أن لسان الترك ليس لسانهم الأصلي، ويجوز أن يكون لسانهم الأصلي تركياً، فيبقى المسلمون منهم على أصل اللسان[1] التركي، ويكون وجود كلمات الروس في لسانهم ناشئاً عن كثرة اختلاطهم بالروس، وتبدل لسان من تنصر منهم إلى لغة ماجار الآن، كما تبدلت أخلاقهم وعاداتهم الأصلية التركية إلى عادات النصارى وأخلاقهم، كالنفرة من اعتقاد المخلوق المتغير الحادث إلهاً، ولو كان أعظم المخلوقات، وغاية الاجتناب والتباعد عنه حيث تبدلت إلى قبول اعتماد كون أضعف مخلوق مغلوب من أذل خلق الله، مقهور مهان ذليل في أيديهم على اعتقادهم لا على اعتقادنا معاشر المسلمين إليها،

(١) ولكن يأبى عن هذا ما تقدم عن الحموي من كون لسانهم لسان الإفرنج. منه عفي عنه.

وهذا هو الحق، فإن لسان الماجار تركي في الأصل بلا شبهة، وقد حاول بعضهم إثبات ذلك بوجود كلمات تركية في لسان الماجار إلى الآن.

وأدل دليل عليه كون أدعيتهم في كنائسهم إلى القرن الرابع عشر الميلادي تركية على ما ذكره المير آلاي رتيخ الروسي في بعض آثاره الأتنوغرافية، وهاك نصه:

والحاصل، إذا نظرنا إلى ما ذكره غير واحد من المؤرخين والجغرافيين والأتنوغرافيين من القول باتحاد جنس ماجار والباشقرد، تأملنا في قرب ألفاظ ماجار ومجغر ومجر وبشجر وميشر بعضها من بعض، ونظرنا مع ذلك إلى كثرة وجود طائفة ميشر فيما بين باشقرد الآن في ولايات صمار، وأورنبور، وأوفا، لا يستبعد ما بيناه، بل نجد مناسبة تامة بين هذه الطوائف من القديم، ويكون ما ذكره الفاضل المرجاني أيضاً من قوله، وهذا يقتضي كون المجغرية طائفة من الباشقرد صحيحاً وواقعاً في حاق موضعه.

وأما مادة مخالفة الأشكال والسيماء والألوان التي أوردها رفاعة بك اعتراضاً كما مر، فليس الأمر كما زعم، فإننا نرى ونشاهد بعيوننا أن أربعة إخوة أشقاء مثلاً إذا ذهب كل واحد منهم إلى مملكة مختلفة السمت والجهات وتوطنوا بها، واختلطوا بأهاليها المختلفة الأشكال والألوان والألسن والأطوار والأخلاق والعادات، يأخذ أولاد كل منهم المتوالدون في تلك الممالك عادات أهالي المملكة التي ولدوا فيها وأخلاقهم وأطوارهم ولغاتهم وألوانهم وأشكالهم ولو في الجملة، ويكونون بحيث إذا اجتمعوا في محل واحد لا يصدق كون أصلهم من ولاية واحدة وأمة واحدة، فضلاً عن تصديق كونهم أولاد إخوة أشقاء، فكيف يكون حال أولاد هؤلاء الأولاد؟ وهلمّ جراً.

هذا بل انظر إلى اختلاف الموجود بين هؤلاء الإخوة المذكورة في تلك الأشياء، فإنك ترى فيها بينهم تفاوتاً عظيماً، ويظهر هذا التفاوت ظهوراً بيناً زائداً فيمن يقيم فيما بين القزاق والجهة الشمالية، على أنا نقول إن هذا القائل

لم ير من المغل والتتار إلا رعاة الإبل والغنم، فحكم بقبح الصورة في كلهم، ولم ير ما ذكره العلامة ابن عربشاه الدمشقي في وصف التتار بقوله: رجالهم بدور، ونساؤهم شموس، ولم ير ما ذكره غير واحد في بعض أفراد المغل بأنه كان حسن الصورة جداً لم ير مثله قط، كما سيجيء ذكره في ولد توقطاغو خان إيلبصار، وأوزبك خان عليه الرحمة، وما ذكره غير واحد في أهالي طراز وجكل من بلاد الترك من أنهم في غاية الحسن والجمال، وما مر ذكره عن ابن فضل الله العمري من حسن شمائل الأتراك، واعتدال قدودهم، وظرافتهم، ولم يتأمل في التفاوت الفاحش بين أهالي إستانبول، وأهالي أناطولي؛ بل بين أهل القرى وأهل البلاد في كل مملكة في الأشياء المذكورة مع اتحاد جنسهم وأصلهم.

هذا هو تحليل هذه المسألة الصعبة بالنسبة إلى كيمياء ذهن هذا العاجز، ومن رام الزيادة فمجال الكلام واسع؛ خصوصاً لمن حصل الفنون والمعارف من معدنها، من بلاد التمدن والمعارف الجديدة، ويوشك أن يدرك نوابغ في مدارس قازان، وأورنبور أيضاً يحققون أمثال هذه المسألة تحقيقاً شافياً بحيث نستفيد من ثمرات تحقيقاتهم العالية، فإني لا أدعي أن هذا هو الحق والصواب الذي لا يقبل النقض والإبطال؛ بل الغرض عرض ما أدى إليه ذهني الكليل، وخاطري الفاتر على أنظار الأذكياء أرباب المعارف، وأصحاب الفنون لينظروا فيه، ويتصرفوا بالنقض والإبرام والرد والقبول والتسديد والتعديل، حتى يظهر لبن الحق والصواب من بين فرث الغلط ودم الشطط، ويكون شراباً سائغاً للشاربين فإن تكميل الصناعة إنما يكون بتلاحق الأفكار، خصوصاً في مثل هذه المسألة المبتكرة التي لم يتكلم فيها أحد، وحقيقة العلم عند الله سبحانه وتعالى. اهـ.

انتهى كلام الشيخ الرمزي رحمه الله.

إلى بلاد الشفق والغسق:

كنا نتوجه بالطائرة من مدينة (غروزني) عاصمة جمهورية الشيشان إلى مدينة أوفا عاصمة جمهورية بشكيريا؛ حيث يقيم صديقنا ومرافقنا في الرحلة في الاتحاد السوفييتي المفتي الشيخ طلعت تاج الدين، رئيس الإدارة الدينية لمسلمي سيبيريا والقسم الأوروبي من الاتحاد السوفييتي، وكان يجلس بجانبي، فكان مما قاله بهذه المناسبة: إن بلادنا التي عاصمتها (أوفا) هي بلاد (الشفق والغسق)، يريد بذلك أن الشفق لا يغيب في جهة الغرب في الصيف قبل أن يطلع الفجر من جهة الشرق، وهي بلاد البلغار التي ذكرها الفقهاء بهذا الأمر.

وذكر أن النهار يطول عندهم جداً في الصيف، وأنهم في شهر رمضان الماضي كان يفطرون الساعة الحادية عشرة والنصف، وهو موعد مغيب الشمس وذلك في شهر يونيو، وقال إن صلاة التراويح تستمر عندنا من الثانية عشرة والنصف حتى الواحدة بعد منتصف الليل، وموعد السحور في الساعة الثانية، وتطلع الشمس في الساعة الرابعة والنصف.

ومن الغريب اللافت للنظر من الطائرة أن الظلام كان دامساً على الأرض بحيث صرنا لا نبصر مما هو تحتنا شيئاً، مع أن الشفق يبدو أبيض معترضاً في السماء في أفق الغرب واضحاً كل الوضوح.

في مطار أوفا:

قبل النزول أعلنت المضيفة باللغة الروسية التي ليس معها لغة أخرى من بين ما أعلنته أن درجة الحرارة في (أوفا) هي أربع عشرة درجة مئوية، وهذا معناه جو ربيعي، لأننا الآن بعد مغيب الشمس بفترة، وقد رأينا من الطائرة أنوار المدينة ساطعة جيدة.

وكان الوصول إلى مطار أوفا في الساعة التاسعة بوقت داغستان

والشيشان اللتين تركناهما، وهو موافق لتوقيت موسكو، ويصادف الساعة الحادية عشرة بتوقيت أوفا الذي يتقدم عن توقيت موسكو الصيفي بساعتين، وعن توقيت المملكة ساعة واحدة.

وعندما حطت الطائرة في المطار لم يتحرك أحد من ركابها، وقال الشيخ طلعت تاج الدين: إنهم لا ينزلون؛ بل لا يغادرون مقاعدهم حتى ننزل نحن، لأن هذه هي العادة مع الضيوف والزوار من خارج البلاد، ولم يقل ما إذا كانت المضيفة قد أعلنت ذلك للركاب من مكبر الطائرة.

ولم ينزل أحد قبلنا إلا بعض رجال الوفد الإعلامي المرافق، وفيهم مصورون للتلفزة المحلية والاتحادية، وذلك جرياً على عادتهم في تكريم ضيوف البلاد في مثل هذه المواطن.

ونزول مصوري الصحافة والتلفزة قبلنا هو من أجل أن يصوروا وصول الوفد إلى المطار ونزوله من الطائرة، ووجدنا عند سلم الطائرة جمعاً من الإخوة من أئمة المساجد في الجمهورية، ومن أماكن أخرى لن يمر بها وفدنا لكي يكونوا في استقبال الوفد وليجتمعوا به، ويبحثوا معه أمور دينهم.

ثم كانت جلسة في قاعة كبار الزوار في المطار قدم خلالها الشيخ المفتي (طلعت تاج الدين) هؤلاء الإخوة إلينا ومنهم:

الشيخ عبد الخبير جار الله، القاضي في الإدارة الدينية لمسلمي سيبيريا والقسم الأوروبي وإمام جامع قازان عاصمة جمهورية تتارستان.

الشيخ أحمد زكي، إمام ثان في جامع قازان عاصمة جمهورية تتارستان الذاتية الحكم التابعة لجمهورية روسيا.

الحاج الشيخ عبد الباري حبيب الله، إمام مسجد أورنبورغ.

الشيخ ذو القرنين شاكرجان، إمام وخطيب جامع أومسك في سيبيريا.

الشيخ رفقة رفيع، إمام وخطيب إيشم باي في سيبيريا.

الحاج نور محمد نعمة الله، إمام أوي بيشك.

وقالوا: إن بعضهم جاؤوا من مسافة ألفي كيلو متر ليكونوا في استقبالكم.

وسألت الأخ الشيخ ذو القرنين إمام جامع مدينة (أومسك) وقلت له: إلى كم تدنت درجة البرودة عندكم في سيبيريا هذه السنة؟

فقال: إلى ٣٧ درجة مئوية تحت الصفر، فاستعظمنا ذلك، وقلت له مع الإخوة الحاضرين: كيف تعيشون تحت هذه الدرجة من البرودة القاسية. فقال: إن هذه الدرجة جيدة، وهي أحب إلينا من درجة التجمد، أو من البرد الذي لا ينزل عن خمس درجات تحت الصفر، لأنه إذا نزلت البرودة إلى عشرين درجة فما دون ماتت جميع الجراثيم، وأمنوا من الأمراض التي تصيب الزروع والثمار، ولم نخش نحن حتى الزكام، لأن أكثر الجراثيم تموت عندما يصل البرد إلى هذه الدرجة؛ بخلاف ما إذا كان البرد في درجة الصفر أو ما تحته بقليل فإن الجراثيم لا تموت، ولابد مع ذلك من الاحتياط ضد البرد ونزلات الزكام ونحوها.

وواتت النكتة أحد الحاضرين فذكر أنهم في سيبيريا في مثل هذه الحالة التي تهبط فيها الحرارة إلى ثلاثين درجة أو دون ذلك يلجأون إلى الثلاجة يستدفئون فيها؛ لأن درجة البرودة داخلها عشرون درجة تحت الصفر على حين أنها خارجها تكون ثلاثين أو أشد برداً من درجة الثلاثين.

ولم تكن الجلسة خاصة بالكلام على الجو القارس في سيبيريا، ولكن كان هذا حديثاً من الحديث الذي اتسع له المجال بينما كان الموظفون يطلعون على الجوازات وبطاقات الإخوة من المسلمين السوفييت، وكانت الأمتعة تنقل من الطائرة.

في مدينة أوفا :

قدم رتل من السيارات للوفد ، وقدمت لي سيارة سوداء اللون معتادة ، وليست من السيارات الرسمية الطويلة التي اعتدت على ركوبها في المدن التي قبل (أوفا) ، وقال الشيخ (طلعت تاج الدين): إنها سيارتي الخاصة أردت لك أن تركبها ، ولم أوثر عليها سيارة رئيس الجمهورية كما في المدن الأخرى.

فشكرته على ذلك وقلت: إنها كافية ومريحة ، وإنني أفضل أن أركب في سيارتك معك على غيرها.

وتبلغ المسافة ما بين المطار وقلب المدينة ثمانية عشر كيلو متراً ، ولكننا لم نبصر الطريق جيداً في الليل.

ولذلك لم نر النهر عندما قالوا لنا إننا نمر الآن بالنهر الذي تقع عليه المدينة ، وهو أصل من أصول نهر الفولغا الذي كان أسلافنا العرب يسمونه نهر إيتل ، ويسميه أهل البلاد من البلغاريين والتتار نهر (إيدل) بالدال.

وأما تسميته بالفولغا فإنها روسية اشتهر بها.

ونزلنا في (فندق روسيا) ، وهو فندق للحكومة كغيره ، ولكنهم قالوا : إن الحكومة المحلية في هذه البلاد تسكن فيه ضيوفها من الزوار الرسميين.

غير أن سكنانا فيه هي على ضيافة الإدارة الدينية لمسلمي سيبيريا والقسم الأوروبي من الاتحاد السوفييتي ، وليس على ضيافة الحكومة.

وعندما وضعنا أمتعتنا في الفندق كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة والنصف ولكنهم قالوا : إلى العشاء.

لبن الفرس وعسل الشجر :

وليست غرابة مائدة العشاء هذا في طولها ، وكثرة أنواع الطعام فيها ، فذلك ما تعودنا عليه من إخواننا المسلمين في الإدارات الدينية في الاتحاد

السوفييتي التي تمول كلها من تبرعات المسلمين، وإنما أيضاً في وجود أشياء غريبة جداً، منها لبن الفرس، وقد جاؤوا به في زجاجات بيض كبيرة، وبأعداد كثيرة، وقال الشيخ طلعت تاج الدين وهو يقدمه لنا: إنه لبن الفرس، إنه مفيد للصحة، ومقو للبدن، ونحن قد اعتدنا على شربه، لذلك نشتاق إليه إذا فقدناه.



مأدبة العشاء في فندق أوفا

وتذوقت لبن الفرس، فإذا به حامض قليل الدسم، وذكروا أنه لا تكون فيه زبدة. فقلت: يكون إذاً كلبن الناقة لا يستخرج منه زبدة.

وقد استساغ بعضنا لبن الفرس هذا، وبعضنا لم يستسغه رغم غرابته وطرافة شربه لكونه شيئاً نادراً قليل الوجود في غير هذه البلاد وأمثالها.

والشيء الغريب الثاني يشبه المربى، وهو حلو غريب الطعم أيضاً، ذكروا أنه عسل الزيزفون، وأشجار الزيزفون تنمو في بلادهم بكثرة، ولهم

أوجه عديدة في الانتفاع بها، من أهمها أن النحل يتغذى على زهورها التي تنمو في شهر يونيو، فيكون من ذلك نوع من العسل الجيد ذي النكهة الخاصة اللذيذة.

وقد ذكرني هذا بما ذكره ابن فضلان في رسالته التي تضمنت مشاهداته في البلغار المجاورة لهذه؛ بل ربما كانت هذه البلاد امتداداً لبلادهم في ذلك الحين قال: ورأيت لهم شجراً لا أدري ما هو مفرط الطول، وساقه جرد من الورق يعمدون إلى موضع من ساق هذه الشجرة يعرفونه فيثقبونه ويجعلون تحته إناء يجري إليه من ذلك الثقب ماء أطيب من العسل، إنْ أكثر الإنسان منه أسكره.

أقول: هكذا ذكروا أنهم يصنعون بالشجر، ولكنهم أنكروا أن يكون يسكر بحال.

وأما باقي الأطعمة في المائدة، فإنها عديدة، منها ما هو فاخر كالكافيار المسمى بالروسي الشهير.

وقد انتهى العشاء في الساعة الواحدة والربع بعد منتصف الليل.

وأما الفندق الذي نزلنا فيه وهو فندق روسيا، فإنه من فنادق الدرجة الأولى الفاخرة، وهي ذات طراز قديم، ولكن فيه أجنحة كاملة، منها جناح أنزلوني فيه مؤلف من قاعة استقبال وغرفة طعام وغرفة للنوم فيها سرير يتسع لشخصين، وهو أول سرير من نوعه في الفنادق التي نزلنا فيها في الاتحاد السوفييتي.

ومكتب فيه معزف (بيانو) كبير، وكانت الضيافة فيه، وهي التي تضعها الفنادق الكبيرة للضيوف في الغرفة، فاكهة من التفاح والكمثرى وزجاجات من المياه الغازية وعصير الفاكهة.

ولأول مرة أجد في الحمام صابونة مغلفة؛ إذ كان الصابون في الفنادق

السابقة يكون قطعة أو بعضاً من قطعة من أي صابون كان، ولو كان من صابون غسيل الملابس.

وفي الطابق الذي فيه غرفتي، وهو الرابع، امرأتان روسيتان غليظتان تديرانه؛ إحداهما كهلة، والأخرى في منتصف العمر كما هي العادة في الفنادق الأخرى التي يقيم فيها الأجانب.

يوم الجمعة: ١٦ شعبان ١٤٠٦هـ ـ ٢٥ أبريل ١٩٨٦م.

صباح أوفا:

(أوفا) هي عاصمة جمهورية باشقردز ستان، وهي واقعة في جبال الأورال، لا يفصل بينها وبين حدود سيبيريا إلا نحو مائتي كيلومتر. وتقع على خط العرض ٥٩ شمال خط الاستواء.

وهي من المواطن القديمة للمسلمين الذين كان أسلافنا العرب يسمونهم بالبلغار، ولا يزال علماؤهم والمحافظون على التسميات والمصطلحات القديمة يحبون أن يسموا بلادهم ببلاد البلغار رغم كون شعب البلغار قد اضمحلت دولته وذاب أفراده في شعب التتار المسلم، وهو الاسم الصحيح القديم لبلادهم وقد ذكره ابن بطوطة في رحلته.

ووجه الصحة في هذه التسمية أن أولئك البلغار كانوا بالفعل قد جاؤوا في الأصل من تلك المنطقة التي جاء منها الأتراك الأوائل، وهي مجاورة لبلاد التتار الأصيلة، إلى بلادهم الحالية التي تقع على ضفاف نهر إيتل (الفولجا)، ومنها إلى بعض أنحاء شرقي أوروبا، ومجيئهم كان على مراحل.

ووجه الخطأ في التسمية أن مجيئهم إلى هذه البلاد الأوروبية الشرقية واستيطانهم فيها كان قبل جنكيزخان وحفيده وعهده بقرون.

وقد اختاروا الدين الإسلامي ديناً في أواخر القرن الرابع الهجري، وبذلك فارقتهم الهمجية، وصاروا من أكثر شعوب المسلمين تمسكاً بالإسلام، وكتب الله لهم بذلك عزاً ومجداً يمكنهم أن يفاخروا به القرون ثم اندمجوا في أبناء عمهم التتار الذين حكموا المنطقة، وهداهم الله للإسلام على يد أول ملك مسلم منهم، وهو بركة خان حفيد جنكيز خان وابن عم هولاكو الذي تغلب هو وقومه المسلمون على الشعب الروسي، حتى إن إمارة موسكو ظلت تدفع الجزية أو الإتاوة لسلاطين التتار الذين كان مقرهم مدينة (يبراي)، ثم

مدينة قازان عاصمة جمهورية (تتارستان) في الوقت الحاضر، مدة تزيد على مائتين وثمانين سنة حسبما ذكره المؤرخون.

وإن كانت جمهورية باشقردز هذه ليست وحدها بالضبط بلاد البلغار التاريخية فإنها قريبة منها، وأهلها أبناء عم للبلغار.

ولنعد إلى صباح أوفا الذي كان بعد ليل دفيء، ونوم هنيء، لم نشكُ فيه قراً ولا حراً، إذْ كانت درجة الحرارة عند وصولنا هي ١٤ درجة مئوية، وكانت الغرفة معدة من أجل أن توفر الدفء في هذه البلاد الباردة.



الأشجار الهامدة في أوفا

وعندما أزحت ستارة النافذة التي كانت جهة الشرق كان المنظر منظر

الغابات الملتفة التي لم تصحُ بعد من سباتها الشتوي الطويل، فكانت عارية الأوراق، جرد السوق والأعناق.

قد ظهرت هكذا من النافذة؛ لأن الفندق يقع في جزء حديث المعمار من مدينة (أوفا) التي كانت هي كلها منطقة غابة واحدة في الأصل واقعة على نهر (إيتل) الذي هو أصل نهر الفولغا الشهير.

ورأيت عدد السيارات من النافذة في شارع رئيسي من المدينة كثيراً بالنسبة إلى عدد السيارات التي أريد بها هنا سيارات الركوب الصغيرة.

وكل ما يراه المرء من النافذة جميل؛ سواء في الوجوه التي تمر مسرعة في هذا الصباح الباكر، أو من الأبنية التي كان أكثرها ذا طلاء بهيج.

وكان الصباح أيضاً مشرق الشمس، بهيجاً، خالياً من الغيوم من غير حر، أو شيء يستلذ معه وجود الغيم.

ومن صباح هذا اليوم طعام إفطار شهي غريب، قد كثرت فيه ألبان الخيل وأريد بها لبن الفرس كما كان العرب القدماء يقول: ألبان الإبل، ويريدون بها لبن الناقة، وليس كما يقول بعض العامة في ألبان الإبل: لبن الجمل، لأنهم يسمون البعير كله جملاً سواء أكان جملاً أم ناقة.

ومن خصائص لبن الفرس هذا كما أخبرونا إذا كان في زجاجة مسدودة ثم حركت، بمعنى خضخضت، فإن صمامته - أي السدادة - في فم الزجاجة تطير، لأنه يتولد فيه آنذاك غازات قوية تدفع بها، وقد بالغوا في نفع لبن الفرس هذا للبدن، وسمعنا من ذلك في هذا الصباح أكثر مما سمعناه البارحة.

وفي طعام الإفطار أيضاً حساء - أي شربة - جيد، وفطائر باللحم.

جولة في مدينة أوفا :

كان مدير (فندق روسيا) الذي نزلنا فيه ينتظرنا للسلام على الوفد، وتقدم باحترام وإجلال، ولا أدري أذلك بمبادرة منه أو بأمر من واضعي البرنامج، ولكن كان سلامه يدل على الإجلال والإكبار، وهو من أبناء المسلمين، واسمه إلهام بن خلف، من التتار.

ويذكر هنا أنه وإن كانت هذه البلاد هي من بلاد المسلمين الخالصة لهم في القديم، فإنه منذ أن استولى الروس عليها قبل حوالي أربعمائة سنة أخذوا في الهجرة إليها، والسكن فيها، ثم صاروا بعد الشيوعية يأتون أيضاً للعمل والسياسة، وزاحمهم أيضاً عليها الأكرانيون مع الروس حتى ألفوا نسبة كبيرة من سكان مدينة أوفا خاصة.

وقد انطلق الموكب مع شوارع في المدينة واسعة جيدة التنظيم، نظيفة المظهر، عليها الأشجار الباسقة إلا أنها كلها هامدة بعد الشتاء القارص البرد، وبعض الشوارع لكثرة الأشجار فيها تظن أنها شوارع في غابة من الغابات، وذلك أن أصل المدينة كان محاطاً بالغابات، فاستفادوا منها في تنظيم المدينة، وإبقاء الأشجار الكبيرة في أماكنها بعد التنظيم، وعلى الشوارع في المدينة نفسها الأبنية الحكومية المتعددة الطوابق ذات الشقق السكنية.

إلى أن توقفنا في ميدان جيد أقيم في عام ١٩٦٧م لأنه في ضاحية المدينة.

وقد أقيم فيه تمثال لأحد المسلمين الثائرين على القياصرة، واسمه (صلوات بولاي)، وقد ثار على القيصرة الروسية كاترين الثانية، وكتب عليه تاريخه ١٧٧٦م.

وقف الموكب عند الميدان حيث صعدنا درجاً يفضي إلى مكان متسع مفروش بالرخام المنسق، ثم صعدنا درجاً آخر أفضى إلى الميدان الرئيسي الذي

هو مفروش بالرخام، وهو أشبه ما يكون بالسطح؛ لأنه في موقع عالٍ وعلى ضفة نهر يسمونه (آق إيدل)، ومعناه: النهر الأبيض، فآق: أبيض، وهو أحد أصلي نهر الفولغا الشهير الذي يسميه أهله المسلمون في بلادهم (إيدل)، وكان أسلافنا العرب يسمونه (أيتل)، ونحن المتأخرين الذين لم نستطع حتى المحافظة على المعارف التي خلفها لنا أسلافنا العظام قد ضعينا تسميته العربية العريقة لأننا لا نعرفها، ونقلنا هذه التسمية الروسية مثل كثير من المعارف عن المسلمين في البلاد الروسية، وعن أسماء بلادهم، فسميناه (الفولغا)، وكان الأولى بنا أن نسميه بما هو معروف به في كتبنا القديمة، أو نسميه بما سماه أهله من الإخوة المسلمين.



عند التقاء نهري قره إيديل واق إيديل في أوفا

وقد رأينا في هذا المكان الذي يطل على هذا النهر الشهير من ضفة مرتفعة تحيط بالنهر غابات كثيرة لم تورق بعد.

وقد عجب أهل أوفا مما أسموه حسن حظنا في يوم شامس دفء إلى

درجة لم يكونوا يحلمون بها ، حتى إن الإذاعة ذكرت في الصباح أن درجة الحرارة الكبرى المتوقعة هذا اليوم ستصل إلى ٢٥ درجة مئوية.

وأخبرونا أن الجو قبل أسبوع كان مكفهراً ثالجاً.

ودرجة ٢٥مئوية تعني عندهم فصل الصيف لا فصل الربيع، لأنها لا تكاد تتجاوز ذلك في الصيف.

لذلك خرج الناس الذين يمكنهم الخروج إلى النزهة في هذا المكان الجميل، وفي هذا الجو الشامس اللذيذ ، ومنهم عرسان - جمع عروس - والعروس في الفصحى كلمة تصدق على الرجل والمرأة عند الزواج، مثل كلمة زوج هي في الفصحى للرجل المتزوج وللمرأة المتزوجة.



العروسان في المنتزه فوق الهضبة على ضفة نهر إيدل في أوفا

وقد رأينا عروسين اثنين، وكلاهما في لباس أبيض، فذكر الإخوة المرافقون أنهما من أبناء المسلمين، وعللوا ذلك بأن الزوجة تضع على رأسها غطاء أبيض مثل ثيابها يشبه القبعة الأنيقة.

وأشاروا إلى عروسين اثنين وقالوا: هؤلاء ليسوا من المسلمين، بدليل أن الزوجة كاشفة رأسها قد تركته بدون غطاء.

هذا وكنا وجدنا دليلة سياحية في المكان، كانت قد أخبرت قبل ذلك من قبل السلطات المختصة، وهي ذات معرفة بالأماكن الموجودة في المدينة، اسمها (شكرا فلورا بنت عثمان قربي)، وهي تترية مسلمة في حدود الأربعين من عمرها، وقد غطت رأسها بمنديل على عادة المسلمات عندما يرتدين لباسهن الوطني.

وقد استفدنا من الإخوة المرافقين، وبخاصة الشيخ (طلعت تاج الدين) من المعلومات عن هذه الأماكن مثلما استفدنا من الدليلة أو أكثر.

وكانت تتكلم الإنكليزية بغير طلاقة، فآثرنا أن يترجم لنا كلامها إلى العربية أحد الإخوة المرافقين من أهل هذه البلاد، وبخاصة إمام جامع (أوفا) الشيخ (نور محمد مغفور نعمة الله).

وسمعنا من الدليلة كلمات عربية عديدة دخلت في لغتهم التي لا يفهمها أهل أوزبكستان المرافقون الذين هم من المسلمين المسمين عندنا بالبخاريين.

ومن الكلمات العربية التي ترددت في الترجمة كلمة (لكن)، وقال أحد الإخوة الذين يعرفون العربية: إن في لغتنا كلمات عربية كثيرة تصل إلى ثلث اللغة أو قريباً من ذلك ٣٠ ٪.

وأكثرنا من التقاط الصور التذكارية من استجلاء هذه المنطقة من ضواحي مدينة (أوفا) التي ينساب فيها نهر (إيتل) المسمى بالفولغا مفعماً بالمياه، وضفافه قد فاضت إلى أطراف الغابة عليها حتى ظهرت الأشجار

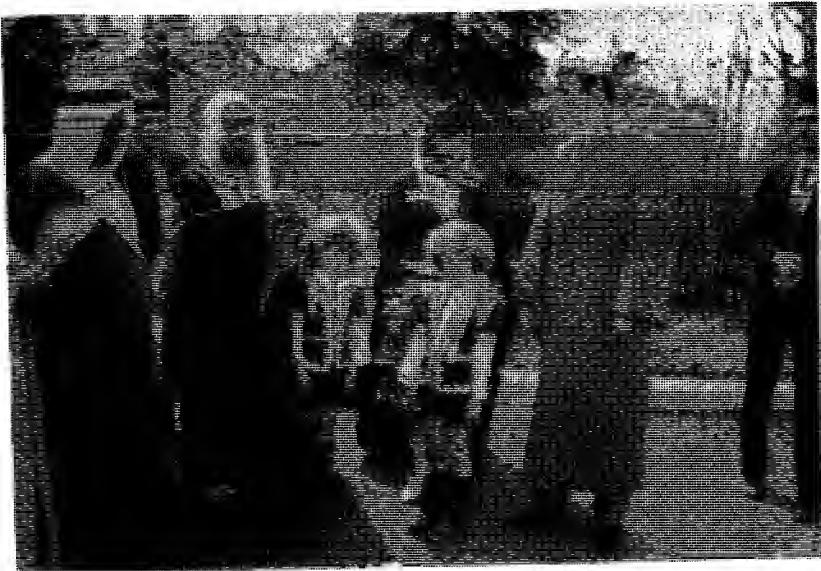
وكأنما هي نامية على النهر، وقال الإخوة المرافقون إن كثرة مياه النهر التي جعلتها طمت على الضفاف ناتجة عن موجة الدفء الحالية التي أحالت كثيراً من الثلوج إلى مياه تشبه مياه الفيضان.

روضة الأطفال:

الاتحاد السوفيتي مشهور بالعناية بالأطفال، وبخاصة أطفال المدن، وقيل في تعليل ذلك إنه لاستكشاف الذكاء (المهارات) العقلية عند الأطفال في وقت مبكر للاستفادة منهم في العقول العلمية في المستقبل.

وأياً كان الأمر، فإن زيارة روضة للأطفال في مدينة أوفا هذا اليوم جعلتنا نتأكد من عناية القوم الفائقة بالأطفال.

وزيارة روضة الأطفال هذه مما وضعوه في برنامج الزيارة من دون أن نطلع عليه، وهو أمر مفيد لنا، وإن كنا لم نأت من أجل رؤيته وأمثاله، وإنما جئنا من أجل رؤية المؤسسات الإسلامية والاتصال بالمسؤولين من إخواننا المسلمين.



أطفال في روضة الأطفال في أوفا

ذهبنا إلى روضة الأطفال ومعنا الإخوة المرافقون من أهل أوفا على رأسهم المفتي الشيخ الجليل (طلعت تاج الدين)، والشيخ (محمد نور) إمام جامع (أوفا) الذي تولى الكثير من الترجمة، ومع الإخوة المرافقين من أول الرحلة من طشقند، وهم من أهل تلك المنطقة، ولا يعرفون لغة أهل هذه البلاد التي تسمى بالبشكيرية، ولكنهم يعرفون اللغة الروسية التي يجيد التكلم بها، أو يعرف قدراً منها كل المثقفين في البلاد، لأنها لغة الثقافة في جمع أنحاء البلاد السوفيتية، وكانت إدارة روضة الأطفال على علم بزيارة وفدنا وموعدها، لذلك قابلنا الأطفال بباقات لطيفة من الزهور.

وقد ارتدى هؤلاء الأطفال لباساً قومياً تترياً تقليدياً أهم ما فيه أن يكون على الرأس غطاء من جلد الذئب يتدلى ذيله على الرقبة مثلما تتدلى عذبة العمامة أي طرفها المتدلي عند العرب.

وهذا اللباس قصد منه الظهور بهذه المناسبة، وإلا فإنه لا يلبس في المدينة في الأوقات المعتادة، وكانت مع الأطفال المستقبلين عند الباب الخارجي معلمة لهم من أهل البلاد، لطيفة الجسم، رقيقة الطبع، تشبه اللبنانيات في المظهر الخارجي على البعد إلا أنها أكثر شقرة وصفاء في اللون، ثم جاءت المديرة مديرة الروضة، وهي روسية غليظة الجسم، كثيفة القوام، في منتصف العمر.

والأطفال في الروضة مختلطون، منهم روس، ومنهم وطنيون من أبناء المسلمين، وتغلب على الجميع الشقرة في اللون.

وأما البياض فإنه لا فرق بينهم فيه.

وكلهم ذو مظهر صحي جيد، لا يشكون فيما يظهر للناظر من نقص في الغذاء، أو في الصحة؛ فضلاً عن الملابس النظيفة البراقة.

وذكروا لنا أن الروضة تتقاضى من أولياء أمور الأطفال أجراً شهرياً

يتراوح بين ٨ و ١٨ روبلاً في الشهر، وأن الطفل الذي ليس لولي أمره دخل يزيد على ستين روبلاً في الشهر لا يؤخذ منه شيء.

ومعلوم أن الروبل يساوي بالصرف الرسمي دولاراً أمريكياً ونصفاً تقريباً.

وقد سألت طفلة عمرها خمس سنوات، وظاهر من شكلها أنها من بنات المسلمين، عن اسمها بواسطة المترجم فذكر أنه (بنت ديناره).

ذكرت المديرة أن عدد الأطفال عندهم في الروضة هو (٤٥٠).

وفي قاعة من الروضة أنشدت مجموعة من هؤلاء الأطفال نشيداً بالروسية، وآخر بالتترية، ويسمونها اللغة القومية.

وكان مصورو التلفزة والصحافة المرافقون وغيرهم يصورون ذلك، ويبالغون في التصوير، حتى إنهم صوروا حديقة هذه الروضة، ولا شك في أنهم سيستغلون ذلك للدعاية في المناسبات.

وكان منظر الأطفال وقد تدلى من قبعة كل منهم ذيل ذئب وهو ممسك بيد صاحبه من الأطفال، وهم يرقصون أو يدورون في القاعة منظراً جميلاً.

وكلهم ما بين الخامسة والسادسة، أعني أعضاء الفرقة الذي يمثلون أمامنا.

وقالت طفلة في نشيد لها ترجموه لنا: إننا نحن نحتفل بقرب أول مايو عيد العمال، عيد الربيع، فإننا نحب السلام كما نحب الربيع.

ولو كان يصح إفهام هذه الطفلة وأصحابها وصويحباتها من الأطفال معنى ما يقولون حقيقة، وكذلك من أمروهم بإنشاد هذه الأنشودة لقلنا لهم: إذا كنتم تعبرون عن رأي مربيكم الذين يعبرون عن رأي حكومتهم التي يسمونها الاشتراكية الشعبية في محبة السلام لماذا تصرون على إرسال

الجيوش السوفيتية إلى أفغانستان، وترسلون معها أشد أنواع الأسلحة التي تقتل النساء والأطفال والشيوخ ؟ وحتى الرجال البالغين لماذا تقاتلونهم من أجل أن تخضعوهم بقوة السلاح لنظام شيوعي لا يريدونه ؟

ثم أدى الأطفال مشهداً تمثيلياً قصيراً على أنغام موسيقية بسيطة.

وعند الفراغ وزعوا باقات من الزهور على الحاضرين علامة على الوداع.

ومن هناك تقدمتنا المديرة الغليظة إلى أقسام الروضة، حيث زرنا مهاجع الأطفال، ووجدنا فيها طائفة من الأطفال وكأنما هم يغطون في نوم عميق، وقد ربوهم على ذلك حتى إن الواحد منهم لا يدع عينه تطرف فيكتشف من ذلك أنه غير نائم.

وغرفة الطعام - وقد أجلسوا فيها طائفة أخرى من الأطفال وكأنهم يتناولون طعامهم -، وغرفة الألعاب وفيها تماثيل ورسوم وأشكال من ذلك غريبة مما ينمي في الأطفال غريزة الاطلاع على اكتشاف المجهول، ويغذي الخيال في نفوسهم.

ثم غرفة الرياضة - وهي قاعة كبيرة - فيها أدوات لجميع أنواع الرياضة المعروفة من حمل الأثقال إلى اللعب بالكرات.

ثم في الطابق الأسفل قاعة السباحة، وفيها أطفال يسبحون وكأنما هم يفعلون ذلك بطريقة عفوية، وأنهم لم يعرفوا بقدومنا، وقد ربوهم على ذلك أيضاً من دون أن يشعر الزائر بأن الأطفال الذين كانوا معه قد سبقوه إلى مكان آخر، بل هم كانوا قد وزعوهم على هذه الأماكن في روضة الأطفال حتى يشعر الزائر بأنه يشاهد ما يشاهده حياً لا تمثيل فيه، وليس فيه من الترتيب المسبق شيء.

وأخيراً كان الاطلاع على غرفات الدراسة.

وقد خرجنا من روضة الأطفال هذه معجبين بما رأيناه من مظاهر العناية

والترتيب، متأكدين من صحة ما سمعناه من عناية القوم بأطفالهم.

وعندما ودعنا العاملات في الروضة، وكل العاملين الذين رأيناهم فيها هم من النساء. سألت بعض الإخوة المرافقين: لماذا كانت هذه الروضة للأطفال نموذجاً حقيقياً لرياض الأطفال الأخرى ؟ أهي مختارة فيها ما ليس في غيرها؟ فأجابوا: بأنها أنموذج حقيقي، وإن معظم رياض الأطفال في البلاد هي على هذا المستوى الجيد من التنظيم والترتيب والعناية الفائقة.

حديقة النصر:

ومن روضة الأطفال هذه التي هي روضة معنوية، زهورها أطفال تسعى على الأرض، كان الانتقال إلى روضة حقيقية زهورها أشجار نامية في الأرض.



بقايا ثلج الشتاء في الحديقة في أوفا

وصلنا حديقة كبيرة سموها حديقة النصر، يريدون بذلك النصر على الألمان في الحرب العالمية الثانية، وهم الذين غزوا روسيا ووصلوا ضواحي

مدينة موسكو العاصمة.

ورأينا في الحديقة ما دلنا على صحة ما ذكروه من تغير الجو فجأة، أو لنقل إنه تغير منذ عهد قريب جداً، وذلك ماثل في أكوام من ثلوج الشتاء التي لم تجهز عليها شمس الربيع بعد، أكوام ثلجية بلغ ارتفاع بعضها المتر.

وقد تسابق الإخوة إلى تصوير هذا المشهد الرائع في جو شامس ربيعي دفيء بالنسبة إلينا، وهو صيفي حار بالنسبة إليهم.

ومن الأدلة على ذلك أيضاً أن جميع أشجار الحديقة لا تزال هامدة كأنما لم تشعر بشمس الربيع التي أذابت الثلوج.

ووقفنا هذه المرة في مكان مرتفع يطل على نهر آخر من أنهار مدينة (أوفا)، وهو (قرا إيدل) أي نهر الفولغا الأسود، وهو خلاف نهر (آق إيدل) أي نهر إيدل الأبيض الذي كنا نطل عليه قبل قليل، فذلك نهر آخر.

وفي مدينة أوفا ثلاثة أنهار، هي: (آق إيدل)، و(قرا إيدل)، والثالث نهر ديم.

وجمهورية (باشقردزستان) كما يسميها الروس أو بشكيرستان كما يسميها بعض المسلمين لا تشكو من قلة في المياه، ففيها المئات من البحيرات والقنوات من الأنهار، وما هذه الأنهار الثلاثة التي تقع عليها عاصمتها (أوفا) إلا بعض الأنهار في الجمهورية.

وأوقفتنا الدليلة على نصب تذكاري أقيم حديثاً في هذه الحديقة؛ حديقة النصر لمناسبة مرور أربعين عاماً على انتهاء الحرب العالمية الثانية.

ويتضمن هذا التمثال قوائم عديدة بمن سموهم أبطال الاتحاد السوفيتي، وهم الذين أبلوا في الحرب بلاء حسنا.

وقد ظهر هذا النهر الأسود أو (الفولغا الأسود) وكأنما هو قد فاض

فيضاناً عظيماً، وهذا هو الواقع؛ لأن مياهه قد شملت الغابات الواقعة على ضفتيه، لأنه أيضاً مثل (الفولغا الأبيض) قد أمدته الثلوج الذائبة بمياه عامة كمياه الفيضان.

وزاد من منظره غرابة أن هذه الغابات الواقعة على ضفتي النهر وقد غمرت المياه سوقها - جمع ساق - هي هامدة ليس فيها إلا الأخشاب والأغصان القوية، لأن الأغصان الضعيفة بعضها يتكسر من الثلج أو من عوامل أخرى خلال الشتاء.

وهذا النهر كزميله - إن صح التعبير - تطل عليه رابية مرتفعة من الحديقة، وينخفض مجراه حتى يرى المشاهد منه منظراً جميلاً.

وقد أحسنوا صنعاً بالحديقة إذ فرشوا بالبلاط الجيد الكبير منطقة واسعة منها، كما رأيتهم يفعلون في الأماكن المهمة لديهم مثل المعارض الصناعية والزراعية التي يسمونها إنجازات الشعب.

مع رئيس الجمهورية:

ويقولون له: رئيس مجلس السوفيت الأعلى في الجمهورية، وقد وضعت مقابلته في البرنامج من دون أن نشاور في ذلك. ولكننا لم نكره المقابلة، وقد جربنا مقابلة غيره من رؤساء الجمهوريات أو نوابهم في الجمهوريات التي مررنا بها من قبل، وأولها: جمهورية أوزبكستان الشعبية؛ حيث قابلنا رئيسها في طشقند، واتسمت مقابلته مثل غيره بالمجاملة، وقد ذكرت ذلك في كتاب: "في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر"، وهو كتاب مطبوع.

وصلنا إلى مقر رئاسة مجلس السوفييت الأعلى في المدينة، فرأيناه في بناء معتاد، أي ليس فاخراً، ولا يدل مظهره على أنه يشغله أعلى سلطة فيما يسمونها بالجمهورية جمهورية باشقردز.

فاستقبلنا عند الباب الخارجي موظف مسؤول دلنا على أماكن جلوسنا

على مائدة مستطيلة جعل رأسها للمستقبل رئيس الجمهورية، وأنا الذي يليه من جهة اليمين، ثم باقي أعضاء الوفد، ومن جهة اليسار شخص من أهل البلاد، ثم الشيخ (طلعت تاج الدين)، وكان من المعتاد أن يضعوا رئيس الإدارة الدينية في الحالات المماثلة هو الذي يلي رئيس الجمهورية، أي على رأس الصف الآخر، المقابل للصف الذي فيه الضيوف.

بعد ذلك أقبل رئيس الجمهورية، واسمه طنان رنان لا يماثل هذا الاسم إلا الطبل الأجوف الذي له رنين، وليس بداخله شيء ذلك أنه (فيض الله ولي سلطانوف).

فكلمة فيض الله: عظيمة، وولي التي يراد بها في الأصل ولي الله، هي كلمة كبيرة، وسلطانوف معناه باللغة الروسية: سلطان، لأن (أوف) هي ابن أي ابن سلطان.



فيض الله رئيس مجلس السوفييت لباشقردستان مع الوفد

وهـو رجـل متوسـط القامـة، وكـذلـك متوسـط المظـهر، وإلى أن يكـون تافه الشخصية أقرب منه إلى كونه متوسط الشخصية.

سلم علينا وجلس في رأس المائدة، ثم بدأ كلاماً طويلاً يقرأه أحياناً، ويرجع إليه أحياناً أخرى من أوراق مكتوبة أمامه فوق المائدة.

وذلك بطريقة سردية إحصائية كلها تمجيد للشيوعية وما فعلته في هـذه البلاد حيث انقلبت حياة أهلها بسبب الحكم الشيوعي من شقاء وتخلف إلى تقدم وسعادة، حسبما يفهم من مجموع كلامه.

وما شبهت كلامه إلا بكلام شيوعي يخطب في حزب شيوعي.

وكان كلامه ثقيلاً جداً على النفس لما فيه من المغالطات بل الأباطيل من جهة، ولأنه عهد بالترجمة إلى الشيخ (محمد نور بن نعمة الله) إمام جامع أوفا، ومعرفته بالعربية ليست جيدة، وإن كان قضى في سوريا سنتين بعد أن كان قد تعلم مبادئ العربية في البلاد، إلا أنه كان يتعلثم ويتردد في ترجمة أقوال الرئيس، وقد عرفنا سبب تلعثمه وتردده بأنه ناشئ عن قصر في فهمه للعربية حيناً، وبخاصة أنه يترجم من اللغة التترية إلى العربية، وأحياناً أخرى من الحرج الذي يشعر به تجاه ترجمة العبارات غير المناسبة التي كان يتكلم بها الرئيس (فيض الله) كما يسمى.

لذلك كانت فترة الكلام التي امتدت مع ترجمتها ساعة كاملة ثقيلة على النفس، بل مؤلمة، وكنا نتمنى لو اختصر الكلام، أو لو أعطيت الترجمة للماهر بالعربية الشيخ طلعت تاج الدين الذي يترجم لنا في مناسبات عديدة، بل كان طول مرافقتنا في الرحلة يترجم لنا إذا احتجنا إلى ذلك.

ولكن الأوامر المسبقة المرتبة قد عينت الأخ (نور محمد)، ولا يجوز أن تغير إلا بأمر خاص لا نملكه نحن، ولا يملكه الشيخ طلعت.

هكذا فهمنا الأمر، لأنني أوعزت للشيخ طلعت بلطف أن يترجم هو،

ولكنه لم يفعل مع حرصه على الاستجابة لكل رغبات إخوانه من أعضاء الوفد، وإن كان لم يذكر لي شيئاً عن الترتيب المسبق، كما لم يذكر شيئاً عن السبب في أنه لم يطلب منه أن يكون المترجم، شأنه في هذه الأمر شأنه في أكثر الأمور التي يظهر أنه لا يوافق عليها من أمور هذه البلاد، ولكنه لا يظهر ذلك أمام الضيوف، بل حتى لا يسر إلي بذلك التزاماً منه بمبدأ الضيافة، وأنه ذكر المحاسن، والسكوت عن المساوئ، أو لأمر آخر هو أنه وأمثاله ممن كتب عليهم أن يعيشوا في هذه الدولة التي تخنق أنفاس الناس فيها، وتجعلهم يعيشون كأنما هم يعيشون داخل سجن كبير أسواره إرادة للحكومة الشيوعية، وليس معها إرادة أخرى، وعسف في الحكومة لا يراعي عاطفة ولا قانوناً.

ولنعد إلى كلام رئيس مجلس السوفييت الأعلى في الجمهورية (فيض الله ولي سلطانوف) ننقله بأكثر نصوصه كما أبلغنا به المترجم، وإن كان بعض الحاضرين الذين يفهمون اللغتين قد أخبرنا أن بعض كلامه لم يترجم، ولا أدري السبب في ذلك.

قال فيض الله الذي كان أكثر كلامه فيضاً من الشيطان، وذلك بعد أن رحب بالوفد في جمهورية بشقردزستان المتمتعة بالحكم الذاتي داخل جمهورية روسيا الاتحادية: إن بشقردستان دخلت التاريخ عندما تأسست في ٢٣ مارس ١٩١٩م جمهورية باشقردستان المتمتعة بالحكم الذاتي، وإن جمهورية باشقردستان تقع في الإقليم الأوسط بين قارتي أوروبا وآسيا، وإن جبال أورال تقسمها إلى جزأين، وتبلغ مساحتها الإجمالية ١٤٣٠٠٠كم، منها ٦٢,٠٠٠كم٢ من الغابات، وتقدر الأراضي الزراعية بحوالي ٤٩٠٠٠كم٢، ويصل عدد سكان الجمهورية حوالي أربعة ملايين نسمة، ويسكن في العاصمة أوفا ١,١٠٠,٠٠٠ نسمة، عمل الحزب الشيوعي منذ توليه السلطة على تطوير البلاد علمياً وصناعياً وحضارياً، وقبل الثورة الشيوعية لم يكن يوجد

في باشكيريا مصنع واحد، وكان عدد العمال ١٨ ألف عامل فقط، والآن يبلغ متوسط عدد عمال المصانع بحوالي ٢٠ ألف عامل، وقبل الثورة الشيوعية كان ١٣٪ من المزارعين لا يملكون أراضي زراعية، وإن ٢٢٪ منهم لم تكن لهم آلات حرث، وإن ٨٪ منهم لم تكن لهم مواشٍ، وإن عدد المتعلمين حينذاك ١٤متعلماً في كل ألف شخص، وإن الفقر والأمراض والجهل كانت متفشية بين الناس.

ويقول الرئيس إنه بفضل الثورة الشيوعية ومبادئ الحزب الشيوعي أصبحت باشقردستان جمهورية متطورة صناعياً وزراعياً وعلمياً، وارتفع إنتاج البلاد إلى أكثر من ألف ضعف، ويستخرج النفط، وتقوم عليه صناعات بتروكيميائية، كما توجد بها صناعات متطورة متنوعة مثل صناعة السيارات والمحركات، ويصدر الإنتاج إلى ٩٠ دولة في العالم.

وقال رئيس الجمهورية: إن مستوى التعليم والثقافة والفن قد تطور في البلاد، إذ توجد جامعة وأكاديمية العلوم الباشقردية، وعشرات من معاهد البحوث العلمية العليا، بينما لم يكن في العهد القيصري مسرح في البلاد أصبح الآن بها سبعة مسارح، وخرج الفنانون الباشقرديون بفنهم وغنائهم إلى خارج الاتحاد السوفيتي مثل إسبانيا، ونال تقديراً عالمياً بعد أن تخلص المواطنون الذين قد كان الدين الإسلامي يمنع الغناء والرسم والرقص، ويفرض على المرأة الحجاب، وأنه الآن بالمبادئ الشيوعية تحررت المرأة، وأصبحت حرة تعمل ما تشاء، وازدهر الأدب حالياً، فالكتب الشعبية تطبع وتباع بالملايين.

واستمر رئيس الجمهورية في حديثه يقول بأن لجمهورية روسيا السوفياتية الفيدرالية خدمات وإنجازات للشعب الباشكيري، ومنحت جمهورية باشقردستان أربع أو سمة، ومنها جائزة العلم الفخري لالتزام باشقردستان بمبادئ الحزب الشيوعي، وإن الشعب الباشقردي يعمل بإخلاص

في إنجاز مقررات وتوصيات مؤتمر الحزب الشيوعي ٢٧ الذي عقد مؤخراً في موسكو. ونظراً لاجتهاد الشعب الباشقردي، وتمسكه بالمبادئ الشيوعية، فقد أنجز المشاريع والخطط المرسومة قبل أوانها بربيع عام، ومن المتوقع أن يبلغ الدخل السنوي هذا العام ١٣٠ مليون روبل.

ثم تكلم رئيس الجمهورية عن مجلس الشعب الباشقردي فقال بأن المجلس يضم ٢٨٠ مندوباً من مختلف فئات الشعب، يتم انتخابهم كل خمس سنوات، وإن المجلس الحالي قد جرى انتخابه في ٢٤ فبراير ١٩٨٥، ويمثل العمال والفلاحون ٥٠٪ من أعضاء المجلس، والباقي هم رؤساء المجالس المحلية، ويمثل النساء ١٠٨ مقعداً، والشيوعيون ١٧٦ مقعداً، وإن ٥٪ من أعضاء المجلس تقل أعمارهم عن ثلاثين عاماً، ويأتي أكثرية الأعضاء من الباشقرديين، ثم الروس، ثم التتار حسب عدد كل قومية من المنطقة، واللغة الرسمية هي الروسية، ولكن جميع المقررات تترجم إلى لغة الباشقرد وغيرها من اللغات القومية.

يشكل المجلس لجاناً متخصصة للمراقبة وإنجاز العمل والمتابعة، وهناك ١٥ لجنة دائمة في الوقت الحاضر.

وإن مجلس الشعب يتولى وضع الأسس والخطط العملية في مجالات العمل والصناعة والزراعة وغيرها بدراسة ميزانية البلاد والتصديق عليها، والمجلس بصفة عامة هو أعلى سلطة في البلاد، تعقد جلساته مرتين في العام، وقد تلقى المجلس ٢٣ ألف اقتراح وتوصية من مندوبي الشعب، ونفذ حتى الآن ٤٠٪ ، والباقي تحت الدراسة، والعمال وجميع أفراد الشعب في الاتحاد السوفيتي يكرسون جهودهم لإنفاذ مخططات ومشاريع الدولة، ومقررات المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي العام الذي عقد مؤخراً.

ونظراً لحديثه الصارم، وتفاخره بمبادئ الحزب الشيوعي وأفكار الإلحاد، وكأنه يتكلم في مؤتمر خاص للحزب الشيوعي، فقد لقي المترجم

وهو الحاج نور محمد إمام مسجد أوفا صعوبة في ترجمته من اللغة الروسية إلى اللغة العربية، حتى إن أكثر ما قاله الرئيس لم يترجم ... أو لم يتمكن من ترجمته.

وقد أجبت رئيس الجمهورية هذا بشكره على الترحيب بالوفد، وعلى المعلومات التي قدمها عن جمهورية باشقردستان وقلت: إن كان الشعب السوفيتي شعباً صديقاً لنا، فشعب هذه الجمهورية صديق وشقيق لأن طائفة كبيرة من الشعب هم من المسلمين، وقد دخل الإسلام إلى بلادكم منذ أكثر من ألف عام بدون إكراه؛ بل طواعية ورغبة في دين الحق.

ونحن وفد من رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، وهي هيئة شعبية عالمية، وليست حكومية، وإن كانت حكومة المملكة العربية السعودية وعلى رأسها جلالة الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود، تقدم الدعم المالي لإنفاذ مشاريعها وأعمالها الإسلامية، وميدان عمل الرابطة هو الثقافة الإسلامية، ولا تتدخل في سياسات الدول أو نظمها الداخلية.

والرابطة التي تمثل المسلمين في العالم من خلال مجالسها التي تضم ممثلين من مختلف الشعوب والجماعات الإسلامية في العالم تعمل مع الجميع في توثيق الصلات الثقافية الإسلامية، لذلك كان سرور الرابطة كبيراً عندما تلقت دعوة من الإدارات الدينية في الاتحاد السوفيتي لزيارة المسلمين، والاطلاع على أحوالهم، والتشاور معهم فيما يخدم الإسلام والمسلمين، وهي ترجو أن تكون علاقتها لصالح المسلمين. ومع أن رابطة العالم الإسلامي تقدم مساعدات إلى الجمعيات الإسلامية في العالم، فالإدارات الدينية في الاتحاد السوفيتي قالت لا نريد منكم دعماً مالياً، ولكن نريد التعاون معكم في ميدان الثقافة الإسلامية والصداقة والإخاء، ونحن نعتقد أن الثقافة الإسلامية تجمع بين الشعوب الإسلامية، وشعب هذه البلاد هي جسر الصداقة والود، ومن مسؤولية الرابطة ومسؤوليات الإدارات الدينية المحافظة عليها والعمل على

ازدهارها.

والجمعيات الإسلامية في مختلف أنحاء العالم تتعاون مع الرابطة، ونعتقد أن التعاون مع الجمعيات والإدارات الإسلامية هي علاقة صداقة وتعاون ثقافي. وأن تقوية العلاقة الثقافية بين الإدارات الدينية والرابطة هي تقوية العلاقات بين الشعب المسلم والشعوب غير المسلمة، فالإسلام دين المحبة والسلام، وهو يحث على التعاون بين المسلم وغير المسلم لما فيه صالح الوطن والإنسان.

والمسلمون في الخارج يتابعون أخبار إخوانهم المسلمين في الاتحاد السوفييتي، ويعتبرون أن المعاملة الكريمة للمسلمين هي معاملة طيبة لهم، وأما إذا كان العكس فإن ذلك يؤثر على المسلمين في أنحاء العالم.

وبينت له أن الإسلام لا ينافي التقدم في الحياة، أو يمنع من تعلم العلوم؛ بل هو سبب من أسبابه، فالعرب عندما أخذوا بالدين نجحوا وأسهموا في الحضارة الإنسانية بما لا ينكره منكر، وضربت له مثلاً حاضراً بالمملكة العربية السعودية التي تأخذ بالإسلام، وقد قطعت أشواطاً حثيثة في الرقي والحضارة اعترف بها الجميع.

ولم أذكر له ما أشار إليه من أن الدين - ويريد بذلك الإسلام - يمنع الموسيقى، ويلزم المرأة بأن تغطي وجهها، فإن عقله الشيوعي لا يتحمل ذلك، وإلا لقلت له: إن الدين الإسلامي ليس كذلك، فهناك قول قوي في الإسلام في أن وجه المرأة وكفيها هما من الزينة الظاهرة التي لا بأس عليها في إبرازها.

وإذا كان لا يؤمن بهذه الأشياء ذكرت له أمماً كثيرة، ومنها أمم إسلامية لا تحرم الموسيقى، ولا تلزم المرأة بأن تخفي وجهها، ومع ذلك لم يكفل لها ذلك الرقي ولا التقدم، فلم تكن تغطية الوجه ولا عدم الاستماع للموسيقى هي التي ترقي الأمم أو تؤخرها.

وقد تبين أنه يهرف بما لا يعرف حينما ذكر أن هذه البلاد التي شعبها جزء من التتار كما يسمون الآن، وإن كان بعضهم يسميهم الباشقردز، ولهم علاقة بهم، والتتار في هذه البلاد رفعهم الله بالإسلام حتى إنهم استولوا على معظم بلاد الروس، وكانت الغلبة لهم على مدى قرون، وقد نسي ذلك أو تناساه حين نسب كل شيء يمت إلى التعلم والتمدن والتقدم بصلة إلى الحكم الشيوعي في هذه البلاد.

وإذا كان في بعض ما ذكره وجاهة من الناحية المدنية في الأزمنة المتأخرة، فإن هذا ليس راجعاً إلى الدين الإسلامي، وإنما هو راجع إلى الأخذ بالأسباب أو عدم الأخذ بها.

ولكن هذا وأمثاله وهو يتحدث إلى ضيوف ظنهم لا يعرفون تاريخ هذه البلاد، ولا يدركون أسباب التقدم والتأخر إنما هو على ما قال القائل:

ويوهـــمنا أنـــه شاعر   كأنما قدمنا من البادية

ربما اعتقد حقاً أننا قدمنا من البادية، ولم يدر أن بلادنا أكثر تقدماً من بلاده في الأمور المادية التي تمس حياة أفراد الشعب وما يتمتع به من خدمات.

ولم نصادف شيوعياً سواء أكان روسياً أم كان من أبناء المسلمين من هو أشد تحمساً لإظهار ما زعم من محاسن الشيوعية مثل هذا الرجل، وقد فاق بذلك أهل الشيوعية الأصلاء في مدحها وهم الروس، فكان يصدق عليه قول الشاعر.

وكنت أمرءاً من جند إبليس فارتقى   بي الحال حتى كان إبليس من جندي

أما الصناعات الموجودة في البلاد والعلوم التجريبية التي في مدارسها وجامعاتها كما ذكر، وكذلك المسارح فيها، فإنها موجودة بل موجود أكثر منها أضعافاً مضاعفة في بلاد كثيرة حرة في اقتصادها هي أقل إمكانات من

هذه البلاد، وأضعف في المواد اللازمة للتقدم الصناعي.

أخسر صفقة:

ربما لم تمر بي في حياتي كلها صفقة هي أخسر لي من صفقة هذا اليوم، ولا يهون من وقع هذه الخسارة في نفسي إلا كوني لم أرض بهذه الصفقة، بل لم أؤامر فيها.

ذلك بأنني وقد انتهينا من الزيارة وأردنا الانصراف قدمت له هدية كنا أحضرناها معنا على عادة وفدنا في تقديم الهدايا والمجاملات لرجال الإدارة في هذه البلاد، على أمل أن يكون في هذا ما يجعلهم يجاملون المسلمين، ويعاملونهم معاملة أفضل، وربما يمحو من نفوسهم بعض الدعايات الشيوعية الملحدة المغرضة عن الإسلام وأهله.

فكان منها مصحف كريم من طباعة مجمع الملك فهد لطباعة القرآن الكريم في المدينة المنورة، ونحن اعتدنا على أن نهديه لأبناء المسلمين من كبار الموظفين الذين توضع زيارتهم في برنامجنا على اعتبار أن ذلك قد يحرك في نفوسهم الحنين إلى أصلهم الإسلامي الحنيف.

فقدمت المصحف الكريم إليه وقلت له: هذا هو المصحف الكريم المطبوع في المدينة المنورة، وهو بطباعة فاخرة، فنظر إليه وقال: كتاب؟ إنني سوف أهدي إليك كتاباً أيضاً، والتقط من المكتب كتيباً صغيراً في حجم مفكرة الجيب، وقال: هذا هو دستور جمهوريتنا !.

وصعقت قائلاً في نفسي: أيعادل هذا الشخص التافه بين كتاب الله تعالى وبين دستور ولاية شيوعية مبني على الإلحاد وإنكار وجود الخالق ؟

ثم قلت في نفسي: كل ينفق مما عنده.

وهون الأمر عليَّ أنني لم أرض بهذه الصفقة ولم أعقد بها عقداً.

ثم عدنا إلى الفندق مع شارع أكتوبر الواسع المستقيم، وبينما كنا في الشمس عند باب الفندق شعرنا بحرارة الشمس، فانتقلنا نبتغي الظل، وقال أحد الإخوة من أهل البلاد: أليس من العجيب أن يهرب الناس من الشمس وهم في شهر أبريل وبجوار سيبيريا؟

ثم قال: هذا خلاف المعتاد.

وفي هذه الجولة وبعدها أبصرنا طوائف من السكان، فكان الانطباع العام عنهم أنهم ذوو أجسام متناسبة، لا يغلب عليها الغلظ كالروس، ولا السمن كبعض الأوروبيين، كما أن ألوانهم صافية، وتقاسيم وجوههم مستقيمة وفق مقاييس الجمال المعهودة، وتكثر الشقرة فيهم.

أما لباسهم فإنه يكاد يكون الأوروبي المحتشم على النساء، وهذا الكلام على سكان المدينة، والنساء لا يتبرجن شأنهن في ذلك شأن النساء في سائر أنحاء الاتحاد السوفيتي التي رأيناها.

مع العلم بأن سكان مدينة أوفا ليسوا كلهم من المسلمين البشقردز الأصلاء، بل غزتهم طوائف من الروس أو الأوكرانيين، فساكنوهم وكادوا يكاثرونهم على بلادهم، وتقدر نسبة المسلمين في المدينة بـ ٥٥٪، ونسبة الروس والأوكرانيين أهل أوكرانيا بـ ٤٥ ٪.

وأما الأرياف والقرى في هذه البلاد، فإن أغلبها لا يزال خالصاً للمسلمين.

ويذكر هنا أن المدينة البلغارية التي دخلها ابن بطوطة، وذكر أن مضيفه فيها قال له: عجل بأكل العشاء حتى نصلي صلاة العشاء قبل أن يطلع الفجر تبعد عن مدينة (أوفا) هذه أربعمائة وسبعين كيلومتراً جهة الغرب حسبما قال لنا أهل البلاد، وهي التي قال بعضهم: إنها هي التي زارها ابن فضلان قبل زيارة ابن بطوطة لها بأكثر من ثلاثة قرون، ولا أدري صحة ذلك.

في مقر الإدارة الدينية :

كان موعد زيارة الإدارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي وسيبيريا هو الساعة الثانية ظهراً.

ووجدنا في استقبال الوفد الأخ الكريم طلعت تاج الدين، ومعه عدد من الإخوة الكرام أئمة المساجد التي تتبع إدارته الدينية هذه.



الاستقبال في مقر الإدارة الدينية في أوفا

تقع الإدارة في مكان واسع يتضمن عدة غرفات وقاعات، أهمها التي فيها مكتب الشيخ طلعت حيث أجلسنا على مائدة خصصت للاجتماع.

ثم ارتجل الشيخ كلمة كان يرجع في بعضها إلى إحصاءات مكتوبة، وهي كلمة مفيدة ألقاها أمام جميع المرافقين، وفيهم المرافقون من رجال الإعلام الذين عددهم خمسة، وقد سجلوا ذلك بالتصوير المتلفز والتصوير الصحفي، وبتسجيل الكلام كما هي عادتهم في مثل هذه الاجتماعات التي

يعقدها الوفد مع ذوي المقامات أو المناصب في هذه البلاد.

استهل الشيخ طلعت تاج الدين كلمته بسروره وسرور المسلمين في هذه البلاد لزيارة وفد من الإخوة أهل الحرمين الشريفين، وهي زيارة كانوا يتمنونها منذ القديم. وقال إن المسلمين يتحدثون في كل المساجد عن قدوم وفد الحرمين الشريفين إلى بلادنا، وكلهم يتمنى أن يروكم، وأن تحلوا ضيوفاً عليهم.

ثم تحدث عن دخول الإسلام إلى المنطقة، فقال: إن الإسلام دخل بلادنا منذ أكثر من ألف عام بقدوم التتار المسلمين إلى منطقة أيديل أورال التي عرفت في التاريخ الإسلامي بمملكة البلغار، وبعد أن استتب الإسلام في البلاد طلب ملك البلغار من الخليفة العباسي المقتدر بالله إرسال بعثة إسلامية إلى بلاده تقوم على الإرشاد والتوعية، فجاء إليهم الوفد في ١٦ محرم ٣١٠ هـ ٩٢٢م الذي كان يضم المؤرخ المشهور أحمد بن فضلان، ومنذ ذلك التاريخ وأهالي بلاد البلغار هم مسلمون.

وقال: إننا بمسجد موسكو وسائر الشؤون الإسلامية نرجع إلى إدارتنا، وكانت إدارتنا هي الإدارة المركزية لمسلمي روسيا في القديم.

وقال: لسنا تتاراً، وإنما التتار اختلطوا بنا وأسلموا، وقال: إن موسكو تعتبر من الناحية الإدارية في إدارتنا تابعة لأوفا .

قبل ثورة أكتوبر ١٩١٧ لم يكن للمسلمين نشاط ملموس، فالشرطة كانت تعين الإمام، ويأتي تعيين المفتي من الإمبراطور القيصري نفسه، وهذه الإدارة الدينية أول إدارة دينية إسلامية تأسست في روسيا قبل مائتي عام عندما فكر القيصر الروسي في تنظيم شؤون المسلمين، وكان القيصر نفسه يعين المفتي وستة نواب له.

وبعد ثورة أكتوبر ١٩١٧ كان عالم جان بارووي أول مفتي للإدارة

الدينية في الاتحاد السوفيتي، ثم خلفه الشيخ ضياء الدين فخر الدين عام ١٩٢٦، وتشرف هذه الإدارة على جميع شؤون المسلمين في سيبيريا والقسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي، ويبلغ مساحة نشاطها من الشرق إلى الغرب ٦٠٠٠ كيلومتر طولاً، ومن الشمال إلى الجنوب ٤٠٠٠ كيلومتر عرضاً، وتتصل بها ١٢٢ جمعية إسلامية منتشرة في المدن والقرى، منها على سبيل المثال:

١٤ جمعية إسلامية في باشكيريا (باشقردستان).

١٨ جمعية إسلامية في تتارستان.

١٥ جمعية إسلامية على نهر الفولغا.

١٠ جمعية فيما وراء نهر الفولغا.

٤ جمعيات إسلامية في غروكي قرب موسكو.

١٢ جمعية إسلامية في سيبيريا.

كما أن هناك جمعيات إسلامية في لينينغراد شمالاً، وفي استراخان جنوباً، وفي (أركوتسك) في أقصى الشرق من سيبيريا، وفي أومسك في أقصى الغرب من سيبيريا، وفي السنوات الأخيرة تم فتح ٢٦ جمعية إسلامية، ومنذ ثلاث سنوات تأسست جمعية إسلامية في فولغا غراد (Volgograd ستالينغراد) سابقاً.

ومعنى الجمعية الإسلامية القيام على شؤون مسجد موجود، أو القيام على إنشاء مسجد جديد، وأغلبها لاستعادة مساجد قديمة.

وقال بأن الحكومة في بعض المدن والقرى تعيد المساجد للمسلمين الذين يقومون بترميمها وإصلاحها، وبعضهم يعمل بيده إذا كان لا يستطيع الإسهام بدفع النقود، وتسابق الرجال والنساء إلى ذلك.

كما يقوم المسلمون بتحمل نفقات دراسات الطلاب المسلمين في معهد الإمام البخاري، وتتكلف دراسة الطالب من ٧٥٠٠٠ إلى ١١٠٠٠٠ روبل، وتشمل تذاكر السفر والإقامة والطعام والشراب ونفقات الدراسة، والمسلمون يتبرعون بسخاء للجمعيات الإسلامية، وهذه الجمعيات تمول الإدارة الدينية حسب إمكاناتها، وقد تبرعت الإدارة الدينية بمبلغ ٣٠ ألف روبل إلى صندوق السلام السوفييتي من فائض ميزانيتها في العام الماضي، كما تقوم الإدارة اعتماداً على تبرعات المسلمين ببعض النشاطات الإسلامية في إيفاد بعثات الحج والوفود إلى الخارج، وطبع الكتب والمصاحف، فقد طبعت الإدارة المصحف الشريف في قازان عام ١٩٨٤.



مكتب الشيخ طلعت تاج الدين في مقر الإدارة الدينية في أوفا

وعندما فرغ الشيخ طلعت تاج الدين من حديثه تكلمت شاكراً على الحفاوة وحسن الاستقبال، وعلى صحبة الشيخ طلعت تاج الدين لوفد الرابطة منذ وصوله إلى موسكو، كما شكرته على المعلومات الوافية التي قدمها

عن أعمال الإدارة الدينية لمسلمي سيبيريا والقسم الأوروبي للاتحاد السوفييتي، وأثنيت على غيرة المسلمين في التبرع للأعمال الإسلامية، وتمسكهم بالإسلام، وأبديت لهم استعداد الرابطة للإسهام في مشروعاتهم الإسلامية إذا تقدمت الإدارة الدينية إليها بذلك، أو عرضت عليها بعض المشروعات التي يمكن أن تتعاون معها الرابطة على تنفيذها في الوقت الحاضر.

وختمت حديثي برجاء هو في الحقيقة كلام موجه إلى المسؤولين السياسيين في الاتحاد السوفييتي، وهو أن تعاد المساجد كلها للمسلمين حتى لا تكون هناك حاجة لأن نسأل عن مسجد يفتتح أهو مسجد جديد أم مسجد من مساجد المسلمين القديمة أعيد لهم بعد أن كان محتجزاً ؟ وكانوا ممنوعين منه.

أول تسجيل للقرآن في سيبيريا :

بعد تبادل الكلمات والحفل الخطابي الذي حضره عدد من أئمة المساجد والمشتغلين بالشؤون الإسلامية الذين منهم رؤساء جمعيات المساجد في البلدان القريبة والبعيدة التي تتبع هذه الإدارة الدينية، ومعنى رئيس الجمعية الإسلامية رئيس جمعية المسجد؛ لأنه ليس من المسموح به القيام بأي نشاط إسلامي غير ما يتعلق بالقيام على أمر المسجد من جمع التبرعات لتعميره، أو من أجل إرسال التبرعات من المسلمين إلى الإدارات الدينية لكي تصرفها في المصارف المتعلقة بأمور الدين.

قدم الشيخ طلعت تاج الدين هدايا للوفد، منها (هاتف) فاخر أصفر اللون من الهواتف القديمة، قال إنه مصنوع في مدينة (قازان) عاصمة جمهورية (تتارستان)، وهي العاصمة الإسلامية المشهورة في تاريخ المسلمين في هذه المنطقة.

كما قدم لي أيضاً ولبقية الإخوة أعضاء الوفد هدايا أخرى، ومنها

أوعية معدنية فيها عسل من المنتج في البلاد ، وهو الذي تغذي نحله على أزهار الزيزفون، فصار له طعم ونكهة متميزة وشكرته على ذلك، وقدمت له الهدايا لشخصه، وهي عباءة عربية مقصبة، وقد فرح بها كثيراً لأنها تلبس في المناسبات الإسلامية، وساعة يدوية، وتمر من تمر المدينة المنورة، وسجادة صلاة، ومصحف كريم فاخر الطباعة مما طبع في المدينة المنورة، كما أهدينا للإدارة الدينية مصحفين كريمين.

إن هدية المصحف في الاتحاد السوفيتي من أغلى الهدايا حتى ولو كانت طباعته معتادة؛ لأنه لا يوجد للبيع، وحتى المصحف المطبوع في مدينة (قازان) في الاتحاد السوفيتي لا يستطيع كل شخص من الداخل أن يحصل عليه، ولو بثمن مرتفع، لأن النسخ التي طبعت منه كانت محدودة بأمر من الحكومة، ويمنع بيعها بيعاً عاماً على الناس، وإنما تقدم هدايا للضيوف الأجانب وللإدارات الدينية.

وقد حددت الحكومة عدد النسخ المخصصة من العدد المحدود المطبوع منه لتوزيعها في الخارج، والعدد المخصص للداخل.

ولا يمكن إرسال المصاحف إلى المسلمين بالبريد، أو عن طريق الشحن؛ لأنها مثل سائر الكتب تصادرها الحكومة، ولا يصل منها إلى أصحابها شيء.

ولذلك كانت الطريقة الوحيدة لإيصال المصاحف والكتب هي حملها مع الضيوف والزوار الذين يستضيفهم الاتحاد السوفيتي كما فعلنا نحن.

فإذا كان المصحف المهدى فاخر الطباعة مما لا يوجد له مثيل في الاتحاد السوفيتي، وأضيف إلى ذلك كونه مطبوعاً في المدينة المنورة، كان ثميناً لا يقدر عندهم بثمن لنفاسته وقيمته المعنوية عند المهدى إليه.

كما أهدينا للإدارة الدينية تسجيلاً للقرآن الكريم على أشرطة مع

جهاز التسجيل وأشياء أخرى.

وكان من الحاضرين الشيخ ذو القرنين إمام جامع أومسك في سيبيريا عندما أعطيته تسجيل القرآن الكريم مع جهاز التسجيل ومصحف كريم قال: إن هذه الأشرطة التي قد سجلتم عليها القرآن الكريم هي أول أشرطة من هذا النوع؛ بل هي أول تسجيل للقرآن الكريم يدخل إلى سيبيريا حسبما يعرفه.

وقال: إنه سيتنفع من ذلك في المسجد هناك.

ثم أطلع الشيخ طلعت أعضاء الوفد على مصحف كريم مخطوط مذهب مكتوب في عام ٤٥٠، وقال: إنه هدية ثمينة مجانية قدمها صاحبها للإدارة الدينية، وكان يحتفظ بها، وهو من سكان سيبيريا، أي من سكان المملكة الإسلامية التي كانت موجودة في سيبيريا قبل استيلاء الروس على تلك المنطقة.

فوجدت أوراقه وكتابته تدل على ذلك، وهو مُذَهَّب وكبير الحجم.

ثم أرانا صفحة مكبرة مصورة من مصحف قال إنه مصحف عثمان ﷺ، وليس لديهم منه إلا هذه الصفحة.

والله أعلم بذلك.

وفي نهاية اللقاء تجولنا معه على أقسام الإدارة الدينية، وفيها غرفتان فيهما سرر للضيوف والزوار الذين يزورون الإدارة، ولهم حق الضيافة الذي هو أدنى من إسكانهم في الفنادق، فيستضيفونهم فيها.

إلى جامع أوفا:

انتقل الموكب المؤلف من عدة سيارات كالعادة إلى جامع (أوفا)، فرأيناه تطل منارته شامخة مع قبة رزينة بجانبها على مساحات شاسعة من

ضفاف نهر إيدل أي (الفولغا) وهو (إيتل) بلغتنا العربية الأصيلة التي ضمت هذه التسمية من معارف أسلافنا العرب المسلمين. فهو يقع فوق رابية عالية في منظر مهيب، وتكاد الأشجار الباسقة تعانق المنارة السامقة، وقد تحاتت عنها أوراقها كما تحات الذنوب عن المصلين المخلصين.

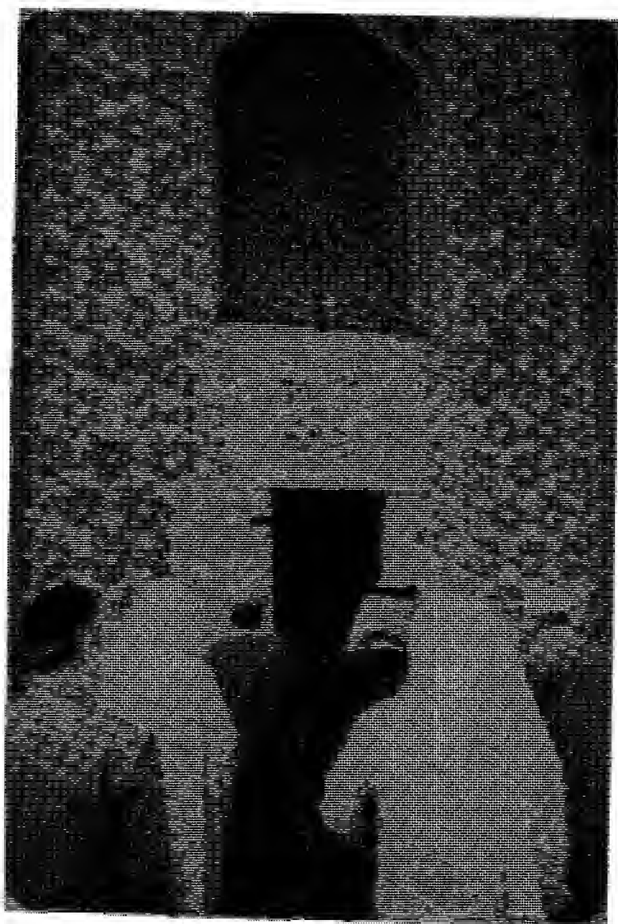


منظر خارجي لجامع أوفا

عندما ترجلنا من السيارات داخل الفناء المكشوف للمسجد الذي تقع الحديقة في أطرافه وحول مبنى المسجد نفسه، كان ترجلنا وسط حشد من الإخوة والأخوات المسلمات اللاتي كن أكثر شوقاً إلى رؤية إخوتهن في الإسلام من أشقائهن الرجال، وكلهن مسنات، وقلّ أن ترى فيهن النَّصَف، كما أن الرجال أكثرهم من الكهول، وإن كان فيهم بعض الشبان ولكنهم قليل.

وخبرونا أن بعض هؤلاء الإخوة رغم كونهم من عامة المسلمين، وليسوا من الموظفين العاملين في إمامة المسجد أو نحوها، فإنهم قد جاؤوا إلى أوفا من

مسافات بعيدة، وجاؤوا إلى هذا المسجد من أجل السلام على الوفد ومصافحته حتى يفوزوا بذلك، وأخبرونا أن البلاد التي مررنا بها من قبل إذا حضر أحد من الإخوة المسلمين الذين تمكنوا من مصافحة الوفد، فإن إخوانهم المسلمين يقبلونهم ويصافحونهم لكونهم صافحوا جيرة رسول الله ﷺ وسكنة بيته الحرام.



مدخل جامع أوفا

وكان وقت صلاة الظهر قد أدركنا، فدخلنا إلى المسجد حيث أدينا صلاة الظهر مع هؤلاء الإخوة جماعة في جو كله خشوع وهيبة.

وقد عجبت من هذه المشاعر الغريبة التي تنتابني عندما أرى مثل هؤلاء الإخوة الذين ينظرون إلينا، ويتمتعون برؤيتنا أكثر مما ينظرون إلى رؤية أهليهم أو أقاربهم حتى من يقدم منهم من غيبة طويلة.

وكل ذلك محبة في الدين الإسلامي، وفي أحفاد حملته إلى العالم الذين عدّونا منهم، نسأل الله تعالى أن لا يخيب ظنهم فينا.

هذا مع أن الصلة ما بينهم وبين البلدان الإسلامية منقطعة بل منعدمة منذ سنين طويلة ربما وصلت إلى القرون.

حتى العهد الحاضر عهد الطائرات النفاثة واختصار المسافات لا يستطيع أحد منهم، ولو كان يملك المال والوقت أن يحج بيت الله الحرام، لأن أنظمة الحكومة الشيوعية الملحدة التي تملك مقادير بلادهم، وتتسلط على أمورها لا تسمح لهم بالحج، وإنما يؤدى الحج كل عام نفر من الاتحاد السوفيتي لا يتجاوز عددهم بحال بضعة عشر رجلاً، وكان عددهم في العام الماضي اثني عشر رجلاً كلهم من العاملين في الإدارات الدينية، أو من أئمة المساجد، أي أنهم من الموظفين المضمونين عن قول ما يشين في حق سياسة الكرملين، وأما أفراد الشعب، فإنه لا حج لهم ولا عمرة، حتى ولا يسمح لهم بالسفر خارج البلاد سفر راحة أو سياحة، وإنما يقصرون السياحة وطلب الراحة في داخل حدود بلادهم، وهي بلاد واسعة شاسعة، ولكن ليس فيها ما يطلبه السائح من حرية في القول، أو حرية في التجول، أو حتى حرية في الاعتقاد من دون أن يخشى أحداً من العباد إذا ما أعلن شيئاً من اعتقاده.

لقد كان منظر هؤلاء الإخوة والأخوات وهم يسلمون خاشعين مجلين ومحترمين لإخوتهم المسلمين منظراً لا يمحى من الذاكرة، ولا يمكن تصويره بالمداد، ولا يستطيع مثلي حينما يراه إلا أن يسبح الله سبحانه، ويجله على عظمة هذا الدين الذي يرى أثره على المسلمين عين اليقين، وليس بخبر المخبرين.

الخطابة:

بعد انقضاء الصلاة تقدم الشيخ المفتي (طلعت تاج الدين) إلى مكبر منصوب في المحراب بجانب المنبر، فتكلم بكلام مؤثر قدم فيه أعضاء وفدنا بأسمائهم واحداً واحداً، وقال: إنهم جاؤوا من رابطة العالم الإسلامي من مكة المكرمة من جوار الكعبة المشرفة من أرض الحرمين الشريفين.

وقال: إنه سبق أن حدثهم عما رآه في الحرمين الشريفين عندما أدى فريضة الحج في العام الماضي، وأنه قد بشرهم بأن وفداً من الديار المقدسة سيزورهم ويسلم عليهم.

ثم حدثهم عما عرفه من نشاط رابطة العالم الإسلامي في أنحاء العالم الإسلامي؛ بل في أنحاء المعمورة، وقال: إنها تستضيف كل عام وفد الحجاج السوفييت.

وقد أطنب -جزاه الله خيراً- في الثناء على أعمال الرابطة والقائمين عليها.



المؤلف يتكلم في محراب جامع أوفا

ثم نهضت فنقلت إليهم تحيات إخوتهم المسلمين في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وأشواق المسلمين الذي يشتاقون لرؤيتهم، ويتطلعون لمعرفة أحوالهم، وشرحت لهم هدف زيارة الوفد التي تمت تلبية لدعوة الإدارات الدينية في الاتحاد السوفييتي، وعن الأخوة الإسلامية، وانتشار الإسلام في العالم، ثم نصحتهم بتربية أبنائهم على الإسلام، ودعوت لهم بالصبر، وأن يمكنهم الله ﷻ من زيارة الحرمين الشريفين.

وبعد ذلك أقيمت صلاة الجمعة، فخطب الشيخ طلعت تاج الدين خطبتي الجمعة وصلى بالمسلمين، وبعد انتهاء الصلاة قام جماعة المسلمين بالسلام على أعضاء الوفد فرداً فرداً، وكان عدد المصلين أكثر من ألف شخص، منهم كثير من النساء.

هذا وقد تزاحم الإخوة على إعادة السلام على الوفد، واجتمعت النسوة خارج المصلى في الفناء الخارجي، فأشرنا إليهن بالسلام، ودعونا لهن بالتوفيق وعندما دعوت لهم بأن يقدر الله رؤيتهم مرة ثانية في الحرمين الشريفين مكة المكرمة والمدينة المنورة أجهش بعضهم بالبكاء.

وبعض النسوة أشحن بوجوههن لئلا يراهن الناس وهن يبكين.

ولم يكن في الوقت متسع لرؤية أماكن أخرى ملحقة بالمسجد مثل مقبرة صغيرة قديمة كانت في حديقة المسجد، ولكنها منفصلة عنه، وفي غير جهة القبلة، ولا يدفن فيها الآن أحد، وفيها قبور لبعض كبار المسلمين، كتب ذلك على شواهدها.

وقد ازدادت كثافة الأشجار الباسقة التي لا تزال عارية من الأوراق بعد الشتاء الطويل، ورأيت أكوام الثلج التي لم تذب بعد مما يدل على قرب عهدهم بالدفء كما قدمت.



شاهد في مقبرة قديمة قرب جامع أوفا

مطعم الجواد الأبيض:

ولكلمة الجواد هنا التي تعني السابق من الخيل معنى في نفوسنا عميق، لأننا قد شربنا من لبن الفرس في عشاء البارحة وإفطار هذا الصباح، وها نحن الآن ذاهبون إلى مطعم الجواد الأبيض.

والجواد الأبيض هو أجمل الجياد في نظر كثير من الشعراء وأرباب

الخيال المجنَّح، لذلك ورد ذكره في العديد من الأساطير، وتردد في طائفة من الرؤى والأحلام، وقلت في نفسي أيكون في الغداء من مطعم الحصان الأبيض شيء من لحوم الخيل كما شربنا من ألبانها في مطعم الفندق؟

وعندما رأيت المائدة الممتدة؛ بل البالغة الامتداد، وقد حفلت بمقدمات المائدة التي من أفخرها الكافيار البطارخ الثمين، والأشربة المتنوعة من مياه معدنية إلى عصير فاكهة محلية إلى أنواع أخرى، وقد مدت إلى درجة صعب على المصور أن تستطيع مصورته استيعاب طولها بلقطة واحدة زايلني الخيال عن الجواد الأبيض المجنح وغير المجنح، وعجبت لهؤلاء الإخوة الذين يجمعون النقود قليلاً قليلاً من إخوتهم المسلمين، ثم يسخون بها بهذا القدر إكراماً لإخوتهم في الله، وبخاصة في هذا المطعم الذي هو أفخر مطاعم المدينة.

وكانت المأدبة بدعوة من الجمعية المشرفة على المسجد برئاسة الأخ الكريم (زكريا مينوالي).



الغداء في مطعم الجواد الأبيض في أوفا

وقد حضرها عدد عديد من وجهاء المسلمين، ومنهم أعضاء جمعية المسجد، وأئمة المساجد الذين قدموا إلى (أوفا) للسلام على الوفد، وبعضهم قدم من مسافات بعيدة.

ومن غرائب المأدبة في بلاد الغرائب جمهورية (باشقردز ستان) ماء شربناه غريب الطعم قالوا: إنه مفيد جداً، ويأخذونه من شجرة تنبت عندهم يفلحون قشرها، أي يشقونه كما يشق قشرة شجرة المطاط من أجل أن يسيل المطاط السائل منه، وهنا يسيل لهم ماء لذيذ يشربونه ويتهادونه، ولا يكون إلا في أشهر مخصوصة من السنة، وبخاصة في مثل هذه الأيام التي يكون ماء الربيع قد سرى في الشجرة دون أن يتحول إلى غذاء لأوراقها التي لم تتمُ بعد، وذكروا أنهم سيروننا هذه الشجرة بعد ذلك، وقد سبق ذكر شيء عنها عند قدمائهم.

والغريب الثاني: عصير أسموه عصير عشب الثلج، ذكروا أنه يستخرج من عشب ينمو في الثلوج يسمونه عشب الثلج، وليس له أوراق كالتي تكون في الأعشاب المعتادة، فيعصرونه ويستخرجون منه هذا العصير في لون عصير الجزر، إلا أن طعمه تغلب عليه الحموضة، لذلك لم أستسغه كثيراً، وقد رأيتهم يحرصون على شربه، ربما لاعتيادهم عليه، أو لاعتقادهم بنفع فيه للصحة.

وقد ألقى متولي المسجد الذي هو رئيس جمعية المسجد في نهاية المأدبة كلمة ترحيبية كريمة، قال فيها إنه أقام هذه المأدبة بالنيابة عن جمعية المسجد الذين هم يرحبون بكم بالنيابة عن المسلمين جميعاً في هذه البلاد.

ثم قدم باسم جمعية المسجد أيضاً هدايا للوفود ومرافقيه، وهي أوان نحاسية من أباريق ونحوها غريبة الشكل؛ لأنها مما كان يستعمل في هذه البلاد في القديم، ولكنها مصنوعة في (أوفا).

معرض المنجزات الوطنية :

وضعوا زيارة معرض الإنجازات الوطنية في برنامج الزيارة في أوفا ، كما كانوا قد وضعوا زيارة مثيل له في مدينة طشقند عاصمة جمهورية (أزبكستان).

ويضم مثل هذا المعرض الذي يسمونه أحياناً معرض المنجزات الوطنية ، وأحياناً أخرى معرض الصناعات الوطنية بيانات وملاحظات ومعروضات عن ثروات البلاد ، والمعادن الموجودة فيها ، والصناعات القائمة فيها ، وما تنتجه من المواد الأولية.

ورأيناهم في طشقند قد بالغوا في إظهار المكان بمظهر المكان الأول المحتفى به في الجمهورية ، فبنوا له بناء فخماً واسعاً ، وقدموا له مقدمات على هيئة أفنية واسعة عريضة طويلة مفروشة بالبلاط الثمين يصعد إلى أولها بدرج عريض عرض الفناء كله ، ثم يصعد منه إلى الفناء المكشوف الثاني بدرج عريض جداً مثله ، ثم إلى الثالث كذلك حيث يتم منه الدخول إلى المعرض.

هذا في طشقند ، وذكرته في كتاب: " في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر ".

وقد وضعوا ما يشبهه هنا من المقدمات ، ولكن بصفة مختصرة مقتصرة على ما هو فوق الضروري لمكان محترم في نفوس رجال السلطة الذين يقدسون المادة ، أو هم يعولون عليها وحدها دون غيرها من القيم الأخرى.

وعندما وصلنا إليه وصعدنا من درج عريض يرتفع عن الشارع قليلاً وجدنا في الاستقبال موظفة مسؤولة عنه كانت تستعد للقاء الوفد حسبما بلغت به من السلطات المسؤولة.

وهي من بنات المسلمين ، والله أعلم بدينها وعقيدتها ، وهي في حوالي الثلاثين من عمرها ، تتميز برشاقة في الجسم ، وجمال في الهندام دون إسراف ،

بل دون مبالغة شأن أكثر السيدات المسلمات في هذه البلاد، إلا أنها تلبس لباساً معتاداً كاللباس الإفرنجي الذي تلبسه الروسيات.



داخل معرض الإنجازات في أوفا

سارت الدليلة، وهي مديرة مسؤولة، أمام الوفد تشرح باللغة الروسية أحياناً، وبالتترية التي يسمونها اللغة الوطنية في الجمهورية أحياناً أخرى، والإخوة المرافقون من أهل أوفا من أهل منطقة بخارى التي هي أزبكستان يترجمون إلى العربية.

فكان من أول الأقسام في المعرض قسم للثروات الطبيعية التي تستخرج في هذه الجمهورية، وأهمها النفط ومشتقاته، ثم الفحم الحجري وأنواع من الأحجار الكريمة ونصف الكريمة، والأحجار الغريبة، وكلها من جبال الأورال التي يقع جزء منها في هذه الجمهورية.

ثم قسم عرضوا فيه ما أسموه بالميكانيكا أي المحركات، وما

يحركها أو يتفرع عنها، وهو جيد يتميز بوجود صناعة منه راقية إذا كانت تنتج منه مقادير كبيرة.

وعرضوا فيه حاسباً آلياً (كمبيوتر)، ومن المعروف أن الاتحاد السوفيتي متخلف كثيراً عن الولايات المتحدة واليابان في صناعة الحاسبات الآلية هذه.

ونوهت الدليلة أن هذا الحاسب الآلي هو صغير من مصنوعات هذه الجمهورية من أجل الأطفال يتمرنون عليه وهم صغار.

ورأينا آلات كبيرة قالوا: إنها توفر أيادي عاملة إنسانية كثيرة، ومحطة للاتصالات.

ثم انتقلنا خلف المرشدة أو المديرة إلى قسم السيارات الذي عرضوا فيه محرك سيارة، وبعض آلات السيارات الأخرى.

وفي ركن للأدوات الكهربائية عرضوا ثلاجة متوسطة، ومناظير مقربة متعددة الأحجام، وهواتف ذكروا أنها صنعت في هذه الجمهورية، ومنظرها معتاد أو دون ذلك.

وفي ركن من المعرض كان هناك نموذج للبيوت التقليدية، وفي ركن آخر عرضوا كتباً، ونماذج للمكتبات الصغيرة، وأواني فخارية وملابس للرجال وأهمها المعاطف الثقيلة.

وفي النهاية ودعتنا الموظفة مع بعض الموظفين الآخرين حتى الفناء الخارجي.

شجرة الماء:

ليس المراد بذلك الشجر الذي يكون في الماء، فذلك شأن الشجر كله أو أكثره، وإنما المراد الشجر الذي يكون فيه الماء، وهو الماء الذي شربنا منه في الغداء.

وكان التفرج برؤية هذا الشجر من برنامج مفتوح أوصلوني أنا والأخ الدكتور سعيد محمد باديب عضو الوفد إليه، وذلك أن الفقرة التالية من البرنامج الرسمي كان قد بقي عليها ثلاث ساعات، فأخلد بعض الإخوة إلى الراحة في الفندق.

فقصدنا غابة قريبة من المدينة لأن الغابات تحيط بها، ورأينا شجر الماء أبيض اللون، وهذا هو ما يميزه عن غيره، وبياض اللون في سوقه - جمع ساق - وفي أغصانه الغليظة، وقد صار ذلك واضحاً فيه لأنه لم يورق بعد.



شجرة اللبن أو العصير في أوفا، المؤلف والدكتور سعيد باديب عضو الوفد

وكانت الغابة مكاناً جميلاً لليث فيه لولا أن بعض أجزائها المتقاربة الأشجار لا تزال في أرضها بقية من ثلوج الشتاء رغم الدفء الظاهر؛ بل النادر في هذه البلاد، حتى إننا كنا نرتدي ملابس الربيع في الرياض، أي الملابس التي كانت علينا قبل أن نغادر الرياض، ولولا أن الطرق بينها طينية مع قربها من المدينة، ولذلك وجدنا فيها بعض الأمهات يتمشين بأطفالهن يحملهن على عربات تدفع باليد.

وأكملنا الجولة في أماكن من المدينة كنا قد رأينا بعضها من قبل، وبخاصة فيما يتفرع من شارع أكتوبر الواسع الذي يبلغ طوله ١١ كيلومتراً.

وكنا في أية جهة خرجنا فيها من المدينة نصادف أشجار الغابات الكثيفة بحيث يصح أن يقال في منطقة (أوفا) إنها غابات فيها مدينة، وليست مدينة فيها غابات.

ورأينا الطوائف من الناس في هذه الساعة التي أعقبت ساعات العمل وقد انتشروا في الشوارع، بل رأينا الأغرب من ذلك بعض النساء الجميلات من أهل البلاد الأصلاء، وهن ينظفن الحدائق الصغيرة الواقعة في الجزر بين الشوارع، أو في الأرصفة، وبعضهن رأيناهن على نظافة ثيابهن وأناقة مظهرهن يكنسن أرض الشارع، أو ينظفنها من المخلفات.

وكل ذلك فيما أخبرونا به يفعلنه متبرعات إسهاماً منهن في نظافة المدينة، لأن عمال البلدية أقل عدداً من أن يقوموا بذلك، أو من أجل معاونتهم على ذلك.

وتجلى الجمال ظاهراً في الوجوه في هذا الأصيل الربيعي الجميل إلا ما كان من منظر روسيات غليظات ثقيلات الأجسام، ولا ندري عما وراء ذلك.

وعدنا إلى وسط المدينة الحديث، فإذا فيه أيضاً غابة أخرى واسعة، وأكرر هنا أن هذه الغابات هي قديمة كانت موجودة قبل عمارة المدينة،

ولكنهم حافظوا على بعضها عن القطع، وإنما نسقوه تنسيقاً استفاد منه المنظر العام للمدينة.

وقد كثر منظر الأبنية الحكومية الكبيرة المتعددة الطوابق (العمارات)، وكلها شقق سكنية بديلة من البيوت الخاصة التي توجد في المدن الأخرى إذْ الأراضي الصالحة لبناء المساكن عليها في المدن السوفيتية لا يجوز أصلاً أن تعطى لأي فرد، وإنما يقتصر البناء فوقها على الحكومة للمباني العامة، أو المساكن الشعبية التي تبنيها الحكومة لإسكان الناس عن طريق تأجيرها لهم بأجور رخيصة.

ولذلك لا توجد إلدارات (الفلل) الخاصة للأفراد المعروفة في بلادنا وفي بلاد الحرية الاقتصادية في ضواحي المدن، ومعظم المنازل هنا وبخاصة الكبيرة هي ذات منظر بهيج، متجدد وأكثرها بيض الألوان.

ولاحظنا هنا كثرة سيارات الركوب الصغيرة بالنسبة إلى المدن السوفيتية، وذكر لنا أن من أسباب ذلك وجود المعادن والنفط إلى جانب المواد الأولية الأخرى التي سمحت لطائفة كبيرة مَن الناس أن يجدوا أعمالاً مجزية، ونتيجة لذلك قد يستطيع الشخص أن يوفر من راتبه، أو يجمع أقرباؤه ما يوفرونه، ويشترون سيارة خاصة لهم، لأنه يمكن من يجمع ثمن السيارة أن يشتريها من الحكومة، لأنها مثل سائر الأشياء لا توجد إلا عند الحكومة، ما عدا المنتجات الزراعية القليلة التي ينتجها الفلاحون من أراضيهم الصغيرة المحدودة الرقعة، فإن النظام الآن يجيز لهم أن يبيعوا بأنفسهم ما تنتجه أراضيهم بشرط أن لا يضموا إليه إنتاج مزرعة أخرى لشخص آخر، لأن ذلك يعتبر من التجارة التي ينشأ عنها - بزعمهم - الاستغلال، وهو أمر محرم في نظامهم، فلا يجيزون أن يستغل الناس أحد غير الحكومة.

وعلى ذكر السيارة نقول: إن الطراز الأكثر شيوعاً عندهم هو صغير كالفيات الإيطالي، بل هو سيارة (الفيات) في الأصل كانوا قد اتفقوا مع

الشركة الإيطالية على تصنيعها في الاتحاد السوفيتي، ثم استقلوا بصنعها بعد ذلك، وتساوي السيارة جديدة من هذا النوع ثمانية آلاف روبل ويسمونه (لادا).

ونظراً إلى أن العملة في حد ذاتها لا يمكن تحديد قيمتها مجردة عن دخول الناس، وعما يصرفونه على شؤون حياتهم، فإنه لا بد من مقارنة ثمنها بما يتقاضاه العامل من أجر يومي، ثم حساب قيمتها بكم تكلف من رواتب الأيام والشهور اللازمة للحصول على ثمنها، فالعامل أجره فيما أخبرونا مائتا روبل في الشهر.

ويعني ذلك أن السيارة الواحدة تحتاج إلى جهد العامل الواحد أربعين شهراً أي ثلاث سنوات وشهرين، هذا إذا فرضنا أنه استغنى عن أن ينفق من راتبه شيئاً، وهذا أمر مستحيل في الاتحاد السوفيتي لأنهم يحرمون أن يكون للإنسان مصادر للكسب غير معروفة، أو يكون له راتبان في آنٍ واحد، إلا إذا كان استغل أعمالاً إضافية خارج وقت العمل الرسمي إضافة إلى عمله الرسمي، ولكن ذلك محدود الوقت، ومحدود الأجر.

إذاً على ذلك العامل أن ينتظر - على الأقل - مثل هذه المدة لكي يشتري سيارة خاصة له إذا اقتصر على إنفاق نصف راتبه.

على أن الأجور تختلف باختلاف فئة الوظيفة وطبيعة عملها، فبعضها أجور أكثر من ذلك.

وبالمقارنة بالجهد الذي يجب أن يبذله العامل في بلادنا لكي يحصل على سيارة مثل هذه من طراز (فيات)، وثمنها الآن حوالي (٢٢) ألف ريال سعودي، وأجرة العامل المتوسط ثلاثة آلاف ريال في الشهر، فإن ذلك يعني أن يحصل عليها مقابل أجرة لسبعة أشهر ونصف إضافة إلى إمكانية حصول العامل على دخل إضافي من مصادر متعددة مباحة، مثل أن يشتغل في البيع والشراء خارج أوقات العمل، أو أن يتوظف مساءً للعمل في أحد المتاجر أو

إحدى الشركات.

ومثل أن يكون لديه عقار يدر عليه أجرة يكون ورثه من والده، أو يكون اشتراه عن طريق متاجرته بالأراضي ونحوها.

وفي هذه الحالة لا يحتاج للحصول على السيارة الصغيرة المذكورة لكي يبذل جهد سبعة شهور ونصف.

وفي الشوارع العامة في المدينة لاحظنا كثرة وجود الحافلات العامة الكبيرة، ويقبل الناس على الركوب فيها لرخص أجرتها.

في بيت المفتي:

وهو رئيس الإدارة الدينية لمسلمي القسم الأوروبي من الاتحاد السوفيتي وسيبيريا الشيخ (طلعت تاج الدين)، وبيته كسائر المفاتي - جمع المفتي بلغة القرون الوسطى في بلادنا العربية - دارة مستقلة لا يستطيع الأفراد من سائر الشعب أن يسكنوا فيها، فقد اعتادت الحكومة السوفيتية أن تميزهم كما تميز كبار الموظفين لديها، وإن لم يكونوا موظفين لديها على الحقيقة، بمعنى أنها لا تصرف لهم رواتبهم كما تفعل مع الموظفين الحكوميين الآخرين، بل إنها تأخذ منهم باسم تبرعات الإدارات الدينية في بعض الأحيان، وباسم الضرائب أو نحوها في أحيان أخرى ... مثل الذي تطلبه ممن يسمونهم رجال الدين، لأنهم في زعمها من الذين يستهلكون ولا ينتجون.

إنهم يقولون ذلك ويتغاضون عن عشرات الألوف من الموظفين الزائدين على الحاجة ممن يوظفهم الحزب الشيوعي في إدارات وشركات لا تحتاج إليهم، وإنما لمجرد أن يلتحقوا بعمل، ولكي يقال: إن الاتحاد السوفيتي ليس فيه بطالة ولا عاطلون عن العمل، وهي تؤجر هذه المساكن المنفردة لهم ولكبار الموظفين، ولا يستطيع من يقدر أن يدفع أجرتها من غيرهم أن يسكن فيها.

غادرنا الفندق إلى بيت الشيخ الجليل في الساعة التاسعة والنصف مساءً والشمس لا تزال حية، فهي تغرب الآن في حدود العاشرة، وسوف يتأخر غروبها عن ذلك من أول شهر يونيو.

فوجدنا بيته مزدحماً بالإخوة المسلمين العاملين في الجمعيات الإسلامية من أعضاء وأئمة من داخل مدينة أوفا ومن خارجها، بل حتى من خارج جمهورية (باشقردزستان) التي عاصمتها (أوفا).

وقد نصبت الموائد في الطابق الأرضي من الدارة - الفيللا - حتى غطته كله لكثرتها واتساعها.

لحوم الخيل وألبانها:

وجدنا الموائد قد وضعت عليها مقدمات المائدة المعتادة، وهي تكاد تكون وحدها مائدة حافلة بالطعام كما سبق أن وصفتها في أماكن أخرى.

ولكن وجدنا الشيخ هنا قد أضاف إليها أشياء من الأطعمة غير معتادة، ومنها (لحم الفرس) أو هو لحم من حصان، لا ندري، لكن من لحم الخيل، وهو هبر ليس دسماً ولا عظم فيه.

وقد وضعوه على المائدة بجانب لبن الفرس الذي شربنا منه البارحة وفي صباح هذا اليوم، وأسرعنا مع الرفاق نتذوقه، أما أنا فقد أكلت لحم الخيل في تركستان الشرقية الواقعة في الصين الآن ويسمونها (سينكيانغ)، وكان ذلك على ضفاف بحيرة تسمى (بحيرة السماء)، وكانت مياه البحيرة متجمدة عندما زرناها، وقد ذكرت حديث ذلك في كتاب " في مهد الترك ".

وأما الإخوة فإن أكثرهم لم يذق لحوم الخيل في حياته، وانتهزها فرصة لتجربته.

وكان لحم الفرس الذي قدموه من الهبر كما قدمت، وما أبعد أن يكون من لحم الفخذ أو إحدى القائمتين؛ لأنه كان قاسياً يحتاج إلى مضغ

جيد ، وأخبر الإخوة هنا أنه من اللحوم النفيسة عندهم؛ بل قال الأخ الشيخ عبدالخبير جار الله وهو من قازان عاصمة (تتارستان) إن عندنا مثلاً يقول: لذات الدنيا خمس، منها أكل لحم الخيل، والبيت الواسع، والمنصب المرموق، والخروف المشوي، والزواج بامرأة شابة. وقد جاء بها مسجوعة في لغتهم.



المأدبة في منزل الشيخ طلعت تاج الدين في أوفا

وأكل لحم الخيل كان معروفاً عنهم منذ القديم، أشار إليه الكاتب ابن فضلان في مشاهداته في بلاد البلغار التي تعتبر هذه البلاد جزءاً منها لأنها مجاورة لها، قال: وأكثر أكلهم الجاورس ولحم الخيل على أن الحنطة والشعير كثير في بلادهم، والجاورس هو الدخن.

لقد كان من بين الذين حضروا المأدبة الأخ: الشيخ ذو القرنين وهو إمام مسجد (أومسك) بسيبيريا، ولك أن تتصور ما قد يثيره الخيال عندما تأكل لحوم الخيل بصحبة ذي القرنين من سيبيريا القارصة البرد، النائية الموقع.

وقد حفلت المائدة بعد ذلك بأنواع من اللحوم من المشوي إلى المطبوخ إلى غير ذلك من المأكولات الأخرى، وكان يساعد في الخدمة عدد كبير من الإخوة، والطلبة يرفعون الصحون ويضعون غيرها مليئة، وفي نهاية الأكل وقبل رفع المائدة بدأ حفل بآيات من القرآن الكريم تناوب على ترتيلها ابنان للشيخ، ثم وقف مضيفنا الشيخ المفتي (طلعت تاج الدين) فابتدأ كلامه بالحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله محمد ﷺ وعلى صحبه، ثم عبر عن سروره وسرور المسلمين في هذه البلاد بزيارة الوفد، وحمد الله تعالى على ذلك، وذكر شوق المسلمين إلى إخوتهم في الله القاطنين في بلاد الحرمين الشريفين، وقد بلغ به التأثر وهو يتحدث إلى درجة أن ينخرط في البكاء، ووقفت الكلمات في حلقه، وتأثر الجميع بتأثره، وبخاصة الإخوة المسلمين الذين حضروا للقاء الوفد، وكانوا متأثرين مثله بهذا اللقاء.

وبعد أن سكت الجميع فترة وهم في غاية التأثر لأن الشيخ لم يستطع أن يواصل كلامه، فبدأ يغالب الدموع في عينيه، والحشرجة في صدره، وهو يقول: إنها لساعة مباركة طيبة كنا نتمناها، بل كان آباؤنا وأجدادنا يتمنونها، ولم يكن لهم شرف الحصول عليها.

إننا نحن شعب البلغار المسمين بالتتار قد اخترنا الإسلام طواعية ودون إكراه، حتى إن أجدادنا عندما أسلموا قبل ألف سنة بادروا بإرسال رسول إلى الخليفة المقتدر بالله العباسي، يطلبون إليه أن يرسل إليهم من يطلع على أحوالهم ويعلمهم أمور دينهم، فأرسل إليهم بعثة لهذا الغرض كان معها ابن فضلان الذي سجل مرئياته أو انطباعاته عن هذه الرحلة في رسالة تعرف الآن برحلة ابن فضلان، وحفظت معلومات مهمة عن هذه البلاد في ذلك العهد لا توجد في غيرها، ولذلك هي معلومات قيمة، بل لا تقدر بقيمة لنفاستها، وعرفت المسلمين ببعض أحوال إخوتهم في هذه البلاد.

وها أنا الآن أرى أخي رئيس الوفد الشيخ محمد بن ناصر العبودي الأمين

العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي يسجل ما تقع عليه عينه في هذه البلاد مما يتعلق بأحوال المسلمين في الاتحاد السوفيتي؛ بغية تعريف إخوتهم المسلمين في الخارج بأحوالهم، وإني أرجو، بل إنني واثق إن شاء الله أنه سوف ينقل صورة حية عن أحوال المسلمين هنا إلى الإخوة المسلمين في سائر أنحاء العالم.

وقال: إنني عندما رأيت الشيخ، وما عمله من أجل الكتابة عن بلادنا تذكرت ابن بطوطة أيضاً، وبخاصة عندما استضافه رجل من بلادنا وقال له: عجل لنأكل العشاء حتى نتمكن من صلاة العشاء قبل أن يطلع الفجر فيفوت وقتها، وقد سجل ابن بطوطة ذلك، لأن بلادنا هي بلاد الشفق والغسق؛ إذ يلحق الغسق الذي هو أول نور الفجر بآخر الشفق الذي هو آخر نور النهار في أول الليل، وذلك في فصل الصيف.

وقال: إن إخوتكم المسلمين في هذه البلاد يبذلون كل ما يستطيعون من أجل العمل لدينهم، ويقدمون التبرعات السخية للمساجد، وحالما يعرفون أن هناك مسجداً يقام في أية منطقة من المناطق التي تشملها إدارتنا الدينية، وهي تشمل مساحات واسعة، فإنهم يسارعون إلى جمع التبرعات وإرسالها إلى الإدارة الدينية لدينا لكي نبعثها إلى القائمين على شؤون المسجد.

ومن الأمثلة على ذلك أن أخانا هذا الحاضر معنا الآن رئيس الجمعية الإسلامية في قازان، أي الجمعية التي تقوم على بناء المسجد، قد أرسل لنا في العام الماضي خمسين ألف روبل مما جمعه من الإخوة المسلمين في منطقة (قازان) عاصمة جمهورية تتارستان.

وأضاف قوله: ولذلك نبشركم أننا لا نشكو حاجة ولا عوزاً عند الإنفاق على الأمور الدينية التي نقوم بها؛ بل إننا أحياناً يكون لدينا فائض من المال نتبرع به لمجلس السلم والصداقة في الاتحاد السوفيتي إسهاماً منا نحن المسلمين في العمل للصداقة والتعاون الدوليين.

وقال: إنه إذا اجتمع عشرون شخصاً من المسلمين، وطلبوا الإذن لهم بتأليف جمعية إسلامية، فإنهم يحصلون على الإذن بتأليف الجمعية، والعمل الرسمي للجمعية الإسلامية بالدرجة الأولى هو بناء مسجد جديد، أو طلب إعادة بناء وتعمير مسجد قديم، لأن هذا يكون مفهوماً من تأليف الجمعية الإسلامية.

وكان خطابه بالعربية مرتجلاً، ولم يكن معداً، ومع ذلك كانت لغته العربية فصيحة، فهو قد تعلم في الأزهر، وأنهى الدراسة الجامعية فيه.

ثم قمت وألقيت كلمه مناسبة عقبت فيها على ما قاله، فشكرت الله تعالى أولاً وقبل شيء الذي قدر هذا الاجتماع، ثم شكرت الشيخ طلعت خاصة على حسن صحبته لنا طول الرحلة حتى الآن في الاتحاد السوفيتي وصبره على فضولي وكثرة كلامي وتعبه معنا طول الوقت، وقلت: إن صحبته كانت مفيدة لنا.

ثم شكرته أيضاً على إقامته هذه المأدبة الحافلة التي جمعت من خيرة الإخوة في الله في هذه المنطقة من لو أنفقنا ما في الأرض جميعاً لما تيسر لنا أن نحصل على اللقاء بهم مجتمعين، فقد حضرها عشرة من الأئمة، وطائفة من رؤساء الجمعيات الإسلامية التي تشرف على المساجد، ومن أعضائها وأكثرهم جاؤوا من أماكن بعيدة عن مدينة (أوفا)، وتجشموا عناء السفر، ثم شكرته على إعداد هذه المأدبة الكبيرة السخية التي يكفي ما قدم فيها من طعام لأضعاف من حضروها.

ثم قلت: إن إخواننا من أبناء شعب بشكيريا العظيم، سليل شعب البلغار الذي اختار الإسلام ديناً طواعية ومحبة فيه، وقريب شعب التتار الذي أقام إمبراطورية إسلامية الشعار استمرت قائمة أدهاراً من الأدهار، يؤكدون اليوم أن التاريخ يعيد نفسه، وأنهم شعب مضياف محب لإخوتهم المسلمين، فقد كانوا يستضيفون المسلمين في الماضي، واليوم رأينا هذا ماثلاً في هذه المأدبة

التي لم تكن حافلة بالطعام الوافر اللذيذ فحسب، وإنما هي حافلة أيضاً بالعواطف الأخوية الجياشة التي مبعثها المحبة في الله ولله، وليست لغرض مادي أو نفع مالي.

إننا نعلم أن قروناً طويلة مضت على اعتناق شعب البلغار الإسلام، ومن بعده شعب التتار، وقد حافظ أفراده على الإسلام، بل تمسكوا به رغم المحن والظروف والبلايا التي ابتلاه بها المبتلون الحاقدون من الحكام المتعصبين للمسيحية في مرحلة من المراحل، حتى حرموا على المسلمين أن يبقوا على دينهم الإسلامي، وأجبروا بعضهم على التنصر كما فعل الأسبانيون بمسلمي الأندلس.

ولكن ما أن تجلت الغمة عنهم حتى تبين أنهم كانوا كلهم متمسكين بدينهم، بل إنهم عوضوا عن ذلك بأن قاموا هم أنفسهم بالدعوة إلى الله تعالى، فدخلت على أيديهم أعداد من غير المسلمين، ومنهم بعض المسيحيين في الإسلام.

وكان هذا قبل الثورة في هذه البلاد، واليوم نراهم لا يزالون متمسكين بدينهم الإسلامي الحنيف، محبين لأهله، مكرمين لمن يعمل به. وما ذكره أخونا صاحب الفضيلة الشيخ الجليل طلعت تاج الدين عن إخوتنا أعضاء جمعية المسجد في قازان، وجمعهم للتبرعات ما هو إلا مثلاً حياً على تمسك الإخوة من شعب البلغار والتتار بالإسلام، وسخائهم في البذل له.

وإننا نعدكم بأن نبلغ إخوتكم المسلمين في المملكة العربية السعودية خاصة، وفي سائر أنحاء العالم الإسلامي عامة، بما رأيناه وشاهدناه في بلادكم، وما عرفنا عن شعبكم الكريم من التمسك بدينه الإسلامي.

وسوف نبلغهم بهذه العواطف الكريمة التي لقيناها منكم خاصة، ومن إخوتكم المسلمين في سائر أنحاء البلاد السوفيتية عامة.

كلمة القادمين :

ثم طلب الكلمة الإخوة الذين قدموا من بلاد بعيدة من أجل اللقاء بالوفد، وإبلاغه سلام إخوانهم في البلاد التي لم تتح للوفد زيارتها.

فكان المتكلم رئيس الجمعية الإسلامية في قازان، فقال: إننا كنا ننتظر قدومكم إلينا بفارغ الصبر، وإن المسلمين كانوا يعتبرون اليوم الذي تقدمون فيه يوم عيد من أعيادهم، إلا أننا عرفنا أنه لم تتيسر زيارتكم لبلادنا، فجئنا بالنيابة عن الإخوة المسلمين في جمهورية تتارستان لنبلغكم سلامنا وتحياتنا وأشواقنا إلى أن تزورونا في المستقبل، أو على الأقل تعدوننا بأن تحرصوا على ذلك.

وألقى الشيخ نور محمد نعمة الله الإمام الخطيب في جامع أوفا الكلمة التالية التي أحببت أن أوردها بنصها من أجل الاطلاع على الأسلوب اللغوي بالعربية فيها، وقد ألقاها بالعربية، واسم رئيس المتولين للجامع الأخ (مراد حاجي سمير بيف) قال:

بسم الله الرحمن الرحيم

حَمْدٌ للهِ الذي أعزّنا بالإسلام، ونوَّر قلوبنا بالإيمان، وجعلنا خير أمة أخرجت للناس ما دمنا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونؤمن بالله العزيز الحكيم.

الصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد الذي هو قائدنا ورائدنا إلى طريق الخير والرشاد، وهدانا إلى صراط مستقيم – صراط الله الذي له ما في السموات والأرض – ألا إلى الله تصير الأمور.

على آله وأصحابه – خير من اعتصم بالقرآن وأخذه إماماً في حياته، وحجة في مماته، ودافعوا عن الحق والعدل والحرية، وكانوا عوناً لها، جنداً لربهم لا يخافون لومة لائم.

وعلينا وعلى عباد الله الصالحين، وعلى كل من اهتدى بهديه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

أصحاب السماحة والفضيلة.

إخوتي الأعزاء في الإسلام.

يسعدني أن أحييكم بتحية الإسلام، تحية من عند الله مباركة طيبة.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وأرجو من حضرتكم أن تبلغوا منا تحية الإسلام لكل أخ مؤمن بديننا الحنيف في بلادكم، وبهذه الفرصة السعيدة يسرني باسم مسلمي مدينة أوفا وشخصياً أن أرحب فضيلة الشيخ محمد بن ناصر العبودي - نائب الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي - رئيس الوفد الإسلامي. والشيوخ الكرام - أعضاء الوفد بأرض جمهورية باشقردستان ذات الحكم الذاتي وعاصمتها أوفا، ونقول لكم من قلب مخلص: أهلاً وسهلاً ومرحباً بكم الضيوف الكرام.

وصل هداية الرحمن ونور الإسلام إلى أرضنا هذا في القرن الرابع من هجرة الرسول على صاحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم، ونحن نحتفل هذا اليوم - وهو ١٦ من المحرم، من قديم الزمان إلى يومنا هذا كل من يؤمن بالله ويستطيع إلى الحج سبيلاً يسعى إلى الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج.

وقد شعرنا باهتمام رابطة العالم الإسلامي لحجاج بلدنا ونقول لكم:

جزاكم الله خيراً كثيراً عن الإسلام والمسلمين في كل مكان. انتظرنا بشوق وصول الوفد من رابطة العالم الإسلامي إلى بلدنا، ولله الحمد والمنة قد شرفتمونا بزيارتكم إلى مدينة أوفا.

وأكرر شكري الجزيل وأدعو الله أن يوطد العلاقات الدينية بين مسلمي بلادنا ورابطة العالم الإسلامي، ونرجو من الله تعالى الأمن والسلام

للعالم بأجمعه.

وأن يبارك في أعمارنا وينيلنا سعادة الدارين، وأن يجمع قلوبنا على محبته ومرضاته، وأن يهبنا التوفيق والإخلاص والسداد في القول والعمل وكمال الإيمان وصدق اليقين.

وأرجو لكم الرحلة الطيبة والرجوع إلى وطنكم وعائلتكم في تمام الصحة والسلامة والعافية.

اسمحوا لي أن أقدم للضيوف الكرام الهدايا التذكارية من طرف هيئة المتوليات لجامع أوفا.

والسلام عليكم ورحمة الله.

ألقاها الإمام الخطيب لجامع أوفا نور محمد نعمة الله ورئيس الجامع (هيئة المتوليات) مراد حاجي سميرييف ٢٤/ أبريل ١٩٨٦م.

وقال: إننا نستعد الآن لتلقي قبلات إخواننا في قازان لأنهم أوصونا قائلين: قبلوا إخواننا أهل الحرمين الشريفين بالنيابة عنا، وسوف نقبلكم أنتم إذا عدتم إلينا لأنكم فعلتم ذلك.

ثم قدم رئيس الجمعية الإسلامية في قازان ساعات يدوية هدايا للوفد.

وفي نهاية الحديث قدمنا هدايا للشيخ طلعت وللحاضرين، ومنها مصاحف لأئمة المساجد العشرة الذين حضروا المأدبة، ولرؤساء الجمعيات الإسلامية.

وقد انتهى هذا الاجتماع المفعم بالانفعالات في الساعة الحادية عشرة ليلاً، وشعرت بأننا قد تأخرنا بالفعل عن زيارة إخوتنا المسلمين في الاتحاد السوفيتي الذين لم يكن لهم يد فيما هم فيه من ضنك وتضييق في أمور دينهم، بل إنهم ضحايا للتعصب الشيوعي والطغيان الإلحادي.

ومما تجدر الإشارة إليه أن جميع ما جرى هنا من أحاديث، وما دلت عليه هذه الكلمات من تأثر وتمسك بالإسلام كان يسجل بالتلفزة والتصوير إلى جانب الصحافة، وكان يسجل كل ذلك، وبعض أعضائه يعرف العربية إلى جانب من حضرها من رجال الحكومة المحلية، أو من يتعاونون معها، وكلهم سينقل الأخبار إلى المسؤولين السوفيت، ومع ذلك لم يستعمل أحد من الإخوة المتكلمين سواء في الخطابة أو الأحاديث الخاصة التقية في التعبير عن تمسكه بإسلامه، ولا ما كان من العقبات، أو الصعوبات التي تضعها الحكومة والشيوعية أمام الدعوة الإسلامية التي من أهمها أنه يباح لمن يدعو إلى الإلحاد أن يدعو إليه في كل مكان إلا في داخل المسجد، ولا يباح لمن يدعو إلى الدين أن يدعو إليه في أي مكان إلا في داخل المسجد، وهذا فيه ظلم، وعدم إنصاف، بل عدم مساواة في الحقوق، إذ الذي يأتي إلى المسجد يكون في الغالب شخصاً متديناً أو مهتدياً، وإنما تمس الحاجة إلى دعوة المسلمين المنصرفين عن دينهم الذين لا يقاربون المساجد، ولا يصلون فيها، فيجب تذكيرهم، وتحريك عواطفهم للإسلام، وهذا أمر لا يسمح به القانون والنظام في هذه البلاد.

فعدا عدم العدل والإنصاف في المساحة التي يجوز للداعية للدين الإسلامي أن يدعو فيها، وهي المسجد بالمساحة التي يجوز لداعية الإلحاد فيها أن يدعو فيها إلى الإلحاد ويهاجم فيها الإسلام، وهي جميع الأرض السوفيتية خارج المسجد، فإن الحكومة بجميع مؤسساتها الثقافية ودوائرها الإعلامية هي تدعو للإلحاد، وتهاجم التمسك بالدين.

وأبرز مثال على ذلك أنه من الممنوع على المسلم أن يؤدي الصلاة خارج المسجد في مكان عام، لأن ذلك بزعمهم يؤذي مشاعر الملحدين وغير المتدينين، ولكن يسمح لمن يدعو إلى الإلحاد أو يهاجم الدين في مكان عام أن يفعل ذلك، ولو أدى ذلك إلى إيذاء مشاعر المتدينين، مما يدل على عدم

الإنصاف في المعاملة؛ بل مما يدل في حد ذاته على التحيز إلى جانب الإلحاد والظلم للمتدينين.

مع رجال الصحافة المحلية :

التقينا بعد العشاء مع رجال من العاملين في الصحافة المحلية ، وكان بعضهم معنا في مأدبة الشيخ طلعت ، ولكنهم كانوا قد نظموا في البرنامج لقاء خاصاً بهم في الفندق؛ برجاء أن يحصلوا منا على تصريحات قد تستغلها الحكومة السوفيتية في الأغراض الدعائية كما فهمنا ذلك ، وإن لم يقله أحد لنا صراحة.

وحضرها معهم ممثلو مجلة مصورة.

وقد أدليت لهم بكلام عام إجابة عن أسئلتهم ، ومنها انطباعنا عن أوفا وأهلها.

ثم طرح أحد الصحفيين سؤالاً يقول: ما هي انطباعاتكم عن العلاقات بين المسلمين في البلاد السوفيتية وبين الحكومة حسبما شاهدتموه من ذلك.

فقلت له: إننا كما تعلم من العاملين في رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة ، ولسنا موظفين في وزارة الخارجية السعودية أو من العاملين في الحقل السياسي ، لذلك فإن اهتمامنا ونظرتنا تنصب بالدرجة الأولى على الناحية الثقافية الإسلامية ، وقد حرصنا من هذه الزاوية ، ومن كوننا نمثل مؤسسة شعبية ، وهي رابطة العالم الإسلامي على تقوية العلاقات الثقافية الإسلامية ما بين رابطة العالم الإسلامي وبين الإدارات الدينية في الاتحاد السوفيتي ، ورابطة العالم الإسلامي تتعاون مع المؤسسات والجماعات الإسلامية في العالم من دون أن تتدخل في الشؤون الداخلية للبلاد التي يعيشون فيها ، وأعتقد أن الحديث وبخاصة أمام الصحافة عن العلاقة ما بين المواطنين والحكومة في بلد من البلدان يعد تدخلاً في الشؤون الداخلية لذلك البلد.

لقد قلت هذا الكلام لأنني أعرف جازماً أنني لو انتهزت هذه الفرصة وتكلمت عن الوضع الحقيقي للمسلمين في هذه البلاد ، فإن هذا الكلام لن ينشر منه شيء ، وإنما هم يريدون من هذا السؤال وأمثاله أن يستغلوا ما يدلي به الزائر مما يفيدهم ، ويخفوا ما قد يدلي به من انتقادات - إن فعل ذلك - ولم أرد تمكنهم منه.

كما أن اللياقة وآداب الضيافة أيضاً ، والحرص على مصلحة المسلمين الذين عرفوا أننا نرتبط بهم برابطة الأخوة الصادقة ، لها اعتبارها عند الكلام للصحافة بمثل هذه الأمور.

ولو كان مثل هذا المؤتمر الصحفي في خارج البلاد الروسية ، وضمنا أن كل ما نقوله فيه سينشر ولو كان فيه ما لا يرضي الحكومة ، لكان له جواب على هذا السؤال غير هذا الجواب.

وبقية الأسئلة والأجوبة كانت معتادة ، وقد حضرها معهم بعض المصورين ، وانتهت لقاءاتنا بهم في الثانية عشرة - منتصف الليل -.

يوم السبت: ١٧/٨/ ١٤٠٦هـ ٢٦ /٤ / ١٩٨٦م.

مغادرة بلاد البشكيريين:

كما قلت بأن كلمة الباشقردز هي تسمية لقوم من الإخوة المسلمين صاروا يعرفون بالبشكير، أو البشكيريين، ولا يزال بعضهم يسمون أنفسهم (باشكير)، ولا يزال بعض المسلمين في الاتحاد السوفيتي ممن يجاورونهم، وإن لم يكونوا في النسب منهم، يسمونهم بهذا الاسم أيضاً.

تاريخ البشكيريين هؤلاء حافل بالأحداث الجسام، وكل الذي بلغنا عنهم من المهتمين بأمورهم يقولون: إنهم مثل البلغار والتتار، هم من العناصر التركية التي جاءت في الأصل من منطقة تركستان الشرقية، ولكن مجيء هذه الأقوام كان مختلفاً جداً في التاريخ، فالبلغار جاؤوا منذ القديم، حتى قال بعض الناس إنهم وصلوا إلى هذه البلاد في زمن البعثة المحمدية، ودخلوا في الدين الإسلامي في القرن الرابع الهجري بخلاف إخوانهم من المسلمين الداغستانيين الذين دخلوا في الإسلام منذ القرن الأول للهجرة، ومثلهم (الباشقرد)، وأما التتار فإنهم جاؤوا في القرن السادس الهجري مع أنه ينبغي لنا أن نتذكر بعد المسافة بين الشعبين في الموقع، وذلك من كون الطيران ما بين (غروزني) عاصمة (جمهورية الشيشان) التي تقع شمال داغستان وبين مدينة (أوفا) قد استغرق ساعتين وثلثاً بالطائرة النفاثة، وكانت المسافة بالكيلومترات ألفاً وثمانمائة وعشرين كيلومتراً.

كان موعد مغادرتنا لهذه البلاد مبكراً، وقد أسفت لذلك كثيراً، وكان أسفي لكوننا لم تتح لنا زيارة الأماكن الريفية النقية في هذه البلاد (البشكيرية)، ولم نلتق بأفراد الشعب الذي يسكن في القرى.

إلغاء زيارة قازان:

ولكن الأسف الأعظم الذي لحق بي هو إلغاء زيارة مدينة قازان عاصمة

(تتارستان)، وكان من المقرر أن نسافر إليها من أوفا، وأن نقيم فيها يوماً كاملاً هو هذا اليوم من فجره إلى فجر اليوم التالي الذي هو الأحد حيث نسافر إلى مدينة (لينين قراد).

ولكن منظمي البرنامج ألغوا زيارة (قازان)، وأخبرونا بذلك أمس، وعللوا عملهم هذا بأنه لا يوجد طيران مناسب إلى (قازان) في هذا اليوم الذي هو يوم السبت، ولو أنهم شاورونا لفضلنا أن نبقي يوماً آخر في انتظار زيارة قازان، أو لكانوا سمحوا لنا بزيارتها بعد زيارة موسكو التي هي نهاية المطاف، ونحن لدينا تذاكر جاهزة أحضرناها معنا تصلح للسفر من موسكو إلى قازان، مع أن مضيفينا في الإدارات الدينية قد دفعوا لنا قيمة التذاكر التي ركبنا بها داخل الاتحاد السوفيتي مثل سائر تنقلاتنا وإقامتنا هناك، والتعلل بعلة عدم وجود طيران مناسب من أوفا إلى (قازان) أمر لا ينطلي علينا نحن الذين نعرف دقة المسؤولين في الإدارة في الاتحاد السوفيتي، وهم قد نظموا البرنامج ووضعوه وأخبرونا به، واستمروا على ذلك إلى يوم أمس، وذلك كله يدل على أن الطيران موجود، وأن الإلغاء تم لأمر غير ذلك، ربما يكون ذلك الأمر هو مبلغ تأثر الإخوة المسلمين في هذه البلاد بلقاء إخوتهم أعضاء الوفد، وللنصائح التي أكثر من توجيهها للإخوة المسلمين حول مسؤوليتهم عن تربية أولادهم تربية إسلامية في البيوت، وفي كل مناسبة، لأنه لا يوجد تعليم ديني خارج المنزل للأولاد.

لذلك قرروا، أو لنقل أمروا أن يكون سفرنا من (أوفا) مباشرة إلى (لينين قراد) من دون المرور بمدينة (قازان) عاصمة (جمهورية تتارستان).

غادرنا فندق روسيا في (أوفا) في الثالثة والنصف قبل الفجر، ومعنا الإخوة المرافقون الذي لم يتح لهم النوم الكافي، وكنت أقل منهم نوماً إذ المؤتمر الصحفي قد انتهى في الثانية عشرة ليلاً، ولم يحضر منهم إلا المترجمون.

وكان الخروج إلى المطار في ظلام الليل، كما كان القدوم منه إلى المدينة في ظلام الليل، وجدنا قاعة كبار الزوار مغلقة، وبعد قليل جاءت عاملة والنوم يداعب جفنيها، بل إنه كان قد أثقل جفنيها؛ لأنها كانت نائمة قبل ذلك في مكتب مجاور.

وبعد قليل أذن للفجر، وصلينا في القاعة في أول الوقت لأن موعد الدخول إلى الطائرة كان قد أزف.

ومن الطريف أن أحد الإخوة أعضاء الوفد علق على قول المؤذن (الصلاة خير من النوم ❖ الصلاة خير من النوم) قائلاً: أتقصد بهذا هذه المرأة التي نامت عن عملها في ملاحظة القاعة وإلا فإنه ليس هناك مسلم يوجه إليه ذلك، لأن جميع المسلمين في هذه القاعة غير نائمين، بل هم مستعدون للصلاة، وجرى البحث في مسألة فقهية وهي ما إذا كان المسلمون الذين يسمعون الأذان كلهم غير نائمين فهل يشرع النداء بجملة: (الصلاة خير من النوم) أم لا يشرع إلا إذا كان هناك نائمون من المسلمين؟.

وداعاً يا أوفا:

تحركت الطائرة من المطار في السادسة إلا ربعاً، وكان الظلام لا يزال مخيماً ما عدا غرة وضاءة من الفجر قد جللتها غلائل سود من سحب داكنة، فصارت تبدو من الأفق تحت السحاب وكأنها ثغر الغانية الجميلة قد انحسر عنه النقاب.

وأعلنت المضيفة بالروسية وهي تبدو أوكرانية، أو مسلمة من هذه البلاد الشمالية، فهي بيضاء كالروسيات، ولكنها رشيقة كالأوكرانيات، فذكرت في إعلانها أن المسافة من أوفا إلى (لينين قراد) تبلغ ألفاً وثمانمائة وعشرين كيلومتراً تقطعها الطائرة في ساعتين ونصف.

وقد تطلعت من النافذة والطائرة تنهض وكأنما هي متثاقلة من المطار

كما تنهض هذه المضيفة إلى عملها متثاقلة متباطئة، وكأنما هي تتمطى أو تريد أن تتمطى من أجل الوقت المبكر، ومن أجل العمل الرتيب الذي لا ترى معه أنها بحاجة إلى أن تيتسم لأحد من الركاب، أو تبدي له مجاملة في المعاملة، ولكنها في الوقت نفسه لا تستطيع أن تتجاهله، فكأنما عملها هذا هو جزء من الحياة الرتيبة في الاتحاد السوفييتي التي يزيد من وقع رتابتها على النفس أن المرء لا يستطيع أن يعمل شيئاً لكسر تلك الرتابة والديمومة على نظام واحد، وفي بيت صغير واحد، ومن بلد واحد لا يستطيع أن يغادره فيسكن في بلد آخر في داخل وطنه إلا بأمر من السلطات، والموافقة منها، وهي لا توافق إلا بمبررات لا يستطيع لها إيجاداً.

لقد تطلعت إلى النافذة محاولاً إلقاء نظرة وداع لهذه المدينة الجميلة (أوفا)، ولكن بصري اصطدم بحاجز من ظلمة الليل وظلمة السحاب، فاضطررت إلى أن أغمض عيني وأنظر إليها في الخيال، فأودع ما رأيته فيها من جمال، وأن أعود إلى داخل الطائرة فأجدها حافلة بالركاب، وإن لم تكن مقاعدها مليئة بهم، كما كانت عليه الحال في الرحلات الداخلية في هذه البلاد التي ركبنا فيها قبل ذلك؛ إذْ كانت جميع مقاعد الطائرة فيها مشغولة.

ولاحظت هنا أن الركاب يكادون يكونون كلهم من الجنس الأبيض الأوروبي المألوف للنظر، حتى كأنما أنا مسافر بين باريس ولندن بصحبة أناس من أهل هاتين المدينتين، وبخاصة ما يتعلق من ذلك بشقرة الشعور، وبياض اللون.

والطائرة من طراز (توبوليف) ١٥٤ ، وكلها درجة واحدة هي السياحية، وليست فيها درجة أولى.

ورغم كون الوقت وقت إفطار والرحلة طويلة نسبياً إذْ تستغرق ساعتين ونصفاً، فإن ضيافة الطائرة قد اقتصرت على الضيافة المعهودة، ألا وهي

نصف كوب صغير من عصير الفاكهة، أو شراب الكوكاكولا كالعادة في عدم تقديم الطعام إلا في الرحلات الطويلة جداً في جميع الرحلات داخل الاتحاد السوفييتي.

والعادة الحميدة التي تكررت في رحلاتهم الداخلية، ومنها هذه الطائرة هي تحريم التدخين وتناول المسكرات، داخل الطائرة في طول الرحلة.

وهذه الطائرة أكبر من التي ركبنا بها من (غروزني) إلى (أوفا) تلك ركابها ٨٦ راكباً، وهذه تحمل (١٥٠) راكباً، وكلاهما نفاث، ومن صنع الاتحاد السوفييتي نفسه مثل سائر ما يحتاجونه ويستعملونه في هذه البلاد هو من صنع بلادهم، بل إن مصانع الطائرات المدنية منتشرة في عدة مدن، ومنها طشقند عاصمة جمهورية أزبكستان، وهذا أمر حميد، حبذا لو سارت على طريق الأخذ به الدول الإسلامية، أو لو اتفقت فيما بينها للتكامل في الأمور الحساسة، كصناعة الأسلحة، والأغذية الضرورية، حتى لا يتحكم بهم أعداؤهم في هذه الأشياء الحساسة أو الضرورية، ويتحكمون بهم فيمنعوهم عنها إذا أرادوا، وبخاصة إذا صارت مصلحة أعدائهم في منعهم منها.

وكما قلت سابقاً إن معظم رحلات الطائرات داخل الاتحاد السوفييتي تكون مزدحمة نظراً لرخص أسعارها، ولكون السياحة الداخلية هي السياحة المتاحة أمام أفراد الشعب هناك، بخلاف تغيير محل الإقامة من مدينة إلى مدينة، أو من جمهورية إلى جمهورية، فذلك لا يتم إلا بموافقة من الحكومة.

وقد تكرر عند الإقلاع ما شعرت به من قبل، وهو وجع في الأذنين لم أكن أشعر به في الطائرات العالمية، ومنها السعودية، على كثرة سفري بالطائرات إلى أنحاء العالم، ورائحة خبيثة انبعثت من الحمامات، وظننتها في أول الأمر بسبب عدم نظافتها، واليوم عرفت أن تلك الرائحة هي رائحة مطهر للحمامات يقتل الجراثيم فيها، ولكنه ليس كالمطهر الذي يستعمل في

البلدان العربية، أو التي تسير على الاقتصاد الحر، ويضيفون إليه ما يحسن رائحته، أو على الأقل ما يبعد الرائحة المكروهة عنه.

وعندما ارتفعت الطائرة في السماء بدا المنظر جهة الشرق رائعاً مؤلفاً من ألوان متعددة، أسفلها منظر الأرض وهو أسود حالك، فوقه منظر السحب أشهب كأنما هو الشيب فوق رؤوس المسلمين التي أشابتها الأيام والليالي كما أشابتها الأهوال.

ووراء ذلك منظر الأفق نحاسياً، ما لبث السحاب الأشهب أن جلله برماده، ولم تكن هناك فرصة لرؤية أي شيء من الأرض؛ بل كان وجه الأرض مظلماً، بل متجهماً في إظلامه.

وكررت النظر من النافذة مرة بعد أخرى رجاء أن يجلي الضياء صدأ الظلام، فأبصر من وجه الأرض ما يدفع عني السآم، إلا أن انتظاري لذلك طال، والفجر لا يزال على حاله، والظلام على الأرض لم يبدأ في اضمحلاله.

فذكرت قول امرئ القيس:

وليل كموج البحر أرخى سدوله	عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه	وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل، ألا انجلي	بصبح وما الإصباح منك بأمثل

وذكرت قول القتال الكلابي وقد حبس في المدينة المنورة، وهو من أهل ضرية في أعلى القصيم:

ما بال صبحك لا يكاد ينير	أبداً، وليلك بالستار قصير

والستار: حبل قرب ضرية في أعلى منطقة القصيم من نجد.

ثم قلت: مالي ولامرئ القيس، والقتال الكلابي، والكلكل، والليل في هذه البلاد الروسية القصية المادية التي لا تعرف إلا الليل الطويل في

الشتاء، والنهار الطويل في الصيف.

وعرفت السر في طول الغبش، وتأخر إشراق الشمس، وهو أن الطائرة كانت متجهة جهة الغرب مع ميل إلى الشمال، لأن الشمس تغرب في جهة الشمال الغربي المعتاد في فصل الصيف في هذه البلاد، لذلك صرنا كمن يماشي الشمس.

وأردت أن أسند رأسي عسى أن أستطيع النعاس للتعويض عما فاتني من النوم البارحة، ولكنني لم أجد في الطائرة شيئاً مما يوجد فيها في العادة يساعد على جلب النعاس مثل الوسائد التي يسند إليها النائم رأسه أو مرفقه، أو الأغطية التي يستدفئ بها.

وقد دخلت الطائرة في لجة من السحاب، واستمرت داخل هذه اللجة مدة طويلة حتى قربنا من (لينين قراد) حيث انجلى السحاب، فانكشف لنا منظر الأرض عن حقول زراعية، وبحيرات كثيرة، ومناقع للمياه أصغر من البحيرات، وربما كان لوجود هذه المناقع علاقة بموجة الدفء التي لاقتنا بها البلاد الروسية، وكان أولها في (أوفا)، وموجة الدفء في البلدان الباردة تذيب الثلوج، فتكثر المناقع، ويتسع حجم البحيرات.

وتجلى أيضاً في الأرض تحت الطائرة منظر الغابات التي لم يكن يبعدها عن النظر إلا الحقول الزراعية التي يبدو أن الغابات قد قطعت من أجلها.

بلاد الروس

نبذة عن روسيا الاتحادية :

تقع روسيا الاتحادية فوق مساحات كبيرة في آسيا وأوربا، حدودها ممتدة من البحر الأسود حتى المحيط الهادئ، ومن أواسط آسيا حتى المحيط المتجمد الشمالي. تبلغ مساحتها نحو ١٧ مليون كم٢، عدد سكانها يقارب "١٥٠" مليون نسمة، ٦٥ ٪ منهم روس، والبقية من الأقليات المختلفة، وغالبهم تتار ومسلمون وأوكرانيون.

تضم روسيا الاتحادية ٢١جمهورية، ونحو ٨٥ وحدة إدارية ما بين إقليم ومحافظة.

الإسلام والمسلمون داخل روسيا الاتحادية :

المقدمة:

يوجد في روسيا الاتحادية قرابة تسع جمهوريات إسلامية ذات حكم ذاتي يقطنها نحو (٢٠) مليون مسلم، إضافة إلى (٣٠٠٠) مسجد، و (١٠٠) مدرسة، وفي الحقيقة أن الحديث عن واقع المسلمين في داخل روسيا حديث مرّ وذو شجون لما تعانيه هذه الجمهوريات من مشكلات اقتصادية وسياسية واجتماعية وإعلامية وغيرها، فبعد تفكك ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتي السابق - الذي جلب الويلات على المسلمين، وقتلهم وشتتهم أفراداً وجماعات - جاءت روسيا بعد هذا التفكك لتكون هي الوصية على تركة الاتحاد السوفيتي، فسياستها - بالنسبة للمسلمين - لا تعدو كونها جزءاً من سياسة زعماء الكرملين الذين تربعوا على عرش الشيوعية سبعة عقود من الزمن، فتلك السياسة أثبتت مصداقيتها في الحرب الإبادية التي شنتها روسيا على جمهورية الشيشان المسلمة، وقتلت منهم عشرات الآلاف، وشردت مئات الآلاف، لا لشيء إلا لخوفهم من أن يعود ذلك "المارد الإسلامي" من جديد في قلب دولتهم ليؤرق مضاجعهم ويهدد مصالحهم. ولو نظرنا نظرة واقعية لهذه

السياسة من ناحية أخرى لوجدناها سياسة ذات معايير خاصة، منفصلة على حسب القوميات والأديان، فكل قومية أو دين – إذا صح التعبير - له سياسة خاصة من قبل الحكومة الروسية الحالية، فالمسيحيون مثلاً تطبق عليهم سياسة الإسوارة الذهبية، ويحاطون بعطف زائد، ودعم مادي ومعنوي كبيرين من قبل الدولة والهيئات والمؤسسات الرسمية والخاصة. أما المسلمون فيطبق عليهم سياسة الإسوارة الحديدية مع منحهم قدراً من الحرية الدينية – التي لا تتعارض مع مصالح الدولة - كبناء المدارس وترميمها، وإصلاح وتنظيم المدارس والمعاهد الإسلامية فقط، فالإسلام في نظر الدولة الروسية والروس أنفسهم هو مجرد تعاليم بدائية، وعقيدة متخلفة، وأفكار إرهابية ..

مع أنه يوجد في هؤلاء الروس من ينكر تفكيراً سليماً، ويحلل التعاليم الإسلامية تحليلاً دقيقاً قائماً على التجرد والنظرة الاستقلالية الموضعية، فلقد كتب مستشار الدولة في شؤون العدل الروسية نيقولاي فيودروف في صحيفة " NEZAVISMAYA GAZETA " وتعني بالعربية الجريدة المستقلة – في عدد ٥٨ تاريخ ١٩٩٣/٣/٣٠م مقالة ذكر فيها دور الإسلام الثقافي في حياة روسيا الاتحادية فقال:

" إذا أريد لروسيا أن تكون، فيجب عليها أن تأخذ بعين الاعتبار النظر إلى العنصر الإسلامي باعتباره أحد أهم عناصر الحضارة وشريان الحياة للملايين من أبناء روسيا، وشرطاً من شروط استقرارهم النفسي، ومحوراً لعالمهم الداخلي، ومعياراً لأخلاقياتهم وحقوقهم، ومن البديهي لكل من يسعى إلى السلم والازدهار في روسيا الاتحادية النظر إلى ذلك الواقع التاريخي، والذي جوهره أن الإسلام ليس شيئاً فرض على روسيا من الخارج، وليس شيئاً دخيلاً عليها، بل هو جزء من واقعها. إنه الجزء الذي أوجده ويعيشه في كل دقيقة الملايين من أبناء روسيا وفتياتها. فمعاداة الإسلام أو الوقوف ضده في روسيا معناه الوقوف ضد شعوب البلد نفسه ". انتهى.

هذه هي نظرة بعض المفكرين المستقلين عن سياسة الدولة، والمقال نفسه غنيّ عن التعليق..

الجمهوريات الإسلامية داخل روسيا الاتحادية

١-جمهورية الشيشان.

٢-جمهورية الأنجوش.

٣- جمهورية داغستان .

٤- جمهورية قابردين بلقاريا.

٥- جمهورية قرتشاي شركس.

٦- جمهورية أديغي.

٧- جمهورية تتارستان.

٧-جمهورية بشقردستان.

وأكثر هذه الجمهوريات زرتها، وكتبت عنها كتباً، بعضها مطبوع، لذلك لن نذكر هنا إلا جمهورية واحدة هي جمهورية الشيشان والأنقوش لأن لها وضعاً خاصاً في جمهورية روسيا الاتحادية، ولم أفردها بكتاب مثل غيرها.

جمهورية الشيشان والأنجوش :

الموقع والمساحة:

تقع هاتان الجمهوريتان في شمال القوقاز على السفوح الشمالية لسلسة جبال القوقاز الكبرى، والوديان المحاذية لها. ويحدهما من الشمال إقليم ستافروبول الروسي، ومن الجنوب جمهورية جورجيا، أما من الجهات الأخرى فتحيط بهما أراضي قبر دينا بلقاريا، وآسيتيا الشمالية، وداغستان.

تبلغ مساحة جمهورية الشيشان ١٩ ألف كلم[٢]، وعدد سكانها قرابة

مليوني نسمة كلهم من المسلمين السنة، وعاصمتها مدينة غروزني، أما جمهورية الأنغوش فمساحتها نحو ٣ آلاف كلم٢ ، وعدد سكانها في حدود ٣٠٠ ألف نسمة، منهم عدد من الروس والشيشان، وعاصمتها مدينة نزران.

لمحة تاريخية:

الإسلام في بلاد الشيشان، الحكم القيصري، الحكم الشيوعي.

يمثل الشيشان والأنجوش الشعبين الرئيسين في هذه المنطقة التي يقطنها أبناء قوميات كثيرة بتنوع لا نظير له في العالم. وهما متقاربان في المنشأ واللغة والثقافة والعادات، وكانا على مدى القرون يدافعان عن نمط حياتهما في صراع متواصل ضد الأعداء الخارجيين وفي حروب داخلية. وفي القرن السادس عشر بدأ المد الإسلامي في بلاد الشيشان، وأصبح هو الدين السائد في القرن التاسع عشر، مع أن الحكم الإسلامي في منطقة القوقاز كان قد استمر مئات السنين عرفت خلاله البلاد الأمن والاستقرار والازدهار.

واعتباراً من القرن الثامن عشر اقتربت روسيا القيصرية من شمال القوقاز مباشرة، وشقت طريقها إلى ما وراء القوقاز نحو حليفتيها جورجيا وأرمينيا، وبسطت حمايتها عليهما. واستخدمت السلطات الروسية وسائل السلم والحرب من أجل السيطرة على المنطقة.

وفي مطلع القرن التاسع عشر تقبل الأنغوش التبعية لروسيا، لكن الشيشان أبدوا مقاومة ضارية، وقام الشعب الشيشاني وأبناء الشعوب المجاورة لهم مراراً، وبقيادة الزعماء الدينين مثل الشيخ منصور، والشيخ غازي محمد، والإمام شامل بثورات قوية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وأعلنوا الجهاد المقدس الذي تواصل على مدى سنوات عديدة رغم استخدام القوات العسكرية الروسية ضد الثوار. وفي عام ١٨٥٩ انتهت أكبر حركة ثورية جهادية بقيادة الإمام شامل، وضمت بلاد الشيشان نهائياً إلى الإمبراطورية الروسية، وألحقت بها كمحافظة.

وفي العشرينات من القرن الحالي، وبعد أن قامت السلطة السوفياتية في شمال القوقاز منحت السلطات البلشفية الشيشان والأنجوش حق تكوين مقاطعة ذات حكم ذاتي ضمن أطر روسيا الاتحادية السوفيتية الاشتراكية.

وقد احتلت القوات الألمانية جزءاً من الجمهورية في سنوات الحرب العالمية الثانية، وفي عام ١٩٤٤ حين استعاد الجيش الأحمر هذه الأراضي وجه الاتهام إلى كلا الشعبين بالخيانة والتعامل مع الغزاة الفاشيين، وقام نظام ستالين بتهجيرهما من مواطنهما، وإبعادهما إلى آلاف الكيلو مترات كآسيا الوسطى، ومناطق سيبيريا. وهكذا بقي أبناء الشعبين على مدى ١٣ عاماً في وضع المنفيين السياسيين، وحرموا في الواقع من جميع حقوقهم المدنية. وفي عام ١٩٥٧م. اعتبر الإبعاد عملاً غير قانوني، وأعيد تكوين الجمهورية ذات الحكم الذاتي لكن ليس في جميع أراضيها؛ إذ ضمت نسبة ٥٠ ٪ تقريباً من الأراضي الأنجوشية التابعة لجمهورية الأنجوش إلى آسيتيا الشمالية المجاورة، واستوطنها الأهالي المحليون، وفي الوقت ذاته سلمت إلى الجمهورية ثلاث مناطق تابعة لروسيا كانت تعيش فيها نسبة كبيرة من أهالي القوقاز. وبعده أخذت غالبية الشيشان والأنجوش بالعودة إلى مواطنهم، ولكن قسماً منهم (بضع عشرات الآلاف) بقوا في آسيا الوسطى، وتوجد جاليات كبيرة من الشيشان والأنجوش في مختلف مدن روسيا الاتحادية.

وفي مطلع بداية التسعينات كان الشيشان والأنجوش يشكلون نسبة ٧٤ ٪ من مجموع سكان منطقة الشيشان والأنقوش، أما النسبة الباقية فتتألف من الروس وأبناء الشعوب الداغستان، والتتار، والأرمن، والأكرانيين وغيرهم.

فترة البيرسترويكا، العلاقة مع موسكو، المشكلات القومية:

كلمة البيريسترويكا كلمة روسية تعني إعادة البناء.

لقد دفعت البيريسترويكا وما تبعها من أحداث إلى إثارة الوعي القومي

لدى الشيشان والأنجوش، وفتحت المجال لظهور قوى وحركات جديدة على مسرح الأحداث، وحدث في الوقت نفسه انفجار مشاعر الإساءة والمرارة في نفوس الناس التي كانت السلطات تخمدها سابقاً، وتقوم بقمعهم بشتى الوسائل غير القانونية، ونتيجة لذلك تكبد الشعب الكثير من الضحايا، وشوهت ثقافته ولغته...

لهذا فإن جميع مشكلات جمهورية الشيشان وشعبها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية تركزت في بؤرة واحدة هي البؤرة القومية.

وفي نهاية الثمانينات حاولت القيادة الحزبية الإدارية للجمهورية في سعيها للاحتفاظ بالسلطة ركوب هذه النزعة ورفع شعاراتها.

وفي نوفمبر ١٩٩٠م عقد مؤتمر أصدر فيه مجلس السوفييت الأعلى لجمهورية الشيشان والأنجوش بيان استقلال جمهوريتهم. وينص البيان على أن بوسع جمهوريتهم – يذكر بأن الجمهوريتين كانتا جمهورية واحدة ثم انفصلت أنغوشيا عن الشيشان في عام ١٩٩٢ – بصفتها دولة مستقلة أن تقيم علاقات تعاقدية مع الدول الأخرى أو اتحادات الدول. وقد تولى الجنرال جوهر دودايف (الشيشاني) رئاسة اللجنة التنفيذية للمؤتمر المذكور.

والجدير بالذكر بأن جوهر دودايف ولد في عام ١٩٤٤م، وأمضى طفولته في المنفى، ومهنته طيار حربي، وفي الفترة ما قبل انهيار الاتحاد السوفيتي تولى قيادة وحدة الطيران الإستراتيجي.

ولقد خاض المؤتمر العام للشيشان برئاسة دودايف منذ عام ١٩٩٠م النضال من أجل إبعاد دوائر الحكم القديمة عن السلطة متهماً إياها بالفساد، وبعرقلة الإصلاحات الجذرية التي تخدم مصالح الشعب الشيشاني.

ولقد حظي نهج الجنرال دودايف – بداية الأمر – بعطف وتأيد كبيرين من الرئيس الروسي بوريس يلتسين وحاشيته لأنهم كانوا آنذاك يناضلون ضد

احتكار الهيئات الاتحادية والحزبية الموالية للرئيس غورباتشوف.

وبنتيجة الأعمال الحاسمة التي قام بها المؤتمر، وتأسيس حرسه قدم مجلس السوفييت الأعلى لجمهورية الشيشان والأنجوش استقالته في خريف ١٩٩١م. وفي ٢٧ نوفمبر ١٩٩١ تم انتخاب دودايف رئيساً لجمهورية الشيشان باعتبارها دولة ذات سيادة خارج قوام الاتحاد السوفييتي وروسيا الاتحادية، لكن تأزمت العلاقات بين موسكو وغروزني بعد خطوة دواديف تلك وما أعقبها من أفعال مثل المصادقة على الجنسية الشيشانية، والنية في تشكيل جيش وحرس شيشانيين، وإصدار عملة نقدية وغير ذلك..واتخذ الرئيس دودايف موقفاً متشدداً من السلطات الروسية، واتهمها بفرض حصار اقتصادي ومالي وغيره على جمهوريته. وبعدها أخذ دودايف يلوح بالجهاد ضد روسيا إذا ما لجأت هذه الأخيرة إلى شن أعمال عسكرية ضد بلده، وتنفيذاً لأمر دودايف حصل جميع مواطني الشيشان على حق اقتناء وحمل السلاح دفاعاً عن الوطن. الأمر الذي أدى إلى توتر العلاقة نهائياً بين الجمهوريتين نتيجة للمواقف العديدة التي اتخذها دودايف – من خريف ١٩٩١ حتى خريف ١٩٩٤- ضد روسيا.الشيء الذي دفع الجيش الروسي إلى شن حرب بلا هوادة ضد شعب الشيشان وقائده في ديسمبر ١٩٩٤، وذلك بهدف انصياع جمهورية الشيشان وقائدها لأوامر روسيا باعتبارها – أي الشيشان- جزءاً لا يتجزأ من روسيا الاتحادية. واستمرت الحرب حتى نهاية صيف ١٩٩٦ تكبد خلالها الجيش الروسي عشرات الآلاف من القتلى والجرحى بعد المقاومة العنيفة التي أبداها أبناء الشيشان في الدفاع عن وطنهم، والتي أذهلت العالم بأسره، واضطر الروس إلى الانسحاب من الشيشان دون قيد أو شرط.

النشيد الوطني الشيشاني:

نعتقد أنه لا بد أن نشير هنا إلى هذا النشيد والذي من خلاله ترى اعتزاز الشعب الشيشاني بدينه ووطنيته، ويطلق الشيشانيون على وحدة قواتهم

العسكرية اسم قطيع الذئاب، هذا القطيع الذي وقف أمام الغطرسة الشيوعية عشرات السنين، وهو الذي تمكن من دحر القوات الروسية، وحماية الوطن من الزحف الروسي في الوقت الحالي.

النشيد يقول:

في ليلة الذئب خرجنا إلى الدنيا

وعند زئير الأسد في الصباح سمونا بأسمائنا

وفي أعشاش النسور أرضعتنا أمهاتنا

ومنذ طفولتنا علمنا آباؤنا فنون الفروسية

لا إله إلا الله محمد رسول الله

لهذه الأمة (الإسلامية) ولهذا الوطن ولدتنا أمهاتنا

وقفنا دائماً شجعاناً نلبي نداء الأمة والوطن.

لا إله إلا الله محمد رسول الله

جبالنا المكسوة بحجر الصوان

عندما يدوي في أرجائها رصاص الحرب

نقف بكرامة وشوق على مرّ السنين

نتحدى الأعداء مهما كانت الصعاب

وبلادنا عندما تتفجر بالبارود

من المحال أن تدفن فيها إلا بشرف وكرامة

لا إله إلا الله محمد رسول الله

لن نستكين أو نخضع لأحد إلا الله

فإنها إحدى الحسنين نفوز بها

الشهادة أو النصر

لا إله إلا الله محمد رسول الله

جراحنا تضمدها أمهاتنا وأخواتنا بذكر الله

ونظرات الفخر في عيونهن تثير فينا القوة والتحدي

لا إله إلا الله محمد رسول الله

إذا حاولوا تجويعنا سنأكل جذور الشجر

وإذا منع الماء عنا سنشرب ندى النبات

فنحن في ليلة مولد الذئب خرجنا إلى الدنيا

ونحن دائماً سنبقى مطيعين لله ثم للوطن

ولهذه الأمة (الإسلامية)

لا إله إلا الله محمد رسول الله

الثروات الطبيعية، الثقافية، الوضع الاجتماعي:

- تتمتع الشيشان والأنجوش بصناعة وزراعة لا بأس بهما. ويشكل أساس الصناعة مجمع النفط والغاز، والذي يعتبر ثروة البلاد الرئيسية، وتتركز حقول النفط حول العاصمة غروزني، يذكر بأن معظم أنابيب حقول النفط أو الحقول ذاتها تضررت ضرراً كبيراً أثناء الهجمة الشرسة التي شنها الروس في حربهم ضد الشيشان.

- أما من الناحية الثقافية فنستطيع القول بأن وضع – الشيشان خاصة – وضع سيئ جداً، وذلك نتيجة الحرب التي كان من نتائجها تدمير الكثير من المدارس والمعاهد والجامعات، فمثلاً يذكر أنه كان – قبل الحرب –

يرتاد المدارس أكثر من (٣٢٠) ألف طالب وطالبة، وأكثر من (٣٠) ألف تلميذ كانوا يدرسون في المعاهد الفنية والمتوسطة والمعاهد العالية، ولكن للأسف الشديد معظمها — ٨٠ ٪ تقريباً — دمر تدميراً كاملاً، وحرم الآلاف من الدراسة.

- الوضع الاجتماعي: مأساوي أكثر من الوضع الثقافي، فجميع المؤسسات الاجتماعية بما فيها الخدمات الطبية تعمل بشكل متردٍ جداً، ولا تكاد تفي بالحاجة المطلوبة، إضافة إلى وضع المهجرين الذين فروا من ديارهم أثناء الحرب، ويعدّون بالآلاف عادوا ليجدوا منازلهم مدمرة تماماً، وأراضيهم محروقة، وممتلكاتهم منهوبة، فلم يجدوا لهم سوى السماء غطاء والأرض فراشاً..

التحديات التي تواجها هذه الجمهوريات اليوم:

هناك تحديات عديدة تواجهها الجمهوريات الإسلامية داخل روسيا الاتحادية، منها السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية والإعلامية.. ومن أهم هذه التحديات:

- محاولة محو الهوية الإسلامية عن طريق الهجمة الثقافية والانفتاح الاقتصادي.

- ظهور عامل القومية بدل العامل الإسلامي.

- سعي روسيا إلى تقسيم تلك الجمهوريات إلى دويلات متناحرة، وزرع أسباب التفرقة، وجعل المنطقة في نزاع مستمر حتى لا تستقر المنطقة أمنياً الشيء الذي يساعد بدوره على زعزعة استقرار تلك المناطق اجتماعياً واقتصادياً.

- تغذية النزاعات العرقية بين المسلمين.

- محاولة روسيا تهشيم البنى الاقتصادية والتعليمية لكي تبقى هذه الجمهوريات تحت تبعيتها.

- سعي روسيا إلى إنشاء بعض المراكز الكيماوية والنووية (للتصنيع) في تلك المناطق بغرض إفسادها بيئياً.
- النزاع على مشكلات الحدود.
- التعصب القبلي، وذلك يتجلى من خلال الانغلاق الاجتماعي بين تلك الجمهوريات.
- تشجيع الحملات التنصيرية ودعمها مادياً ومعنوياً لتنصير أهل تلك البلاد.
- محاولة التغلغل اليهودي عن طريق الميدان الاقتصادي، وتأسيس بعض البنوك وتشجيع الاستثمار.
- نشر الفساد الأخلاقي من خلال الحملات الإعلامية اليهودية.

انتشار ظواهر الفقر والجوع وبعض الأمراض يسبب تدهور الحالتين الاجتماعية والاقتصادية.

الحلول:

نحاول من خلال نظرتنا البسيطة ومعايشتنا للواقع هنا أن نضع بعض الحلول التي نراها تساعد على الوقوف أمام تلك التحديات الكبيرة:

- محاولة نشر مبادئ الإسلام الأساسية والسليمة بين أبناء تلك الجمهوريات.

- دعم البنية الاقتصادية لتلك الجمهوريات وخاصة البنية التعليمية.

- محاولة توعية الشعب المسلم بالأطماع الأجنبية، وخاصة إذا ما علمنا أن هذه الجمهوريات تحتوي أراضيها على ثروات طبيعية غنية جداً.

- محاولة ربط تلك الجمهوريات على أسس إسلامية سليمة بعيدة عن القومية والقبلية.

- الحث على إرسال بعض الشباب للدول الإسلامية من أجل التعلم والتنوير والتثقيف لتلقي العلوم بأنواعها المختلفة لتكوين العنصر المؤهل الذي يستطيع الوقوف أمام تلك التحديات.

- العمل على توحيد جهد المنظمات والمؤسسات الإسلامية العاملة في تلك الجمهوريات والتنسيق فيما بينها.

- تشجيع الاستثمار الإسلامي في تلك المناطق.

- تشجيع تأسيس جامعات ومعاهد ومدارس عربية بجميع علومها الشرعية والطبيعية.

- القيام بالتوعية الصحية والدعم الصحي بإقامة مراكز طبية وتسيير قوافل صحية.

- مواجهة تغلغل المؤسسات الصليبية في تلك الجمهوريات.

- القيام بحملة توعية شاملة للوقوف ضد ما يقوم به اليهود من نشاطات

وخاصة الاقتصادية منها.

بلاد الروس:

نحب أن نعرض على القارئ الكريم ما نقله ياقوت الرومي في معجم البلدان عن الكاتب ابن فضلان الذي زار بلاد البلغار على نهر (الفولقا)، ورأى جماعة من الروس قبل أن يعتنقوا المسيحية، وإنما كانوا وثنيين آنذاك في آخر القرن الرابع الهجري.

ولولا أن كتابنا هذا كتاب رحلة ومشاهدات لنقلت لك - أيها القارئ الكريم- الكثير مما ذكره علماؤنا الأوائل عن الروس الصقالبة الذين هم (السلاف) في الوقت الحاضر.

وإنما نقلت هنا هذه النبذة من باب المقارنة بين ماضي الروس وحاضرهم وقد حذفت جملة أو جملتين من كلامه لأن إثباتهما غير لائق. مع التنبيه على أن المعلومات المذكورة فيه هي منقولة عن غير أهل البلاد، وفي وقت كان التعويل على التهويل لدى المؤلفين أمراً شائعاً.

قال ياقوت:

" روس: بضم أوله، وسكون ثانية، وسين مهملة، ويقال لهم: رُسّ، بغير واو: أمة من الأمم، بلادهم متاخمة للصقالبة[1] والترك، ولهم لغة برأسها، ودين وشريعة لا يشاركهم فيها أحد، قال المقدسي: هم في جزيرة وبئة، يحيط بها بحيرة، وهي حصن لهم ممن أرادهم، وجملتهم على التقدير مائة ألف إنسان، وليس لهم زرع ولا ضرع، والصقالبة يُغيرون عليهم ويأخذون أموالهم، وإذا ولد لأحدهم مولود ألقى إليه سيفاً وقال له: ليس لك إلا ما تكسبه بسيفك، وإذا حكم ملكهم بين خصمين بشيء ولم يرضيا به قال لهما:

(١) الصقالبة: السلافيون.

تحاكما بسيفيكما، فأي السيفين كان أحدّ كانت الغلبة له، وهم الذين استولوا على برذعة سنة، فانتهكوها حتى ردها الله منهم وأبادهم؛ وقرأت في رسالة أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حمّاد مولى محمد بن سليمان رسول المقتدر إلى ملك الصقالبة حكى فيها ما عاينه منذ انفصل من بغداد إلى أن عاد إليها، فحكيت ما ذكره على وجهه استعجاباً به، قال: ورأيت الروسية وقد وافوا بتجاراتهم فنزلوا على نهر إتل[1]، فلم أر أتم أبداناً منهم، كأنهم النخل، شقر حمر، لا يلبسون القراطق ولا الخفاتين، ولكن يلبس الرجل منهم كساء يشتمل به على أحد شقيه، ويخرج إحدى يديه منه، ومع كل واحد منهم سيف وسكين وفأس لا تفارقه، وسيوفهم صفائح مشطبة إفرنجية، ومن حدّ ظفر الواحد منهم إلى عنقه محضر شجر وصور وغير ذلك، وكل امرأة منهم على ثديها حقة مشدودة إما من حديد وإما من نحاس وإما من فضة وإما من ذهب، على قدر مال زوجها ومقداره، في كل حقة حلقة فيها سكين مشدودة على الثدي أيضاً، وفي أعناقهن أطواق ذهب وفضة؛ لأن الرجل إذا ملك عشرة آلاف درهم صاغ لامرأته طوقاً، وإن ملك عشرين ألفاً صاغ لها طوقين، وكلما زاد عشرة آلاف درهم يزيد لها طوقاً آخر، فربما كان في عنق الواحدة منهن أطواق كثيرة، وأجل الحلي عندهم الخرز من الخزف الذي يكون على السفن، يبالغون فيه ويشترون الخرزة منه بدرهم، وينظمونه عقداً لنسائهم.

وهم أقذر خلق الله لا يستنجون من غائط ولا يغتسلون من جنابة كأنهم الحمير الضالة، يجيئون من بلدهم فيرسون سفنهم بإتل، وهو نهر كبير، ويبنون على شاطئه بيوتاً كباراً من الخشب، ويجتمع في البيت الواحد العشرة والعشرون والأقل والأكثر، ولكل واحد منهم سرير يجلس عليه ومعه جواريه الروقة للتجارة ... ولا بد لهم في كل يوم بالغداة أن تأتي الجارية ومعها قصعة

---

(١) هو: نهر الفولقا.

كبيرة فيها ماء فتقدمها إلى مولاها، فيغسل فيها وجهه ويديه وشعر رأسه فيغسله ويسرحه بالمشط في القصعة، ثم يمتخط ويبصق فيها، ولا يدع شيئاً من القذر إلا فعله في ذلك الماء، فإذا فرغ مما يحتاج إليه حملت القصعة إلى الذي يليه، فيفعل مثل ما فعل صاحبه، ولا تزال ترفعها من واحد إلى واحد حتى تديرها على جميع من في البيت، وكل واحد منهم يتمخط ويبصق فيها ويغسل وجهه وشعره فيها.

وساعة موافاة سفنهم إلى هذا المرسى يخرج كل واحد منهم ومعه خبز ولحم ولبن وبصل ونبيذ حتى يوافي خشبة طويلة منصوبة لها وجه يشبه وجه الإنسان، وحولها صور صغار، وخلف تلك الصور خشب طوال قد نصبت في الأرض، فيوافي إلى الصورة الكبيرة ويسجد ثم يقول: يا رب قد جئت من بعد ومعي من الجواري كذا وكذا رأساً، ومن السمور كذا وكذا جلداً، حتى يذكر جميع ما قدم معه من تجارته، ثم يقول: وقد جئت بهذه الهدية، ثم يترك ما معه بين يدي الخشبة ويقول: أريد أن ترزقني تاجراً معه دنانير ودراهم، فيشتري مني كل ما أريد لا يخالفني في جميع ما أقول، ثم ينصرف، فإن تعسر عليه، وطالت أيامه، عاد بهدية أخرى ثانية وثالثة، فإن تعذر عليه ما يريد حمل إلى صورة من تلك الصور الصغار هدية وسألها الشفاعة، وقال: هؤلاء نساء ربنا وبناته، ولا يزال إلى صورة صورة، ويسألها ويستشفع بها، ويتضرع بين يديها، فربما تسهّل له البيع فباع، فيقول: قد قضى ربي حاجتي وأحتاج أن أكافئه، فيعمد إلى عدة من البقر والغنم على ذلك، ويقتلها ويتصدق ببعض اللحم، ويحمل الباقي فيطرحه بين يدي تلك الخشبة الكبيرة والصغار التي حولها، ويعلق رؤوس البقر والغنم على ذلك الخشب المنصوب في الأرض، فإذا كان الليل وافت الكلاب فأكلت ذلك، فيقول الذي فعله: قد رضي عني ربي وأكل هديتي.

وإذا مرض منهم الواحد ضربوا له خيمة ناحية عنهم، وطرحوه فيها

وجعلوا معه شيئاً من الخبز والماء، ولا يقربونه ولا يكلمونه بل لا يتعاهدونه في كل أيامه لا سيما إن كان ضعيفاً أو كان مملوكاً، فإن برأ وقام رجع إليهم، وإن مات أحرقوه وإن كان مملوكاً تركوه على حاله تأكله الكلاب وجوارح الطير.

وإذا أصابوا سارقاً أو لصاً جاؤوا به إلى شجرة طويلة غليظة، وشدوا في عنقه حبلاً وثيقاً وعلقوه فيها، ويبقى معلقاً حتى يتقطع من المكث إما بالرياح أو بالأمطار.

وكان يقال لي: إنهم كانوا يفعلون برؤسائهم عند الموت أموراً أقلها الحرق، فكنت أحب أن أقف على ذلك حتى بلغني موت رجل منهم جليل، فجعلوه في قبره وسقفوا عليه عشرة أيام حتى فرغوا من قطع ثيابه وخياطتها، وذلك أن الرجل الفقير منهم يعملون له سفينة صغيرة، ويجعلونه فيها ويحرقونها، والغني يجمعون ماله ويجعلونه ثلاثة أثلاث: فثلث لأهله، وثلث يقطعون به ثياباً، وثلث يشترون به نبيذاً يشربونه يوم تقتل جاريته نفسها وتحرق مع مولاها.

وهم مستهترون بالخمر، يشربونها ليلاً ونهاراً، وربما مات الواحد منهم والقدح في يده، وإذا مات الرئيس منهم قال أهله لجواريه وغلمانه: من منكم يموت معه؟ فيقول بعضهم: أنا، فإذا قال ذلك فقد وجب عليه، لا يستوي له أن يرجع أبداً، ولو أراد ذلك ما ترك، وأكثر ما يفعل هذا الجواري.

فلما مات ذلك الرجل الذي قدمت ذكره قالوا لجواريه: من يموت معه؟ فقالت إحداهن: أنا، فوكلوا بها جاريتين تحفظانها وتكونان معها حيث ما سلكت، حتى إنها ربما غسلتا رجليها بأيديهما، وأخذوا في شأنه وقطع الثياب له، وإصلاح ما يحتاج إليه، والجارية في كل يوم تشرب وتغني فارحة مستبشرة، فلما كان اليوم الذي يحرق فيه هو والجارية، حضرت إلى النهر الذي فيه سفينته، فإذا هي قد أخرجت وجعل لها أربعة أركان من خشب

الخلنج وغيره، وجعل حولها أيضاً مثل الأناس الكبار من الخشب، ثم مدت حتى جعلت على ذلك الخشب، وأقبلوا يذهبون ويجيئون ويتكلمون بكلام لا أفهمه، وهو بعد في قبره لم يخرجوه، ثم جاؤوا بسرير فجعلوه على السفينة وغشوه بالمضربات الديباج الرومي، والمساند الديباج الرومي، ثم جاءت امرأة عجوز يقولون لها ملك الموت، ففرشت على السرير الذي ذكرناه، وهي وليت خياطته وإصلاحه، وهي تقتل الجواري، ورأيتها حواءَ نيرة ضخمة مكفهرة، فلما وافوا قبره نحّوا التراب عن الخشب، ونحّوا الخشب واستخرجوه في الإزار الذي مات فيه، فرأيته قد اسودّ لبرد البلد.

وقد كانوا جعلوا معه في قبره نبيذاً وفاكهة وطنبوراً، فأخرجوا جميع ذلك، وإذا هو لم يتغير منه شيء غير لونه، فألبسوه سراويل ورانا وخفاً وقرطقاً وخفتان ديباج له أزرار ذهب، وجعلوا على رأسه قلنسوة من ديباج سمور، وحملوه حتى أدخلوه القبة التي على السفينة، وأجلسوه على المضربة، وأسندوه بالمساند، وجاؤوا بالنبيذ والفواكه والريحان، فجعلوه معه، وجاؤوا بخبز ولحم وبصل فطرحوه بين يديه، وجاؤوا بكلب فقطعوه نصفين وألقوه في السفينة، ثم جاؤوا بجميع سلاحه فجعلوه إلى جانبه، ثم أخذوا دابتين فأجروهما حتى عرقتا، ثم قطعوهما بالسيوف وألقوا لحمهما بالسفينة، ثم جاؤوا ببقرتين فقطعوهما أيضاً وألقوهما في السفينة، ثم أحضروا ديكاً ودجاجة فقتلوهما وطرحوهما فيها.

والجارية التي تُقتل ذاهبة وجائية تدخل قبة قبة من قبابهم ...

فلما كان وقت العصر من يوم الجمعة جاؤوا بالجارية إلى شيء عملوه مثل ملبن الباب، فوضعت رجلها على أكف الرجال وأشرفت على ذلك الملبن، وتكلمت بكلام لها، فأنزلوها ثم أصعدوها ثانية، ففعلت كفعلها في المرة الأولى، ثم أنزلوها وأصعدوها ثالثة، ففعلت فعلها في المرتين، ثم دفعوا لها دجاجة فقطعت رأسها ورمت به، فأخذوا الدجاجة وألقوها في السفينة،

فسألت الترجمان عن فعلها فقال: قالت في المرة الأولى: هو ذا أرى أبي وأمي، وقالت في المرة الثانية: هو ذا أرى جميع قرابتي الموتى قعوداً، وقالت في المرة الثالثة: هو ذا أرى مولاي قاعداً في الجنة، والجنة حسنة خضراء، ومعه الرجال والغلمان، ويدعوني فاذهبوا بي إليه.

فمروا بها نحو السفينة، فنزعت سوارين كانا معها فدفعتهما إلى المرأة العجوز التي تسمى ملك الموت وهي التي تقتلها، ونزعت خلخالين كانا عليها ودفعتهما إلى الجاريتين اللتين كانتا تخدمانها وهما ابنتا المعروفة بملك الموت، ثم أصعدوها إلى السفينة ولم يدخلوها إلى القبة.

وجاء الرجال ومعهم التراس والخشب، ودفعوا إليها قدحاً من نبيذ فغنت عليه وشربته، فقال لي الترجمان: إنها تودع صواحباتها بذلك، ثم دفع إليها قدح آخر فأخذته وطولت الغناء، والعجوز تستحثها على شربه والدخول إلى القبة التي فيها مولاها، فرأيتها وقد تبلدت وأرادت الدخول إلى القبة، فأدخلت رأسها بين القبة والسفينة، فأخذت العجوز رأسها وأدخلتها القبة، ودخلت معها العجوز، وأخذ الرجال يضربون بالخشب على التراس لئلا يسمع صوت صياحها، فيجزع غيرها من الجواري فلا يطلبن الموت مع مواليهن، ثم دخل القبة ستة رجال ... ثم أضجعوها إلى جنب مولاها الميت، وأمسك اثنان رجليها واثنان يديها، وجعلت العجوز التي تسمى ملك الموت في عنقها حبلاً مخالفاً، ودفعته إلى اثنين ليجذباه، وأقبلت ومعها خنجر عظيم عريض النصل، فأقبلت تدخله بين أضلاعها موضعاً موضعاً وتخرجه، والرجلان يخنقانها بالحبل حتى ماتت.

ثم وافى أقرب الناس إلى ذلك الميت، فأخذ خشبة فأشعلها بالنار ثم مشى القهقرى نحو قفاه إلى السفينة ... حتى أحرق ذلك الخشب الذي قد عبوه تحت السفينة من بعد ما وضعوا الجارية التي قتلوها في جنب مولاها، ثم وافى الناس بالخشب والحطب، ومع كل واحد خشبة، وقد ألهب رأسها

فيلقيها في ذلك الخشب، فتأخذ النار في الحطب ثم في السفينة ثم في القبة والرجل والجارية وجميع ما فيها، ثم هبت ريح عظيمة هائلة فاشتد لهب النار واضطرم تسعّرها.

وكان إلى جانبي رجل من الروسية، فسمعته يكلم الترجمان الذي معه، فسألته عما قال له، فقال: إنه يقول أنتم معاشر العرب حمقى، لأنكم تعمدون إلى أحب الناس إليكم، وأكرمهم عليكم، فتطرحونه في التراب فتأكله الهوام والدود، ونحن نحرقه بالنار في لحظة فيدخل الجنة من وقته وساعته، ثم ضحك ضحكاً مفرطاً وقال: من محبة ربه له قد بعث الريح حتى تأخذه في ساعته.

فما مضت على الحقيقة ساعة حتى صارت السفينة والحطب والرجل الميت والجارية رماداً رمْدداً، ثم بنوا على موضع السفينة، وكانوا أخرجوها من النهر، شبيها بالتل المدوّر، ونصبوا في وسطه خشبة كبيرة خذنج، وكتبوا عليها اسم الرجل، واسم ملك الروس وانصرفوا.

قال: ومن رسم ملوك الروس أن يكون معه في قصره أربعمائة رجل من صناديد أصحابه وأهل الثقة عنده فهم يموتون بموته ويقتلون دونه، ومع كل واحد منهم جارية تخدمه وتغسل رأسه، وتصنع له ما يأكل ويشرب، وجارية أخرى يطؤها.

وهؤلاء الأربعمائة يجلسون تحت سريره، وسريره عظيم مرصع بنفيس الجواهر، ويجلس معه على السرير أربعون جارية لفراشه، وربما وطئ الواحدة منهن بحضرة أصحابه الذين ذكرنا، ولا ينزل عن سريره، فإذا أراد قضاء حاجة قضاها في طشت، وإذا أراد الركوب قدموا دابته إلى السرير فركبها منه، وإذا أراد النزول قدم دابته حتى يكون نزوله عليه، وله خليفة يسوس الجيوش، ويواقع الأعداء ويخلفه في رعيته.

هذا ما نقلته من رسالة ابن فضلان حرفاً حرفاً، وعليه عهدة ما حكاه،

والله أعلم بصحته، وأما الآن فالمشهور من دينهم دين النصرانية ".

ا. هـ. كلام ياقوت رحمه الله.

في مطار لينين قراد :

رأينا مدينة لينين أو جزءاً من ضواحيها من الطائرة، وهي تهم بالهبوط ذات أشجار هامدة من أشجار الغابات، وشوارع مستقيمة جيدة المظهر تحف بها الأشجار الضخمة التي تدل على أنها كانت نامية قبل شق تلك الطرق، والمدينة واقعة على بحر البلطيق كما هو معروف.

وهبطت الطائرة في مطار أنكوفا لينين قراد في الثامنة والنصف بتوقيت (أوفا) التي غادرناها، ويساوي السادسة والنصف بتوقيت (لينين قراد) فصارت المسافة ثلاث ساعات إلا ربعاً، وفرق التوقيت الكبير يدل على ما هو معروف من أن موقع (لينين قراد) هو في الغرب المائل قليلاً جهة الشمال بالنسبة إلى مدينة أوفا لذلك كان الفجر يسايرنا، وكان الصبح لا يريد أن ينجلي عنا ونحن في الطائرة.

وقد تكرر عند النزول هنا ما حدث قبل ذلك. وقال لي الأخ الشيخ (طلعت تاج الدين): إن الناس لا ينزلون حتى ينزل الضيوف، ولكن من الذي أمرهم بذلك ؟.

لم يخبرني الشيخ به، وربما كانوا أعلنوا ذلك من مكبر الطائرة الذي لم يكن يعلن بغير الروسية، وكان الشيخ طلعت يترجم لنا ما نحتاج إليه من الإعلان.

وكانت مدارج المطار محاطة بحشائش كثيفة هامدة، بل إنها تبدو وكأنها قد احترقت، وذلك من كون الثلوج قد جللتها فترة قبل ذلك.

وباحات المطار وساحات وقوف الطائرة واسعة، وهو نفسه حافل بطائرات كثيرة منها الكبيرة والمتوسطة، أما الطائرات الصغيرة التي تشاهد في مطارات الدول الرأسمالية، والتي يكون أكثرها طائرات خاصة فإنها لا تكاد توجد هنا، لأنه لا توجد طائرات يملكها أفراد في الاتحاد السوفييتي.

ومظهر المبنى في المطار لافت للنظر، ذلك بأن فيه خمساً من القباب، أو مما يشبه القباب، ولكن يختلف عنها في المظهر، حتى إن مظهرها يشبه منظر الأوعية الحديدية الكبيرة (البراميل)، وهي ذات زجاج سميك دائر بجهاتها من أجل أن يدخل الضوء الطبيعي إلى المطار، وربما بنوها هكذا حتى لا تركبها الثلوج.

ووجدنا في المطار طائفة من الإخوة المسلمين المستقبلين، منهم الأخ الشيخ جعفر بن نصيب الله الخانجي إمام جامع لينين قراد وخطيبه، ومنهم الشيخ علي فخر الدين متولي الجامع بمعنى رئيس الجمعية القائمة على شؤون المسجد.

في مدينة لينين قراد:

ومدينة (لينين قراد) معناها: مدينة لينين، لأن (قراد) بالروسية معناها: مدينة. وكانت هذه المدينة اسمها قبل الشيوعية (بطرس بورغ)، ومعناها: مدينة بطرس، فـ (بورغ) بمعنى مدينة باللغة الألمانية غير الشيوعيون اسمها من مدينة بطرس إلى مدينة لينين، مع أن الذي أسسها هو القيصر بطرس الأول في عام ١٧٠٣م، وجعلها عاصمة البلاد الروسية بعد ذلك.

ومن غرائبها أنها أبعد من موسكو إلى جهة الشمال، ومع ذلك شتاؤها أدفأ من شتاء موسكو، لأن تيار الخليج البحري الذي يمر بمحاذاة سواحل النرويج يلطف مناخها، ومع ذلك فهي أقصى مدن العالم الكبيرة إلى جهة الشمال، فهي تقع على خط عرض واحد مع ألاسكا، والطرف الجنوبي لقرينلندا.

انتقلنا إليها سالكين شارعاً عريضاً ذا اتجاهين، كل اتجاه فيه ثلاثة مسارات تحف به، وترى منه أبنية سكنية ضخمة (عمارات) متعددة الطوابق، قد شغلت حيزاً كبيراً بعضها قديم نسبياً، بمعنى أنه مضى عليه ثلاثون سنة

أو اكثر، يظهر ذلك واضحاً من مظهره.

واستمرت الشوارع الواسعة، والناس يسيرون على الأرض مسرعين.

ثم دخلنا قلب المدينة، فصار الطريق ذا اتجاه واحدمر فوق جسر على نهر من أنهار المدينة.

نزلنا في فندق (يوربسكايا) أي فندق أوروبا، وهو كبير قديم في قلب المدينة القديم الفخم.

ولم يحتج نزولنا فيه إلى كثير من الإجراء لأن الإخوة في (لينين قراد) الذين منهم الأخ جعفر بن نصيب الله إمام الجامع قد أعدوا كل شيء.

وكان نزولي في جناح يتألف من غرفة واسعة أمامها قاعة كبيرة مزدانة بلوحات فنية قديمة ذات قيمة أثرية، وفيها أثاث قديم من القرن الماضي، وأكثره حفرت عليه التماثيل، وكل ما في الغرفة يشعرك بأنك في قصر من قصور النبلاء القدماء، حتى سرير النوم - وفي الغرفة منها اثنان - هو سرير متسع، وقد أبقوا كل شيء فيها على ما هو عليه من قدمه، بل ربما زادوا على ذلك جديداً من جنس القديم لكي يجعلوه مشوقاً للنزلاء الذين هم من السياح أو الزوار الغرباء.

وقد رأيت أعداداً كبيرة من السياح النازلين في هذا الفندق مع حافلات لهم كبيرة واقفة أمامه، ومنها حافلات قادمة من فنلندا، وأخرى من أقطار شرق أوربا.

وبعد استراحة قصيرة نادونا إلى الإفطار في قاعة صغيرة خاصة بنا في الفندق، فكان الإفطار السخي المعتاد.

جولة سياحية:

قرر الإخوة منظمو البرنامج أن يكون هذا اليوم الذي هو في الأصل يوم

قازان التي ألغيت فيه رحلتها يوم راحة على جولة سياحية، ووافق ذلك هوى في نفوسنا، فهذه البلاد الروسية وهنا نقولها صراحة فتكون كلمة (روسية) صادقة الدلالة لأننا في بلاد الروس حقاً، وإن كانوا يسمونها سوفيتية. هذه البلاد لم نزرها من قبل، وهي بلاد لا تتيسر للمرء زيارتها كلما أراد.

ثم إن البرنامج المتصل ليلاً ونهاراً يجعل المرء يفرح بفترة من الفراغ يجم فيها فكره، ويراجع فيها نفسه، وإذا كان مثلي مبتلىً بالثرثرة في الكتابة، فإنه يجد مجالاً أوسع في وقت الراحة.

كنت لاحظت عند الدخول فتيات ونساء يتطلعن في وجوه الناس بعيون فاحصة، ولكنهن لا يقلن لهم شيئاً، فلم أفهم عملهن إلى أن عرفت اليوم أنهن من الدليلات السياحيات، يقفن في قاعة الاستقبال أو في مدخل الفندق يتصيدن السياح الذين ينزلون في هذا الفندق الكبير، ويحتاجون إلى إرشادهن.

وقد وقف الموكب الذي معنا فترة دون أن يتحرك، وكانوا أخبرونا أننا سنذهب لزيارة بعض قصور القياصرة التي حولوها بعد الثورة - يريدون بها الشيوعية - إلى متاحف، فلما سألناهم عن السبب في عدم تحرك السيارة قالوا: إنه لإحضار دليلة تعرف الإنكليزية، وتشرح لكم بها، لأن المرافقين كلهم مثلنا يعتبرون غرباء عن (لينين قراد) إلا ما كان من أمر الإمام جعفر بن نصيب الله وصحبه، وهم ليسوا معنا، ومع ذلك لا يعرفون من أمور هذه المتاحف ما يعرفه الدليل الخبير.

ثم جاؤوا بالدليلة، فتاة روسية، ثقيلة الجسم، شقراء الشعر، وأركبوها في السيارة السوداء الرسمية المخصصة لركوبي مع المرافقين، وفيها مقاعد تطوى وتنشر بين الصفين من مقاعدها الوثيرة، وذلك لاتساعها وامتدادها، ثم أحضروا دليلة ثانية لبعض الرفاق أركبوها معهم.

قالت الدليلة: اسمي (ماريا كاستري كاف)، وأنا من لينين قراد.

وهي تعرف الإنكليزية جيداً، وقد استفدت منها في معرفة كثير من الأمور عن الأماكن السياحية في هذه البلاد وغيرها.

أول ما تكلمت عن هذا الفندق الذي نسكن فيه، وذلك قبل أن تتحرك السيارة، فذكرت أنه مبني في القرن التاسع عشر، وقالت: إنه بني في الأساس ليكون فندقاً، فكان غريباً في ذلك الوقت في كبره واتساعه، ولكن لا غرابة في ذلك إذا عرفنا أن (لينين قراد) هذه كانت عاصمة الدولة القيصرية الروسية في ذلك الحين.

وذكرت أن الأبنية التي حول الفندق كلها قديمة، وأنها من القرن الثامن عشر.

وهي بالفعل تشبه القديمة في المدن الأوربية الشهيرة مثل باريس وبودابست مما يدل على قرب الشبه في الهندسة، أو لنقل على أن المدرسة الهندسية في البناء في أوربا ليست متباعدة بعضها عن بعض في ذلك التاريخ.

مع شارع موسكو:

سلكنا شارعاً واسعاً ذكرت الدليلة أنه طويل، وأن طوله يبلغ أحد عشر كيلو متراً، وأنه يعتبر أطول شارع في لينين قراد، وعليه المتاجر التي تبدو كبيرة، ذلك أنها من الحوانيت والمحلات التجارية التي كانت مبنية قبل الحكم الشيوعي، فتجد فيها الفخامة وعدم الاقتصاد في البناء.

وكل هذه المتاجر في الوقت الحاضر هي مملوكة للدولة هي والبضائع التي تباع فيها، ولاحظنا أنها مفتوحة مع أن اليوم هو يوم السبت، وذلك ناشئ عن أن العطلة الأسبوعية في الاتحاد السوفييتي تقتصر على يوم الأحد، أما يوم السبت فإنه يوم عمل، إلا آخر سبت من كل شهر فإنه عطلة لبعض العمال إذا اتفقوا مع إدارة العمل التي هي حكومية أيضاً أن يعملوا عمل هذا السبت الآخر في أيام متفرقة من الشهر لكي يتمتعوا في آخر عطلة من الشهر بيومين

متصلين من الراحة.

ودخلنا مع قوس يشبه على البعد قوس النصر في باريس، وإن لم يكن مثله في العناية والزخرفة، ذكرت الدليلة أنه بقايا سور قديم كان على المدينة القديمة في القرن التاسع عشر.

ثم مررنا بميدان فيشنري، وهو ميدان معتاد.

ستون نهراً في المدينة :

مررنا بمجرى مائي في المدينة كأنه النهر الصغير أو القناة المائية الكبيرة، فسألت الدليلة عما إذا كان جزءاً من نهر أو من قناة من الماء الملح؟ فأجابت: بل هو نهر، وفي مدينتنا لينين قراد ستون نهراً.

وعندما سألتها متعجباً: إذاً أنتم لا تشكون قلة في المياه ؟ أجابت: بل نشكو من كثرتها، فالمياه وفيرة، والبحيرات بكثرة. وهذه الأنهار التي تراها أكثرها يصب في البحر، وبعضها يصب في بحيرة غير بعيدة.

ولم أتحقق من قولها: إن هذه كلها أنهار مستقلة، وإنما ظننت أن بعضها فروع لبعض.

ثم مررنا بموقع المعركة الفاصلة التي دارت أثناء الحرب العالمية الثانية بين الروس والألمان في المدينة، حيث انتصر الروس بعد حصار طويل للمدينة أنهك الروس وقتل من أهلها بسبب الحرب وبسبب الحصار مئات من الألوف.

منزل الشاعر بوشكين :

وصلنا إلى محلة كانت قرية منفصلة عن لينين قراد أهم ما فيها منزل الشاعر الروسي الشهير بوشكين الذي مات عام ١٨٣٧م، والقوم يحتفون به رغم كونه برجوازياً كما يقولون، وذلك لشاعريته وفصاحته، ومن الأشياء

المشهورة عنه قصيدته التي استوحى ما نظمه منها من القرآن الكريم حسبما اطلع عليه في ترجمة روسية، ويقال: إنه منحدر من أصل عربي، أو من أصل حبشي، وأن هذا هو السبب في ذلك

وقالت الدليلة: إن اسم هذه المدينة (بوشكين) على اسم الشاعر نفسه.

وقد جعلوا منزله متحفاً حفظوا فيه مخلفاته ومخطوطات شعره ومطبوعاته، وكل ما جمعوه مما يتعلق بحياته أو شعره.

سرنا مع شارع فيها ضيق يفضي إلى محطة قديمة للقطارات أنشئت في عام ١٨٣٥م.

قصر الصيف:

دخلنا بلدة بافلوف، وهذه البلدة هي هدف الرحلة، لأن فيها قصر الصيف الذي نقصده، وخصصته الملكة أو القيصرة الروسية كاترين الثانية لابنها باول الأول، وجعلته له بمثابة المنفى في أول الأمر، وذلك في عام ١٨٧٢م.

والقصر ذو مظهر قديم سواء من حيث الطراز أو من حيث المظهر في البناء، وقد اتخذ هذه الصفة التي هو عليها الآن منذ القرن التاسع عشر، وإلا فهو قديم البناء.

وصلنا إلى القصر مع ساحة خارجية مكشوفة واسعة ليس فيها إلا أشجار قليلة لم تورق بعد.

ثم دخلنا القصر الذي غص بالزوار من السياح، بل إن أكثر من فيه هم السياح، وإن كان بعضهم ممن قدموا من أنحاء الاتحاد السوفييتي.

فكان أول ما صنعناه أنألبسونا فوق أحذيتنا أحذية واسعة من القماش ذكروا أنهم فعلوا ذلك من أجل وقاية الأرض الخشبية من الخدش.

وينبغي أن نذكر أن الخشب في القصر مفروش على الأرض فوق السطح

المعتاد كما هي العادة في البلدان الباردة.

والغريب في هذا الأمر أن الدليلة حذرتنا من الانزلاق على هذه الأرض الخشبية الملساء، ونحن نرتدي فوق أحذيتنا هذه الأحذية من القماش السميك، ولكنها انزلقت هي وكادت تقع على الأرض لولا أن أمسك بها أحد المرافقين، ولو وقعت لآذاها ذلك لثقل وزنها.

وكانت أولى القاعات التي زرناها فيه تسمى (القاعة الإيطالية) بمعنى أنها مبنية على الطراز الإيطالي، وجميع الأثاث الذي فيها هو على الطراز الإيطالي في ذلك الوقت، وحتى التحف واللوحات والتماثيل هي مجلوبة من إيطاليا، أو هي على مقتضى الفن الإيطالي.

إلا أنهم وضعوا فيها تماثيل رومانية قديمة حقيقية جيء بها من إيطاليا، ومنها تماثيل من القرن الثاني والثالث والرابع بعد الميلاد.

وهي ثمينة من الناحية التاريخية.

وذكرت الدليلة أن هذه القاعة قد رممت بعد الحرب العالمية الثانية لأنها مثل سائر الأبنية في (لينين قراد) قد أصابها الخراب والإهمال في زمن الحصار والحرب.

ومن التماثيل اللافتة للنظر تماثيل لرجال عراة، وهي منصوبة من غير خجل من أجل أن يتأملها الناس، وفيها تماثيل لنساء عاريات إلا من شيء يستر العورة المغلظة في أوساطهن.

وذكرت الدليلة أن أهالي المدينة قد أخذوا هذه التماثيل الثمينة عندهم ونقلوها أثناء الحرب من هذا المكان الذي وصله الألمان إلى أماكن أكثر أماناً داخل مدينة (لينين قراد) ثم أعيدت إلى مكانها من هذا القصر بعد انتهاء الحرب.

قاعة المكتبة:

ثم انتقلنا خلف الدليلة لمشاهدة قاعة المكتبة في القصر، وكانت تشرح أولاً بالإنكليزية، فكان بعض المرافقين لا يفهمها إضافة إلى أن بعض الزملاء أعضاء الوفد لا يفهم الإنكليزية، فرأينا أن يترجم كلامها إلى العربية، وأفصحهم في ذلك، وأحسنهم ترجمة هو أخونا (محمد صادق محمد يوسف) نائب مدير معهد الإمام البخاري في طشقند.

من الأشياء النفيسة في المكتبة صورة رسمت للقيصر الشهير بطرس الأكبر رسمت في عام ١٧١٨م، ومكتب من الخشب الناخر وهذا معتاد، غير أن غير المعتاد مكتب من البرونز المطلي بالذهب، وسجاد ثمين، ورسوم فنية.

وقد تعددت مشاهدة القاعات وأقسام القصر، ومنها قاعة الحرب فاخرة الطلاء واللوحات.

ثم قسم لزوجة الملك، واسمها ماريا، من أهم ما فيه القاعة اليونانية، فيها تماثيل لرجال عراة مع أنها للزوجة، وأدوات موسيقية مما كان يعزف عليه لها في هذه القاعة، وقنديل معلق ذكروا أنه من القرن السابع عشر، وفيها تماثيل لنساء عاريات قد وضع فوق مكان العورة من التمثال ما يشبه الخرقة الصغيرة.

وفي القاعة اليونانية تحت السقف ما يشبه القبة الصغيرة، لا أدري ماذا ترمز إليه.

وهناك في قسم زوجة الملك، أو لنقل القيصرة، لأنها زوجة القيصر، قاعة تسمى (قاعة السلام) ليقابل وجودها في قسم المرأة من القصر قاعة الحرب الموجودة في قسم القيصر من القصر.

ومكتبة القيصرة أي قاعة المكتبة في القسم الخاص بها هي باللغة الروسية رغم كون القيصرة نفسها هي ألمانية، ولكنها تعرف الروسية. وفيها

تماثيل ذكرت الدليلة أنها قديمة جداً، بعضها من القرن الأول، ويتدرج في القدم حتى يصل إلى القرن الرابع بعد الميلاد، أما موضوعات مكتبة القيصرة فذكرت الدليلة أنها تتعلق بالتاريخ.

تمثال الصمت:

من الأشياء التي لفتت انتباهنا عند زيارة غرفة النوم للقيصر والقيصرة وهي واقعة في قسم القيصرة لأنها غرفة نومها، تمثال مثبت في أسفل السرير واضع أصبعه على فمه، ومكتوب عليه إنه يقول: اسكت، أو اصمت.

وقد تجلى البذخ العظيم والإسراف المفرط في هذه الغرفة، وكان من نتيجة ذلك هذه الثورة الشيوعية العارمة.

ومن مظاهر البذخ التي شاهدناها غرفة للباس في الصباح، أي خاصة بارتداء الملابس التي تلبس في الصباح، حيث تستقبل القيصرة يومها، لذلك لا بد أن تعتني بلباسها، أو يعتني بذلك خدمها ووصيفاتها.

وقاعة اللوحات الفنية والرسومات لكبار الرسامين من الإيطاليين والألمان، وليس فيها لرسامين من الروس أهل البلاد شيء، ومنها لوحة أصلية من القرن السابع عشر.

ثم أكبر قاعة في قصر الصيف هذا، وهي على هيئة غرفة كبيرة مساحتها مائة متر مربع.

وهذه تعتبر كبيرة في ذلك الوقت نظراً لصعوبة تسقيف مثل هذه الغرفة تسقيفاً فنياً في ذلك الوقت، لأنهم يزينون السقف برسومات ولوحات فنية.

وهذه القاعة الكبيرة مخصصة للاستقبال، وهي شبه مستديرة الشكل إلا أن استدارتها غير كاملة. وقد زينوا سقفها بنقوش فنية بديعة.

ثم قاعة أخرى أسموها قاعة تقليد الأوسمة الحربية، أي التي تعطى لمن

يظهرون بطولة في الأعمال الحربية.

وفي هذه القاعة تمثال روماني كبير، قالت الدليلة إنه من القرن الأول للميلاد، وإنه بقي مكانه أثناء الحرب، وقد أصابه اسوداد في لونه.

وذكرت الدليلة بهذه المناسبة أن بعض المعروضات التي بقيت في القصر أثناء الحرب فقد جزء منها، ولم يعد حتى الآن، والأغلب أن الألمان أخذوه، أو تلف أثناء الحرب.

كنيسة النصر:

في داخل القصر كنيسة صغيرة اسمها (كنيسة النصر)، وهي مبنية على الطراز الإيطالي.

ومنها كانوا في عهد القياصرة يعلنون نصر الجيش الروسي المحارب.

وبهذه المناسبة سألت الدليلة (ماريا) التي وافق اسمها اسم القيصرة (ماري) زوجة صاحب هذا القصر عما إذا كانت متدينة، لأن الكلام كان على الكنيسة، فأجابت بأنها غير متدينة. فقلت لها: هل أفهم من ذلك أنك شيوعية، لأن الشيوعيين ملحدون ؟

فأجابت قائلة بكل صراحة ورددت ذلك على مسامعي: أنا لست شيوعية!.

فقلت لها: إذاً ماذا تتبعين من المذاهب ؟ فقالت: أنا أتبع ما يوحي به ضميري، وهو ما ذكرته لك.

كانت تقول لي ذلك في حديث بيني وبينها بالإنكليزية لم يسمع به بقية الرفاق، ولا أعتقد أنها تخفيه لأنه تكرر بعد ذلك نفي بعض الروس من غير المسلمين لكونهم شيوعيين.

وهم ينفون ذلك صراحة، ولكن الشيء الذي لا يستطيعون أن يعلنوه أن يقولوا إنهم يعملون ضد الشيوعية، لأن ذلك معناه العمل ضد الدولة، وهو أمر

لا يغتفر ما دونه في روسيا فكيف به ؟.

خرجنا من قصر الصيف بعد أن تخلصنا من أحذية القماش السميكة التي كانت تثقل أرجلنا، والتقطنا صوراً تذكارية في الفناء الخارجي المكشوف من القصر في جو شامس غريب فيما قالوه لنا في مثل هذه الأيام من السنة.

وقد تابعت مشاهدة ما حواه هذا القصر المسمى بقصر الصيف بدافع حب الاستطلاع والمعرفة، وبدافع آخر، وهو أن التسمية بقصر الصيف وبقصر الشتاء الذي سنراه فيما بعد - إن شاء الله - قد ذكرتني بمكان آخر ناءٍ من بلاد الشرق البعيد، هو مدينة بكين عاصمة بلاد الصين، حيث كنت شاهدت فيها قصر الصيف وقصر الشتاء، ووصفت ما شاهدته في قصر الشتاء هناك في كتاب: " داخل أسوار الصين ".

قصر كاترين الثانية:

تركنا (قصر الصيف) في الواحدة والنصف ظهراً في جو صيفي بالنسبة إلى هذه البلاد، وهو ربيعي بالنسبة إلى بلادنا قاصدين بالسيارة (قصر كاترين الثانية)، وقد يقولون فيها: كاترين الكبرى...

وهو أفخم منظراً من الخارج من قصر الصيف كما أنه أكثر اتساعاً، وأهم المناظر فيه منظر أبراج كنيسة داخله مطلية بطلاء ذهبي.

وقد بني هذا القصر على سبع مراحل حسب رغبة القياصرة الذين تعاقبوا عليه.

ومن الأشياء المميزة له وجود مرآة كبيرة أمام كل نافذة من نوافذه الكثيرة المتعددة، وذلك من أجل أن ينعكس عليها الضوء الآتي من النافذة فيضيء المكان، وبخاصة في أيام الشتاء القصيرة المكفهرة.

وأمام القصر منتزه واسع جداً فيه من ضمن ما فيه بحيرة واسعة لا يكاد المرء يميز من يكونون في جانبها المقابل لطولها وبعد نهايتها من بدايتها.

وحتى هذا المنتزه قسموه إلى قسمين: أحدهما إنكليزي قالوا: إنه أعد على الطراز الإنكليزي. والثاني فرنسي، بمعنى أنه نسق على الطراز المتبع في تنسيق المنتزهات الفرنسية، وطبيعي أن هذا كله كان في زمن القياصرة، ولم يجعلوا فيه قسماً على الطراز الروسي مثلما أن قاعاتهم الفنية ليس فيها شيء على هذا الطراز. ربما كان ذلك لكون الروس ليس لديهم طراز متميز في الذوق والفن في ذلك العصر.

وكان الوقت ضيقاً دون التجول في داخل القصر، وكان الجو شامساً دفيئاً تضايقنا من دفئه، وفرح الناس به هنا لأنه أعاد إليهم الإحساس بصيف كانوا قد فارقوه في العام الماضي.

وبذلك كان السير في منتزه القصر وحدائقه الواسعة ممتعاً.

مسجد الحديقة:



بحيرة قصر الصيف في لينين قراد ومحاولة تصوير المسجد الصغير على ضفاف البحيرة المقابلة

من ألطف ما يشاهده المسلم هنا مسجد ذو قبة عربية على الطراز التركي، ومنارته تركية رشيقة، وقد بني المسجد على الجانب البعيد من البحيرة بحيث كنا نشاهده واضحاً، ولقد لفتت الدليلة إليه أنظارنا، ولكنني حاولت تصويره من الجانب الذي عليه من البحيرة عسى أن يظهر في الصورة من هذا البعد فلم يظهر جلياً.

وذكر الشيخ طلعت تاج الدين قصة هذا المسجد وأنه بني في العهد القيصري، وأنه مكتوب عليه بالتركية أن بناءه كان بطلب من السلطان عبد الحميد سلطان تركيا لكي يصلي فيه السفراء المسلمون الذين يفدون إلى هذه البلاد.

لكل شخص تسعة أمتار:

سألت ماريا الدليلة عن أمور كثيرة لا أثق بالإفادة عنها من غيرها وأمثالها من الروس غير المسلمين، فذكرت من حالها الخاصة أنها غير متزوجة، وأنها تسكن في غرفة واحدة سعتها تسعة أمتار مربعة، وأن هذه هي المساحة المخصصة للناس في المساكن في لينين قراد، لا يمكن للشخص أن يزيد عليها، بمعنى أنه إذا كان هناك زوجان حديثا عهد بزواج، وطلبا من الحكومة أن تؤجرهما مسكناً فإنهما لا يستطيعان الحصول على أكثر من ١٨ متراً مربعاً من الغرف، قالت: ولا يدخل في هذه المساحة مرافق السكن من حمام أو مطبخ أو ممر، فهذه لا تحسب في المقرر من الأمتار التسعة المربعة للشخص، فمثلاً حالتها هي تسكن في غرفة مساحتها تسعة أمتار مربعة من صف من الحجرات خاصة بالنساء غير المتزوجات لا يسكن معهن في صفهن رجال، وإنما يسكن الرجال في صف آخر، وتشترك النساء في مرافق مشتركة كالمطبخ والحمام.

إلا أن الأسرة التي تسكن في شقة منفردة مؤلفة من غرفتين أو أكثر،

فإنها تكون لها مرافقها الخاصة في الشقة من الحمام والمطبخ والممر الذي بينهما، ولا يحسب ذلك في حساب الأمتار المحددة للسكن، بل ذلك خارج عنها.

كما أن هناك شيئاً آخر يتصل بهذه المرافق والمنافع للشقة وهو أن الدولة تلتزم بإصلاح ما يحتاج إلى إصلاح من الحمامات والمطابخ والممرات داخل الشقة، وأما السكن داخل الغرف فإن الساكن ملزم بإصلاح ذلك بمعنى أنه ملزم بأن يدفع نفقة إصلاحه إلى من ترسلهم الدولة لإصلاحه، لأنه لا يوجد أحد غير الدولة يستطيع أن يصلح شيئاً ذا بالٍ، أو أن يعمل أعمالاً مهمة.

وسألت ماريا سؤالاً محرجاً، ولكنني انتهزت فرصة وجودها معي بالسيارة وعدم معرفة المرافقين بالإنكليزية، وهي تجيدها إجادة تامة، فقلت لها: أنت تسكنين وحدك في غرفة منفردة، وأنت عزباء، ألا تخشين من أحد من الرجال أن يعتدي عليك؟

فنفت ذلك، وقالت: لم يعتدي الرجال عليَّ؟ وهناك نساء كثيرات لهن أصدقاء، وكل رجل يريد أن يحصل على امرأة يستطيع ذلك.

ولم تقل شيئاً لاحظته عليها وهو أنها قد تخطت مرحلة الإغراء، فهي في حدود الثلاثين، وضخمة الجسم إلى درجة تبعد عنها من ينشدون الصداقة عند النساء اللاتي يتمتعن بالجاذبية.

الليالي البيض:

الليالي البيض عند بني قومنا وبخاصة عند المسنين والمسنات منا الذين كانوا يعرفون الليالي البيض، أو البيض فقط بصيامها من كل شهر، وهي ثلاث ليال تبدأ من الثالثة عشرة، وتنتهي بالسادسة عشرة من الشهر العربي الذي هو الشهر القمري.

سموها بذلك لأنها ليالٍ مقمرة بكون القمر فيها موجوداً في الليل كله.

أما الليالي البيض في هذه البلاد الروسية الشمالية فإنهم يريدون بها ما أخبرتنا به الدليلة، وهو أن نور الشمس لا يمحوه الليل، بمعنى أن النور في السماء يظل متصلاً بعد غروب الشمس إلى طلوعها، وطبيعي أن ذلك ليس معناه أن يكون كنور الشمس، ولكن السماء تكون مضيئة حتى تستطيع أن تقرأ الرسالة أو تكتبها في منتصف الليل، رغم غروب الشمس وبدون أية إضاءة.

وقالت الدليلة: إن غروب الشمس يتأخر حتى يكون في الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً، وهذا معنى القول المشهور: شمس نصف الليل.

وذكرت أن هذه الليالي البيض تكون في آخر شهر مايو وشهر يونيو، وقالت: إن الشمس يتأخر غروبها الآن كل يوم ست دقائق.

ومن الطريف قولها: إن الناس يوفرون استهلاك الكهرباء التي كانوا يحتاجون إليها في الإضاءة، وذلك لمدة أربعين يوماً. فقلت لها: ولكنهم يعودون فينفقون ما وفروه خلال ليالي الشتاء السود الطويلة هنا، فضحكت وقالت: هذا صحيح.

وعدنا إلى الفندق في الثالثة إلا ربعاً.

فوجدنا الغداء الفاخر قد أعد على المائدة وفيه (الكافيار) أي البطارخ الثمين، وسمك الكافيار الذي هو غالٍ جداً، وشرائح من سمك السلمون المدخن، وأنواع من الخضار، منها خس ذكروا أنه يستنبت في البيوت الزجاجية كما تسمى، وهي المحمية باللدائن.

يوم العطلة:

قلنا إن هذا اليوم هو أول يوم عطلة لنا منذ دخولنا الاتحاد السوفييتي،

والسبب في ذلك هو إلغاء زيارة (قازان)، ولذلك رسموا لآخره برنامجاً يبدأ بزيارة أحد شيئين رئيسين من التسلية التي تشتهر بهما روسيا، وهما حفلات الباليه، و(السيرك) الروسي الشهير. وبعد ذلك يكون هناك دخول الحمام الساخن في الفندق (السونا).

فاعتذرت عن الذهاب للاثنين، وقلت للإخوة أعضاء الوفد: إنني لا أرى لكم الذهاب لمشاهدة حفلة الباليه التي هي حفلة راقصة رقصاً مشتركاً، ونحن وفد من رابطة العالم الإسلامي قد استقبلنا الإخوة المسلمون هنا وتوقعوا أن يروا فينا صورة المسلم التقي النقي، وأما السيرك الذي هو ألعاب بهلوانية فإنني لا أرى مانعاً من حضوره لمن شاء منكم، فذهبوا كلهم إلى السيرك.

تمشية على الأقدام:

وبقيت وحدي في الفندق، فتمتعت عيني بإغفاءة حرة، ثم خرجت أتمشى فيما حول الفندق من هذا الحي القديم الفاخر، أو الذي كان فاخراً من مدينة (لينين قراد) عندما كانت تسمى (بطرسبورغ) على عهود القياصرة.

فكان أول ما لفت نظري حشود من الناس حول مكان مقابل للفندق ذكروا أنهم كانوا ينتظرون خروج أحد الممثلين الكبار الموجودين لمشاهدته.

ولم أستطع أن أعرف من يكون ذلك الممثل، وحتى الذين كانوا ينتظرون خروجه لم يكونوا كلهم من الروس، بل هم من الأوربيين، والروس هنا في هذه المنطقة هم من الأوربيين لا يختلفون عن غيرهم إلا في غلظ التقاطيع، وضخامة الأبدان في بعض الأحيان.

وكنت وحدي، ولكنني كما قال المتنبي: « غريب الوجه واليد واللسان»، وغربة الوجه هنا ليست لافتة للنظر، فذوو السمرة الخفيفة هنا موجودون، ولباسي الذي كان هو اللباس الأوربي لا يلفت النظر، وإنما الغربة الشديدة هي غربة اللسان، فالإنكليزية لا يعرفها عامة الناس هنا، وأنت

تسمعهم يتكلمون بالروسية، أو بلغات أخرى غريبة من لغات أوربا الشمالية، وقد ميزت منها اللغة الفنلندية التي أصلها آسيوي وليس أوربياً، وذلك لأنني تذكرتها عندما كنت في زيارة لفنلندا قبل عشر سنوات.



المؤلف في أحد شوارع لينين قراد

ولكن الحرية في الحركة التي شعرت بها بعد ظهر هذا اليوم كانت ممتعة إلى درجة لم أكن أتصورها، لأن الأيام الماضية كانت الحركة فيها محسوبة، ولم يكن يبعد عني المرافقون فيها قيد شبر، وعجبت من الشبه العظيم بين الناس هنا وبين الأوربيين الأصلاء، بل خيل إليّ أنني في أوروبا نفسها التي أعرفها كألمانيا مثلاً لولا شيء خفي من مظاهر الناس. وعلى الوجوه التي يظهر عليها أنها لا تنال من الأغذية التي تطري الوجه كالفواكه ما يناله الأوربيون الغربيون، وشيء في لباس النساء الذي هو نظيف وجميل، ولكنه غير ثمين، وغير بالغ التنوع، على أنه ليس موحداً كاللباس الذي على

النساء في الصين الشيوعية. ويمكن القول في الأحذية هنا كالقول في اللباس من ناحية عدم تنوعها، وكونها في الغالب من الأحذية الرخيصة.

وحتى الأبنية التي حول الفندق هي أبنية أوروبية لا تختلف عن الأبنية العريقة في البلدان الأوروبية العريقة مثل فيينا وبودابست، وحتى مدينة زغرب في يوغسلافيا، لأنها كلها قد بنيت قبل الشيوعية.

وقد عرفت بعد ذلك أن نسبة كبيرة من الذين أراهم هنا هم من السياح الأوروبيين من شرقيين وأوروبيين غربيين، فمدينة (لينين قراد) مدينة سياحية مفتوحة للسياحة، ويقصد الروس من ذلك أن يطلع السياح فيها على أخبار ومخلفات الحرب التي شنها الألمان على روسيا، وحاصروا فيها المدينة، فصمدت لهم مدة طويلة، إظهاراً لبطولتهم الروسية، وبسالتهم في مقاومة الألمان.

إضافة إلى أنها مدينة عريقة كانت هي عاصمة القيصرية الروسية قبل الشيوعية، وفيها مبانٍ قديمة، وميادين واسعة، وهذا ما يعطي دعاية سياحية.

يوم صيفي:

كنت أرتدي بدلة خفيفة معتادة، ورأيت الناس قد تخففوا من اللباس حتى كادوا يخرجون من جلودهم - على حد تعبير بعض الأدباء - وبخاصة من ذلك السياح، فالجو كان صاحياً، والشمس مشرقة، والدفء هو السائد حتى إنني لم أستطع الجلوس في الشمس، أما القوم فإنهم قد فرحوا بها كما يفرح من التقى بغائب عزيز عليه قدم من غيابه للتو.

وذكرت بيتاً من أبيات نظمها أحد المترجمين العرب، وأظنه الدكتور وليد عرفات شعراً عن شعر شكسبير بالإنكليزية، قال شكسبير يخاطب الحبيب:

لست أرضاك ليوم صيف شبيهاً أنت أبهى من يوم صيف وأجمل

وهذا عندهم بطبيعة الحال، وإلا فإن يوم الصيف عندنا هو أسوأ الأيام.

وقد أعييت من المشي فوجدت حديقة صغيرة من حدائق كثيرة موجودة في المدينة، فيها مقاعد خشبية مستطيلة، أكثرها رث، وبعضها طلاؤه ليس لامعاً، بل كان سبب ذلك إهمال الجلوس عليها في الشتاء الذي لم يودعهم إلا منذ وقت قريب.

فجلست مع الجالسين على أحد هذه المقاعد، ولاحظت أن الجالسين كلهم من الأوروبيين، وفيهم سياح يتحدثون الإنكليزية بلهجة أمريكية.

وبعض النساء يجلسن من أجل أن يدخنّ لفافة من التبغ، ثم ينصرفن، لأن العرف لا يجيز للمرأة أن تدخن وهي ماشية في الشارع بخلاف الرجل.

وكانت جميع أشجار الحديقة هامدة قد بعد عهدها بالاخضرار، وإن كان قرب عهد العودة إليه.

ومظاهر الحب التي توجد عادة في الحدائق العامة في البلدان الأوروبية الغربية قليلة هنا، أو نادرة، وبعضها يتمثل في الاتكاء على كتف الحبيب أو الاستناد إليه، وربما كان من يفعل ذلك من السياح، فأنت لا تستطيع أن تميز بينهم وبين الروس تمييزاً كاملاً في هذه المدينة التي يوجد قسم من أهلها من ذوي الأصل الأوكراني، وهم قوم أغلبهم من السلافيين أبناء عمومة البولنديين واليوغسلافيين. وهم - أي الأوكرانيون - ألطف أجساماً، وأنضر وجوهاً، وأكثر جمالاً من الروس.

يتشمسون في الثامنة والنصف مساءً:

والمراد بالثامنة والنصف هنا في آخر النهار، ولو كان ذلك في أوله لما كان في الأمر غرابة بالنسبة إلينا.

فقد مللت الجلوس في هذه الحديقة الصغيرة، فعدت إلى الفندق قليلاً، ثم عاودت الخروج إلى الشوارع أتمشى فيها على غير هدى إلا ما قادتني إليه قدمي وليس تفكيري.

سيارات الركوب الصغيرة موجودة، ولكن لا تمكن مقارنتها بسيارات الركوب المتوافرة في مدينة أوروبية غربية كبيرة مثل هذه المدينة، وإشارات المرور مثل الموجودة في الغرب إلا أن المشاة على الأرصفة كثير، بل هم أكثر من الموجودين في أوساط المدن الكبيرة بكثير.

وربما كان السبب في ذلك ضيق البيوت والملل الذي يصيب من يبقى فيها لغير النوم والراحة الضرورية، فيخرج الناس إلى الشوارع.

والأرصفة جيدة أو متوسطة، فأغلبها من الإسمنت وليس من البلاط.

ولم أر القوم هنا فضوليين ينظرون إلى الغريب فيحدون النظر فيه، ربما كان ذلك لكثرة من يرد مدينتهم، وبخاصة في هذا القسم السياحي فيها، أو ربما كان ذلك من كوني لست في حالة غير مألوفة في اللباس أو المظهر.

وسألت أكثر من واحد عن الطريق إلى الفندق، إو إلى مكان آخر، فبادروا يخبرونني ويبالغون في ذلك كما يفعل الأوربيون الغربيون في مساعدة الغريب بهدايته إلى ما يريد، وكنت أحمل بطاقة الفندق التي فيها اسمه وعنوانه.

والتفاهم معهم كله بالإشارة - إن صح أن ذلك يسمى تفاهماً .

وعندما تعبت من المشي جلست في حديقة ذات مقاعد خشبية أيضاً، وقد سمحت سعتها لأشعة الشمس أن تنتشر فيها في هذا الأصيل المتأخر من النهار، وكانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف، فرأيت القوم جالسين في الشمس يستمتعون بأشعتها، ونحن في مثل هذه الساعة نكون في بلادنا قد صلينا صلاة العشاء، ولكن غروب الشمس يتأخر عندهم في أواخر الربيع وأول

الصيف تأخراً عظيماً.

ومن اللطيف في الأمر أنني رأيت عصافير من العصافير الدورية التي نعرفها في بلادنا، وقد نفشت الذكور منها ريشها استعداداً للإفراخ، وهي تفعل لذلك ما تفعله العصافير عندنا في أول شهر آذار الذي هو مارس فكأن الفرق بين موعد تفريخها هنا وهناك هو شهران.

وفي المساء كان الحديث على العشاء هو حديث الرفاق عما رأوه في هذا السيرك الروسي العجيب الذي ألحوا على أن مشاهدته مهمة لما فيه من عجائب الحركات الإنسانية البهلوانية، والحيوان الغريب المدرب.

يوم الأحد ١٨ شعبان ١٤٠٦ هـ ـ ٢٧ إبريل ١٩٨٦م.

عودة إلى الجولة السياحية:

برنامج هذا اليوم هو المقرر في الأصل في زيارتنا لمدينة (لينين قراد)، وذلك يشتمل في أوله على زيارة المقبرة التذكارية للذين ماتوا في حصار الألمان لمدينة لينين قراد، كما يشتمل في آخره على الصلاة في جامع لينين قراد، والاجتماع بالإخوة المسلمين هناك.

غير أننا أضفنا إليه اليوم زيارة قصر الشتاء، لأننا زرنا قصر الصيف بالأمس، وإن كان قصر الشتاء الذي سنزوره اليوم ليس كقصر الصيف الذي زرناه بالأمس، لأن قصر الصيف الكبير يبعد عن لينين قراد بمسافة ٤٠ كيلو متراً، وهو كبير لأنه كان لبطرس الأكبر.

أحضروا اليوم دليلة سياحية غير دليلة الأمس، وهذه التي معنا اليوم ليس فيها من المظهر الروسي الغليظ شيء، فهي رشيقة، وتبدو كما لو كانت يوغسلافية، وقد فهمت السبب في ذلك عندما قالت: إنها مختلطة ما بين الروس والأوكرانيين. والأوكرانيون - أهل أوكرانيا - هم من الأجناس السلافية، أو هم مصنفون معهم، ويغلب عليهم الاعتدال في الأجسام والجمال في الأشكال.

ولكن مخبر هذه غير مظهرها، فهي أقل إتقاناً للإنكليزية من الأولى، وربما كانت أقل ذكاء منها، واسمها (آنا)، وهي أيضاً تقول إنها ليست شيوعية، وتوقفت في الإجابة على كونها متدينة، فلم تنف أو تثبت.

سار الموكب من فندق (أوربسكايا) فمر بنهر (ينوا) أكبر أنهار لينين قراد، ورأينا من هناك على البعد منارة المسجد الجامع شامخة، ولكننا سنؤجل زيارته إلى ما بعد.

ثم سلكنا شارع (كيروف) وقطعنا نهراً بعد نهر على جسر يليه جسر حيث أخذنا نساير نهراً آخر.

وقل في الحدائق في هذه المدينة ما قلته في الأنهار حيث رأينا حديقة ما لبثت أن أعقبتها حديقة أخرى، فحديقة ثالثة. وهكذا.

وكل الحدائق هامدة الأشجار، ليست فيها ورقة خضراء لأن عهدها بالدفء قريب، بعد ليل الشتاء الثالج الطويل.

وتعددت كذلك رؤية الأبنية الحكومية الضخمة التي يسكن فيها الناس تؤجرها عليهم، تعطي الواحد ما حدد له من المساحة وهي ٩ آمتار مربعة لا تزيد، ومع ذلك خيل إلينا أن عدد هذه (العمارات) يزيد ويزيد، وذلك لكثرتها وضخامة أبيتها، إلا أن الشعب كثير إذ يبلغ عدد سكان مدينة لينين قراد ستة ملايين نسمة لا يسمح لواحد منهم أن يبني له بيتاً واحداً منفرداً في المدينة أو ما قرب منها. وإنما كل الأرض الصالحة للبناء أو التي يجري استصلاحها لذلك هي ملك للحكومة، والحكومة وحدها هي التي تستطيع البناء عليها.

ورأيناهم يستعدون منذ الآن للاحتفال باليوم الأول من (مايو) - أيار - الذي يسمونه عيد العمال رغم أنه قد بقي على حلوله أيام.

وذلك برفع الأعلام على الأبنية الهامة وفي الحدائق والميادين.

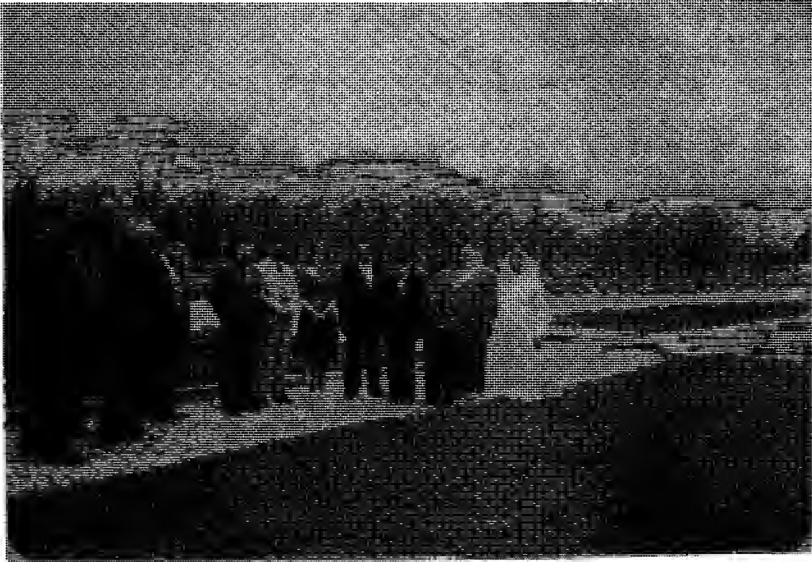
المقبرة التذكارية:

وقد ذكرت الدليلة اسمها بأنه المقبرة الوطنية التذكارية.

وهي تشبه الأفنية المكشوفة الواسعة التي تتألف من عدة أجزاء بعضها متصل ببعض يوصل إليها أول الأمر من جهة الشارع مع فناء مكشوف في أوله معرض في قاعة وعدة حجرات مخصصة لعرض رسومات وبيانات توضح حالة

الحصار، وكيفية دخول الناس بعده.

بدأنا أولاً بزيارة هذه المقبرة التذكارية التي ليس فيها من مظاهر القبور شيء رغم كونها قد دفن فيها عدد كبير من الناس فهي تذكارية لم تذكر فيها أسماء المقبورين من أجل أن يزورها أقارب الجميع، ولا تقتصر زيارتها على من يكون لهم أقارب مدفونون ومذكورة أسماؤهم.



الوفد مع الدليلة في المقبرة التذكارية في لينين قراد

وكالعادة عند الروس في الأماكن ذات المكانة والاحترام في نفوسهم فإنهم يجعلون لها أفنية واسعة ذات درج عظيم يكون في عرض الفناء المكشوف، ثم يصعد منه إلى المكان المقصود.

وهنا ينزل منه إلى درج في فناء واسع أخفض قد فرشوا وسطه بالرخام، وتحيط به أشجار حديقة واسعة ذات أشجار ملتفة مثل منطقة لينين قراد التي هي كانت في الأصل غابات ملتفة، ولا تزال الأماكن المكشوفة منها مليئة

بأشجار الغابات، وأمام الداخل لهذه المقبرة لوحة كبيرة تمثل أماً تضع الزهور على قبر ولدها، وتحتها أبيات شعرية بالروسية تمجد صمود أهل المدينة لشاعرة اسمها (آنا).



على درج المقبرة مع الأخوين المسلمين اللذين حضرا الحصار الألماني، وأعضاء الوفد المرافق لنا

أخبار الحصار:

قاوم أهل (لينين قراد) غزو الألمان مقاومة بطولية سمعنا بها خلال الحرب العالمية الثانية، وقرأنا عنها بعد ذلك، ولكن التفصيل الذي ذكرته الدليلة، وشاهدنا ما يمثله فاق ما كنا قد سمعناه.

قالت الدليلة: لقد خسرت مدينة (لينين قراد) مليون إنسان خلال الحصار، وقد دفن في هذه المقبرة حوالي أربعمائة وسبعين ألف شخص، ومع

ذلك تعتبر هذه المقبرة تذكارية رمزية لأنه ليس كل الهالكين خلال الحصار دفنوا، فهم كانوا أكثر من ذلك، ولم يكن باستطاعة الأحياء أن يدفنوا كل الأموات.

وذكرت أن الحصار بدأ في عام ١٩٤١م، واستمر ٩٠٠ يوم، أي سنتين و١٨٠ يوماً.

وذكرت أن الهجوم الألماني الأول أسفر عن قتل سبعة عشر ألف شخص من أهل المدينة.

وقالت الدليلة: لقد اجتمعت قسوة الجو في تلك السنة مع قسوة الغزاة فانخفضت درجة الحرارة إلى أربعين درجة مئوية تحت الصفر، مع عدم وجود الكهرباء، لأن محطاتها خربت، واجتمع أيضاً مع البرد الجوع حيث مات قسم كبير من الناس من الجوع والبرد، وانضاف إلى ذلك انتشار الأوبئة في أول الوقت لأن مياه الشرب كانت ملوثة.

وذكرت أن المجاعة انتشرت في المدينة حتى كان نصيب الشخص من الطعام لا يتعدى ١٢٥ قرام في اليوم ما عدا العمال فإنهم يعطون ٢٥٠ قراماً وذلك لكونهم يعملون عملاً شاقاً يحتاج إلى مزيد من الطعام.

وذكرت أن هذا الطعام القليل الذي هو قطعة من الخبز فقط ليست كلها من الدقيق، وإنما تبلغ نسبة دقيق القمح فيها ٤٠ ٪ ، وباقيه مواد مختلطة مجتمعة.

وكان صنع الخبز مشكلة كبيرة لأنه يتطلب قطع الأخشاب وإحضارها، وليس في الناس قدرة على ذلك.

وقد مات عدد كبير من الناس بسبب البرد والمرض والجوع إضافة إلى من يقتلهم الألمان في الحرب. حتى إنه أحصيت عشرة آلاف جثة في يوم واحد، ولا يستطيع أهل الميت حمله، وإنما يلقونه فيأتي المتطوعون ورجال الإدارة

ويحاولون ضمه إلى غيره من الموتى، وتكويم جثثهم تحت الثلوج إلى أن يأتي الدفء فيستطيعون الحركة وسحبها إلى المقبرة الجماعية هذه إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وذكروا أن المدينة كانت محاصرة من جميع الجهات إلا جهة واحدة من بحيرة كان الألمان لا يستطيعون أن يجروا آلياتهم الكبيرة عليها، وإن هذا الطريق الذي يأتي عبر البحيرة كان هو الطريق الوحيد الذي تأتي منه النجدات القليلة من الطعام والأسلحة الخفيفة من خارج لينين قراد، ولذلك أسموا هذا الممر من البحيرة بطريق الحياة، حتى الماء النقي كانوا يأخذونه من تحت الثلج من البحيرة هذه.

وذكرت الدليلة أن السيارات التي تأتي بالطعام والأسلحة أو آي شيء آخر كان لا يصل إلا ثلثها في العادة، أما البقية فإن الألمان كانوا يدمرونها قبل أن تصل.

وذكرت الدليلة أن الناجين من الحصار أوقدوا ناراً في آخر أيام الحصار وجعلوها متقدة دائماً، هيأوها من أجل أن يشعلوا النار في بقية المدينة أمام وجوه الألمان إذا ما استطاعوا دخولها ولم يمكن إنقاذها منهم.

ولذلك جعلوا شعلة من النار تتقد في ركن من هذه الحديقة يتعهدها الناجون من الحصار حتى الآن.

شهود من المسلمين:

كان يرافقنا في الذهاب إلى هذه المقبرة وجولة اليوم عدد من المسلمين، منهم الشيخ جعفر بن نصيب الله إمام جامع لينين قراد، وأشخاص آخرون.

عندما سألت عما إذا كنت أستطيع أن أقابل أحداً ممن شهدوا حصار لينين قراد من أهلها سارع الإخوة المسلمون فقالوا: نعم، ومن المسلمين أيضاً.

ومعنا الآن اثنان منهم من إخواننا المسلمين، هما هذا الحاضر معنا الأخ (علي فخر الدين)، وهو رئيس جمعية مسجد لينين قراد، ونائبه في رئاسة جمعية المسجد الأخ (عثمان محمد ولي)، وعندما اخبرهما الإخوة بما قلت رفع الأخ عثمان محمد ولي طرف السترة التي كان يرتديها عن كتفه يرينا الأوسمة والنياشين التي حصل عليها من الحكومة الروسية لقاء شجاعته وبطولته خلال حصار (لينين قراد)، ومنها وسام الحرب الوطنية العظمى كما يسمونها هنا، ويريدون بها الحرب العالمية الثانية.



يضعون الزهور على قبر الجندي المجهول في لينين قراد والمؤلف واقف بينهم يتأمل

وكنت لاحظت في عدة مناسبات أوسمة أو نحوها تكون معلقة على أكتاف جماعة من الإخوة المسلمين الذين يسلمون علينا، أو نجتمع بهم في المساجد، فكنت ظننتها في أول الأمر من شعارات الحزب الحاكم أو نحو ذلك، ولكنني عرفت أنها أوسمة ونياشين منحتها الحكومة السوفيتية لهم

مثل غيرهم من المواطنين الذين بذلوا جهوداً غير معتادة، وأبدوا بطولة عظيمة في الحرب ضد الألمان.

وعلى صدر الأخ (عثمان محمد ولي) أيضاً وسام آخر هو وسام الشرف، وعليه ما رأيته على الآخرين وهو (نيشان) دون ذلك، إذْ هو يعطى لمن اشترك في الحرب وأبدى بطولة فيها.

وعلى صدره إضافة إلى ذلك وسام آخر ليس من الحكومة الروسية التي تعطي الأوسمة لسائر الناس، وإنما هو من رئيس المسلمين، و ذلك لكونه اشترك في إتمام تعمير جامع (لينين قراد) وذلك أن المسلمين وقد نفد ما جمعوه من المال لبناء المسجد أخذوا يبادرون لتعمير المسجد بأنفسهم، ومن أبدى منهم حماسة ونشاطاً في العمل أعطاه المسلمون ممثلين في رئيسهم في ذلك الوقت الذي هو رئيس الجمعية الإسلامية وساماً صغيراً تقديراً لعمله، واعترافاً بجهده في إعادة تعمير المسجد.

وقد كتب تاريخ الوسام باللغة العربية وإنه في ٥ صفر عام ١٣٢٨هـ. أي منذ ثمان وسبعين سنة، وقد سألت الأخ عثمان عن سنه الآن فتلعثم ثم قال: ٨٦ سنة ست وثمانون سنة، ولا شك في أن تاريخ الوسام سابق لإعطائه لهذا الأخ الكريم إذا كانوا هيأوه في ذلك التاريخ، ثم أخذ رئيس الجمعية يمنحه بعد ذلك ولعدة سنوات لمن يستحقه من المسلمين.

وعلى ذكر وسام البطولة الذي حصل عليه هذا الأخ المسلم أخبرنا هو وإخواننا المسلمون المرافقون أن عدداً كبيراً من المسلمين حصلوا على أوسمة البطولة في الحرب، وحملوا لقب بطل الاتحاد السوفييتي لشجاعتهم في الدفاع عن الوطن.

وعندما سألت هذين الأخوين المسلمين عما ذكرته الدليلة أجابا بأنه صحيح، وأنهما قد عايشاه لأنهما كليهما قد شهدا الحصار.

وقد أسرع هذان الأخوان وغيرهم بوضع باقة من الزهور على هذا الرمز الذي يرمز لمئات آلاف من القبور في هذه المقبرة التذكارية لأن لهما فيها أقارب لا يعرفونهم، ولا يدرون أين مقابرهم، لأن المقبرة كانت جماعية مختلطة، وبعض الموتى تحللت جثثهم، أو تمزقت فلم تدفن فيها، ولكنهم لا تعرف أسماؤهم.

هذا وقد حفلت المقبرة بزوار كثير بعضهم من السياح، وبعضهم من أنحاء الاتحاد السوفييتي.

وبعد التقاط الصور التذكارية وبخاصة مع الأخوين المسلمين اللذين نَجَوَا من حصار (لينين قراد) هذا بل من معركة لينين قراد التي لم تقتصر على الحصار، وإنما سبقته معارك حربية منها معركة الهجوم الأول. عدنا إلى قاعة الصور والرسوم التي توضح بعض المعلومات الواردة هنا عن المعركة والحصار، ومنها صور لجثث فوق الثلج، وصورة الهجوم الألماني الأول الذي استمر تسع ساعات وقتل فيه سبعة عشر ألفاً من أهل المدينة، ورسم للمنطقة التي يقع فيها فندقنا وقد خرب بعضها.

ومن الصور المؤثرة صورة طفلة صوروا معها مذكراتها في أوراق صغيرة كانت تدون فيها مشاعرها والوقائع التي تحصل لأسرتها أثناء الحصار بطريقة بدائية مختصرة، وهي مكتوبة بالروسية، ترجمها لنا إخوتنا، وفيها مثلاً: في يوم كذا ماتت جدتي فلانة، وفي يوم كذا توفيت أختي فلانة، ولم نستطع تحريك جثتها لأنه ليس لدينا أحد يحملها، فأمي مريضة، ووالدي يدافع عن المدينة. ثم ذكرت أنه في يوم كذا عادوا بوالدي مصاباً في الحرب، وبعد ذلك بيومين قالت: إنه مات والدي. ثم بعد ذلك ذكرت جميع أفراد أسرتها ماتوا، وأنها التجأت إلى جيران لها بقيت منهم في البيت بقية.

إلى قصر الشتاء:

كنت قد زرت قصر الشتاء في مدينة بكين عاصمة الصين، وكانت زيارتنا لقصر الشتاء في آخر فصل الشتاء، بل أول فصل الربيع في هذا الشهر شهر إبريل، ولكن كان الجو بارداً ماطراً مظلماً مما جعل زيارة قصر الشتاء في ذلك الجو الشاتي تكاد تكون حقيقية.

وفي الشهر هذا نفسه سنزور قصر الشتاء في هذه المدينة، ولكن الجو شامس دفئ لا يعطي صورة عن الشتاء، وهذا التحسن في الجو كان منذ فترة قصيرة جداً كما أخبرونا به.

اخترق الموكب شوارع تجارية فاخرة المظهر إلا أنها فقيرة في المخبر، واليوم هو الأحد يوم العطلة الأسبوعية لذلك كان أغلبها مغلقاً.

وسألت الدليلة لمناسبة أبنية حكومية رأيناها عما إذا كانت تسكن وحدها، فذكرت أنها تسكن مع أخ لها، وأنها غير متزوجة، وأن مشكلة المساكن في (لينين قراد) لم تحل تماماً حيث ينتظر من يطلبون المساكن فترة حتى يحين دورهم في الحصول على الشقة التي يستحقونها حسب عدد أفراد الأسرة، إلا أنها أضافت قائلة: إن المشكلة خفت حدتها كثيراً.

كنا نسرع السير لأن لدينا موعداً مع الإخوة المسلمين في مسجد (لينين قراد)، وسوف نصلي معهم الظهر ونتكلم فيهم، غير أننا وجدنا الشوارع المعتادة التي تؤدي إلى قصر الشتاء مغلقة، وعندها أعداد كبيرة من الشرطة يمنعون السيارات من سلوكها، وذلك استعداداً منهم للاحتفال بأول مايو؛ حيث يزينون بعض الميادين، ويهيئونها للاحتفال.

وذهبنا مع شوارع أخرى وجدناها مغلقة كذلك، فنزل الإخوة وكلموا ضابطاً للشرطة يخبرونه بأننا وفد رسمي، وأن وقتنا ضيق، ويجب أن نجد طريقاً قريباً يوصل إلى القصر، فلم يجد ذلك به نفعاً.

ثم تكلموا مع ضابط آخر في شارع آخر، فلم يسمح لسياراتنا بالمرور، وإنما دلهم على طريق وحيد جانبي فيه جزء ذو اتجاه واحد لسيارة واحدة سمح لنا باستعماله بالعكس، أي عكس المرور المقرر فيه.

ومررنا بميدان صغير عليه كنيسة مشرفة ضخمة للأرثوذكس لم يجر عليها تغيير، ولا أدري أهي مفتوحة للمرتادين أو لا، ويذكر أن مذهب عامة المسيحيين هنا بل في جميع أنحاء البلاد الروسية كان المذهب الأرثوذكسي، وكان قيصر روسيا يعتبر حامي الكنيسة الأرثوذكسية.

ولاحظنا هنا كثرة المشاة في هذا اليوم الذي هو يوم عطلة، كما رأينا خطوط العربات الكهربائية (الترامواي) لا تزال موجودة ومستعملة في (لينين قراد) إلى جانب أنواع النقل الأخرى مثل الحافلات الكبيرة المعتادة، والحافلات الكهربائية (الترولي باص).

ويلاحظ المرء كثرة وسائل الانتقال العامة هذه وقلة السيارات الصغيرة الخاصة، وهذا شيء شاهدناه في كل البلاد السوفيتية من توفير الضروريات، والنقص في الكماليات، وفي هذه الشوارع رأينا جنوداً يتدربون ذكر المرافقون انهم يتدربون على كيفية العمل في الأعياد في هذه المنطقة.

ويبدو على هؤلاء الجنود العناية بالمظاهر والصحة العامة، وشدة التدريب، لأن النظام الصارم في الحركات والخطوات بل حتى النظرات هو السائد بينهم.

وصلنا القصر من جهة الغرب بعد عدة محاولات، وكان المقرر أن نصل إليه من جهة الشرق، لأن جهة الغرب فيها بعد الشارع الذي يقع عليه القصر مساحات شاسعة تقع على ضفة نهر اينوا ولا تدخلها السيارات.

وذكرت الدليلة أن هذا القصر مؤلف من خمسة أبنية تكاد تعتبر منفصلة بعضها عن بعض، وإنه بني في الأصل من أجل الملكة إليزابيث،

ولكنه سلم بعد ذلك للقيصرة كاترين الثانية في عام ١٧٥٢م.

أول ما تدخله تقابلك فيه الفخامة والسعة وشواهد البذخ في الإنفاق.

وكانت المشكلة فيه هي مشكلة الازدحام، فقد كان مزدحماً بالزوار، وكانت ممراته وحتى درجاته مليئة بحيث يصعب التحرك فيها في بعض الأحيان رغم سعتها.

وأكثرهم من ذوي المظهر الأوروبي، يليهم أهل الجنس الأصفر من اليابانيين ومن يشبهونهم أو يقربون منهم وهم جميعاً من السياح.

وأما الجنس العربي الأسمر، والذي يميل إلى السمرة فإنه قليل هنا وإن كان موجوداً، والأقل منه الجنس الأسود حيث لم أر في القصر كله من السياح إلا شخصين أسودين.

قاعات القصر:

لكل قاعة في القصر اسم خاص بها يعرفونها به، ويذكرون أمرها على أساسه فكانت القاعة الأولى التي دخلناها ونوهت بها الدليلة قاعة العرش رأينا فيها كرسي القيصر، ولم أره فخماً بالقدر الذي عليه القصر من الفخامة، وعلى سبيل المثال هو دون الكرسي الذي كان يجلس عليه إمبراطور الصين في قصر الشتاء في بكين بكثير.

وفوق كرسي القيصر لوحة تمثل القيصر (بطرس) مع آلهة الحكمة بزعمهم، وهي مرسومة بريشة أحد المشاهير من الفنانين.

وأما القاعة نفسها فإنها ممتازة، ثم قاعة أخرى تمثل رسوماً من محافظات القيصرية الروسية التي كان يبلغ عددها اثنتين وخمسين محافظة.

ثم قاعة خصصت لتخليد أبطال الحرب الروسية الفرنسية التي عرفت بحرب نابليون عندما هجم على البلاد الروسية، وتضم صوراً ورسوماً وأسماء

خاصة بذلك.

ومررنا مسرعين بجناح طويل لم توضح الدليلة أمره لأننا كنا في عجلة من أمرنا.

ومن الأشياء اللافتة للنظر في قاعة أخرى من القصر تمثال بطرس الأكبر بشعره الوفير، وهو يصنع حذاء له ذكروا أنه صنعه بنفسه لنفسه، وأنه كان يتقن أربعين حرفة رغم كونه قيصراً عظيماً بالنسبة إلى الممالك في ذلك الوقت، وإن لم تكن القيصرية الروسية وصلت إلى ما وصلت إليه الآن في حكم خلفاء القياصرة من الشيوعيين من الاتساع، وحتى من القوة والصولة.

وذكروا بهذه المناسبة أنه مات وعمره خمسون سنة عندما كان يتفقد مناطق من بلاده غمرها الفيضان، لأنه غلط فركب على السنان فجرحه فمات من ذلك الجرح.

هكذا قالوا، والله أعلم.

ويبدو من تمثاله شاباً أو ربما كان ذلك التمثال قد صنع له قبل موته بمدة، أو ربما كان قوي البنية لا تظهر عليه الكهولة، مع أن سن الخمسين لكثير من الناس هي خاتمة مرحلة الشباب، وخاتمة الشيء جزء منه.

ودخلنا بعد ذلك قاعة تسمى (غرفة الطعام البيضاء)، وقاعة أخرى تسمى قاعة الزمرد لأنها ذات أعمدة خضر في لون الزمرد، وليس ذلك لكونها مزينة أو محلاة بالزمرد الحقيقي.

وقال أحدهم: إن هذه الأعمدة أقيمت من الحجر الزمردي الأخضر، وهو حجر معتاد إلا أن لونه أخضر، وذكروا أن في القاعة ما وزنه ستة أطنان من هذا الحجر الزمردي.

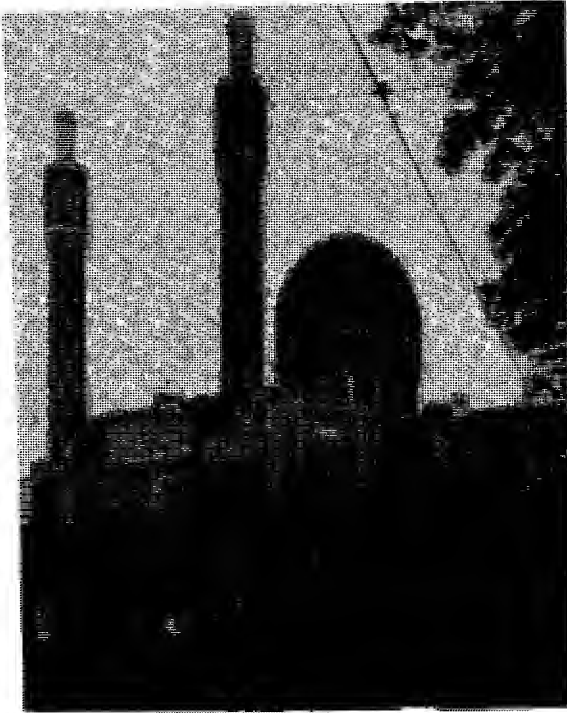
ثم قاعة الموسيقى، وكانوا يستجلبون إليها الفرق الموسيقية العالمية، وهي فاخرة إلى درجة أنها مزينة بأشياء من التماثيل والزينة من الفضة التي

يبلغ وزنها طناً ونصف الطن.

وبعد هذه الجولة القصيرة في قصر الشتاء خرجنا عند مدخله، والتقطنا صوراً تذكارية لواجهته وللأفنية المكشوفة والحدائق الواسعة التي تفصل بينه وبين نهر(نيوا)الذي يعتبر القصر واقعاً على ضفته في منظر أنيق، وجو ربيعي جميل.

إلى جامع لينين قراد :

أبصرناه قبل الوصول إليه بمسافة طويلة، وذلك لكونه ذا منارة عالية وقبة مرتفعة مهيبة، ويقع على ضفة نهر (نيوا) وليس ملاصقاً للنهر، غير أن المسافة التي تفصل بينه وبين النهر ليست فيها أبنية مرتفعة، وأكثرها أشجار ومساحة مكشوفة.



جامع لينين قراد

عندما وصلنا المسجد وجدنا جمعاً حاشداً من المسلمين قد اصطفوا

صفين بنظام، صف للرجال، وآخر للنساء، فسلم علينا كبار المسلمين، والباقون ظلوا واقفين في أماكنهم وقد امتد صفاهم من موقف السيارات في داخل الفناء الخارجي للمسجد الذي تحيط به حديقة واسعة ليس فيها حشيش غامر، وإنما أشجار ضخمة عادية - نسبة إلى عاد الذي يدل على القدم، وليس إلى الاعتياد - وبقية الصف عند باب مدخل المسجد نفسه.

وكانوا على غاية من التأثر، وبخاصة النسوة، إلا أن أكثر الحاضرين سواء أكانوا من الرجال أم من النساء هم من المسنين، والشباب فيهم قليل جداً.

في مكتبة المسجد:

فادنا الأخ الشيخ (جعفر بن نصيب الله) إمام المسجد وخطيبه إلى مكتبة المسجد، وهي غرفة من عدة غرفات، وأبنية تابعة للمسجد، وهي في الطابق الأول.

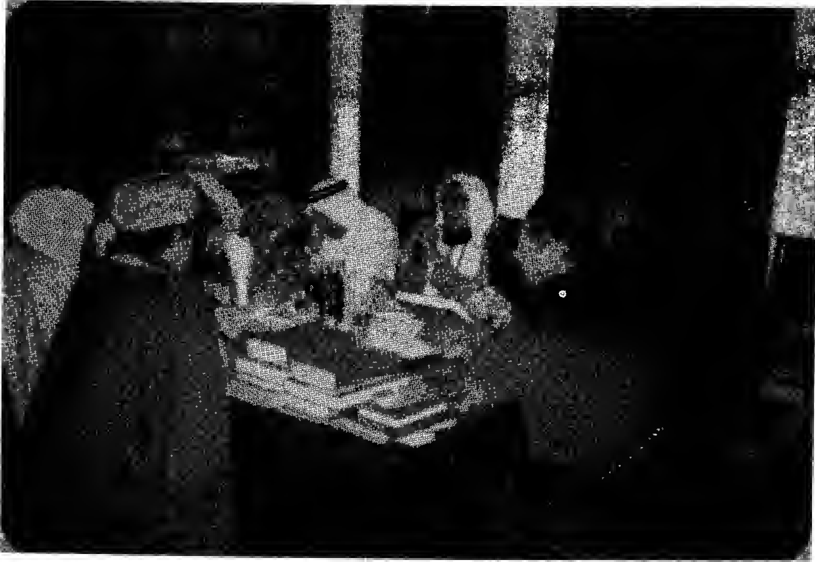
وقد أعد فيها مائدة مستطيلة حافلة بالفاكهة والمشروبات الباردة والساخنة، وجرت في هذه القاعة محادثات مفيدة جداً مع الأخ جعفر نصيب وبعض كبار المسلمين الحاضرين ومعنا المرافقون في الرحلة كلها، وعلى رأسهم الشيخ طلعت تاج الدين رئيس الإدارة الدينية التي تشرف على هذا المسجد، لأنه واقع ضمن القسم الأوروبي من الاتحاد السوفييتي، وحصلنا على معلومات موثقة عن أوضاع المسلمين في (لينين قراد).

يقدر عدد المسلمين فيها بنحو ثلاثين ألفاً، ولهم مسجد واحد.

وتحدث الشيخ جعفر بن نصيب الله فقال: كان المسلمون في لينين قراد يقيمون صلاتهم في مسجد خشبي في إحدى ضواحي المدينة، وتقدم العقيد دولت بابا حسن والسيد عطاء الله باين اللذان شكلا لجنة إسلامية من ٢٠٠ شخص بطلب إلى قيصر روسيا في عام ١٩٠٥م لإعطائهم أرضاً لبناء المسجد،

ووافق القيصر على الطلب شفوياً، وطلب منهم وضع التخطيط والتصاميم اللازمة لبناء المسجد، ومن خلال ٤٥ تصميماً قدم إلى لجنة بناء المسجد تم اختيار نموذج هذا البناء القائم الذي يشبه إلى حد ما مبنى ضريح الأمير تيمورلنك الموجود في سمرقند.

ثم جمعت لجنة بناء المسجد نحو مليون روبل من كافة المسلمين، ووضع الحجر الأساسي له في عام ١٩١٠م. وافتتح المسجد لصلاة المسلمين لمدة أسبوع واحد بمناسبة احتفالات الإمبراطورية الروسية بعائلة رومانوف القيصرية عام ١٩١٤م، ولم يكتمل بناء المسجد إلا في عام ١٩٢٠م. ويقول الإمام إنه منذ ذلك الوقت لم يغلق المسجد إلا في أيام الحرب العالمية الثانية عند محاصرة ألمانيا النازية لمدينة لينين قراد.



الشيخ جعفر نصيب الله على يمينه المؤلف في مكتبه بجامع لينين قراد

ثم قال الإمام إن الترميم يجري الآن لإصلاح بعض التلفيات التي حصلت بمرور الزمن، وإن الترميم يحتاج إلى أربعة ملايين روبل، وإن الجمعيات

الإسلامية في مختلف الإدارات الدينية في الاتحاد السوفييتي تساهم في تكاليف الترميم.

ثم جرت بعض المناقشات بين أعضاء الوفد وإمام المسجد الشيخ جعفر نصيب الله تضمنت الأسئلة التالية:

س/ ماذا حدث للمسجد القديم الذي كان موجوداً قبل بناء هذا المسجد ؟

ج/ كان المسجد قائماً على أرض مستأجرة فأعيدت لأصحابها بعد بناء هذا المسجد.

س/ كيف يتم تأمين تكاليف الترميم وتأمين احتياجات المسجد ؟

ج/ يتم تأمين ذلك من تبرعات المسلمين، وفي السنة الماضية بلغ إيراد التبرعات ١٢ ألف روبل (فصححه الشيخ طلعت تاج الدين وقال ٢٢٠ ألف روبل)، وحدث أن تبرع مسلم واحد من إحدى القرى بمبلغ ٤٥٠٠ روبل.

س/ كم عدد المسلمين في لينين قراد، وهل هم يتزايدون أم ينقصون ؟

ج/ يقدر عدد المسلمين في لينين قراد بحوالي ٣٠ ألف مسلم، ولا يمكن تحديدهم بالضبط لأن التعداد لا يتم على أساس الدين، ويلاحظ أن عدد المسلمين يتزايدون، وذلك أنه تقام ٣٥٠ صلاة جنازة في المسجد سنوياً، ويتم تسمية ٥٠٠ إلى ٦٠٠ طفل من أولاد المسلمين في السنة.

س/ كيف يحافظ المسلمون على دينهم ؟

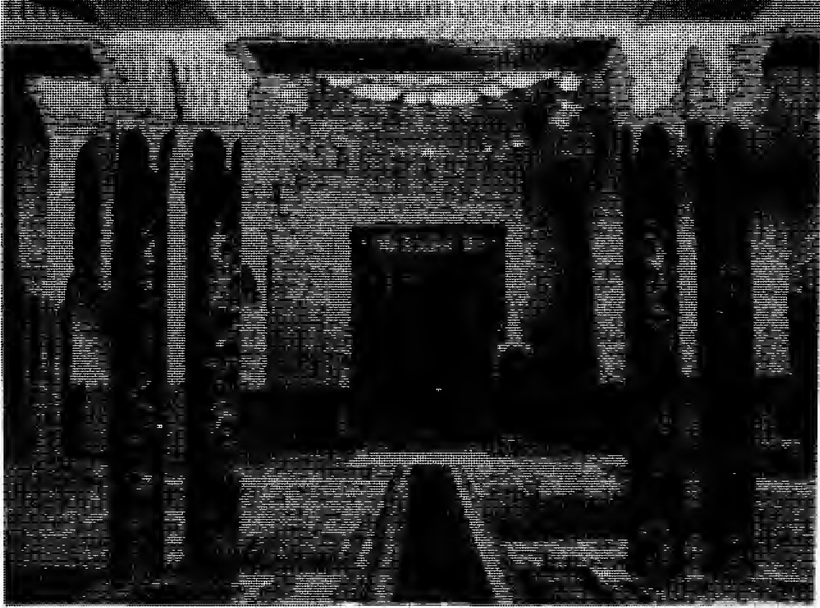
ج/ يتم تعليم الأبناء الدين الإسلامي في الأسرة، وفي صلوات الجمعة والأعياد نلقي عليهم المواعظ والإرشاد، وكذلك نجيب على استفساراتهم الدينية في المنازل والمساجد.

س/ هل يدخل أشخاص جدد في الإسلام ؟

ج/ تأتي روسيات لإشهار إسلامهن بمقدار مائة في السنة، وذلك من أجل الزواج

من المسلمين العرب، وعندما نسألهن عن سبب إسلامهن يجبن بأنهن يرغبن الزواج من الطلاب العرب الذين يدرسون في الجامعات الروسية. ويتم تعليم المرأة بعض أحكام الدين الإسلامي، ثم نقول لمن يتزوجها أن يقوم بتربيتها وتعليمها مبادئ الدين.

وحدث أن تزوجت روسية طالباً عربياً من اليمن، وأسلمت. وبعد فترة مات زوجها وهي لا تزال تحمل الجنسية السوفياتية، فعادت من اليمن، وبعد فترة جاءت إلى المسجد تستفتي هل يمكنها أن تتزوج رجلاً ألمانياً مما يدل على أنها لم ترتد عن الإسلام بعد موت زوجها وعودتها إلى الاتحاد السوفييتي.



محراب جامع لينين قراد

س/ هل يحدث أن تتزوج المرأة المسلمة من غير دينها ؟

ج/ يحدث هذا نادراً، لأن آباءنا وأمهاتنا يعملون للمحافظة على الدين

الإسلامي، ويحرص الوالدان أن يتزوج بناتهما وأبناؤهما من المسلمين.

س/ كم تبلغ نسبة الإنجاب عند المسلمين ؟

ج/ نسبة معدلات الإنجاب عند المسلمين أكثر من سواهم، فقد يكون للأسرة الواحدة أكثر من عشرة أبناء، والدولة تشجع على زيادة النسل، ولكن معدلات الإنجاب عند الروس منخفضة لا تتجاوز الطفلين أو الثلاثة، وقد لا يكون لهما أطفال بالرغم من تشجيع الدولة وإعطاء مكافآت وجوائز للأسر التي تنجب أكثر.

والمسلمون في لينين قراد متعلمون، ولا يوجد بينهم أمي، وفي كلية اللغة العربية ومعهد الاستشراق في جامعة لينين قراد يتعلم الطلاب المسلمون اللغة العربية، ويدرسون القرآن الكريم، ويحفظون بعض سوره، كما يدرسون الحديث والتاريخ الإسلامي، وأحد أبنائي يدرس في هذه الكلية، ويستطيع أن يقوم بإمامة المسلمين، وإلقاء الخطبة في صلاة الجمعة، وأغلب الدارسين في هذه الكلية هم من المسلمين الذين يأتون إليها من مدن بعيدة داخل الاتحاد السوفييتي، والدراسة فيها أفضل من كلية اللغة العربية في جامعة موسكو.

الصلاة في المسجد:

بعد هذا الحديث المفيد ذهبنا لصلاة الظهر والاجتماع بالمسلمين في المسجد، فنزلنا إليه من درج مكتب الشيخ جعفر نصيب الله، ثم خرجنا إلى فناء مكشوف حيث دخلنا المسجد من باب جانبي لأن الباب الرئيسي تحت الترميم والتعمير مثل سائر المسجد الذي رأيناهم يعمرونه من الأرض إلى سقفه الشامخ، ولما أبديت إعجابي بعلو سقفه، وسموق منارته، وارتفاع قبته مما لم أكن أتصور وجوده في هذه البلاد التي هي بلاد أقليات إسلامية، قال الشيخ طلعت تاج الدين: إنه أكبر مسجد في إدارتهم، يقصد في المنطقة التي هي تحت إدارتهم من بلاد الروس.

وعند الدخول إلى المسجد كان منظره من الداخل هائلاً بارتفاع قبته، وتجهيزه الكامل، وأعمدته التي تحمل القبة، وهي ذات لون زمردي أخضر بدت في عيني أجمل من الأعمدة التي في قاعة الزمرد في قصر القيصر، والفسيفساء النادرة في جدرانه، وحتى المخمل قد كسوا به ما قرب من المحراب الذي هو واسع أكثر من المعتاد.

وقد فرش المسجد بسجاد جيد، وفي مقدمته سجاد ثمين آهدي إلى المسجد من الدول المختلفة، وفي مناسبات متعددة منها واحدة من إيران، وثانية من الرئيس ضياء الحق رئيس باكستان، وثالثة من العراق، ورابعة من مصر على عهد الرئيس عبد الناصر.

ومن اللطيف في هذا الصدد أننا وجدنا سجاداً فيه مكتوباً عليه اسم وزارة الحج والأوقاف في المملكة العربية السعودية ذكروا أنه أهدي إليهم من إخوتهم المسلمين في فنلندا، ويذكر آن حدود فنلندا قريبة جداً من مدينة (لينين قراد) هذه، وذكر لهم الإخوة الفنلنديون أنهم أحضروه من مكة وأن هذا مما زاد عن حاجتهم.

وفي المسجد ثريا ضخمة مكتوب عليها آيات قرآنية كريمة بخط عربي جميل واضح أن كاتبه تركي، أو متأثر بالخط التركي الحديث.

والثريا كبيرة بحيث سألتهم عن وزنها فأجابوا أنه ثلاثة أطنان ! وقد علقوها بالسقف الأعلى بسلسلة ضخمة من الحديد القوي.

وهذا دليل واحد على عناية المسلمين من أهل هذه المدينة بمسجدهم الذي هو المسجد الوحيد في المدينة.

وذكروا أنهم دأبوا على إنارة هذه الثريا بجميع مصابيحها الكثيرة في رمضان خاصة، أما ما عدا ذلك فإنهم يكتفون بإنارة المصابيح الكهربائية الأخرى الوافرة في المسجد.

وإذا نظر الناظر إلى القبة من داخل المسجد عجب من أن يستطيع المسلمون وهم أقلية عددية قليلة، وفي بلد غير إسلامي بناءها في ذلك الوقت إذ يبلغ ارتفاعها ثمانية وأربعين متراً، وهذا هو ارتفاع القبة، وليس ارتفاع المنارة فهي أعلى من ذلك.

ويقرب إلى الذهن في ارتفاع سقف المسجد وشموخه أن المحراب الذي هو في جزء من جهة القبلة كما هو معروف يبلغ ارتفاعه عشرة أمتار.

ومعلوم أن عشرة أمتار تساوي ارتفاع ثلاثة طوابق من الأبنية الاقتصادية الحديثة.

وذكروا أن المهندس الذي أشرف على بناء المسجد هو مسلم بولندي درس في لينين قراد.

السلام المنظم:

بعد الصلاة وأداء السنة ركعتين قام المسلمون للسلام على أعضاء الوفد في صف طويل منظم هادئ بحيث صافحناهم كلهم بدون زحام، بل الواحد منهم يتلو الآخر.

وهذا بالنسبة للرجال، وأما النساء فإنهن صلين في شرفة خاصة بهن، ولم يتقدمن للسلام في المسجد، وإنما كن مصطفات كما ذكرت عند الدخول.

وأكثر الذين حضورا الصلاة هم من المتقدمين في السن سواء في ذلك الرجال والنساء، بل من الرجال من يبدو عليهم الهرم أو أمراض الشيخوخة.

فقد أحصيت الذين كانوا منهم يصلون على كراسٍ لعدم استطاعتهم ثني مفاصلهم فكانوا عشرة رجال، ومنهم من يجلس على الأرض ولكنه يمد رجله، لأنه لا يستطيع أن يثنيها، ومنهم من يضع كفيه حول أذنيه ليساعده

ذلك على السمع لضعف سمعه، وذكرت بهذه المناسبة السماعات الصغيرة التي تعطى لضعاف السمع عندنا وفي البلدان ذات الاقتصاد الحر، وقلت في نفسي: لماذا لا يستعملونها ؟.

وبدأ بعد الصلاة حفل خطابي في المسجد حيث نهض الشيخ (جعفر نصيب الله) فقدم وفد الرابطة ذاكراً أسماءنا وأعمالنا إلى جماعة المسلمين ثم قال: لقد سبق أن حدثتكم في خطبة الجمعة الماضية عن قدوم وفد من الرابطة والحرمين الشريفين إليكم.

ثم تكلم المفتي الشيخ طلعت تاج الدين عن وصول وفد الرابطة إلى الاتحاد السوفييتي وأنه وصل في ١٥ إبريل ١٩٨٦م وزيارته لبعض المدن والقرى، وشرح لهم أعمال الرابطة وعن استضافتها السنوية لبعثة الحجاج السوفيتية، ثم دعا الله ﷻ أن يتكرر قدوم الوفد وغيره من الوفود الإسلامية من أرض الحرمين الشريفين إلى بلادهم حتى يحصل لهم الخير والبركة.

ثم تحدثت فيجماعة المسجد شاكراً حسن الترحيب وكرم الضيافة، ومشيداً بتمسكهم بالدين، وجهادهم في الحفاظ عليه، وجهودهم المشكورة في ترميم المسجد وإظهاره بالمظهر المناسب.

ثم عودتهم إلى تربية أبنائهم تربية إسلامية صحيحة في البيوت، وتعويدهم على إقامة الصلاة، وتعريفهم بأنهم مسلمون متميزون عن غيرهم، وأنهم جزء من عالم إسلامي كبير كان له الفوز والغلبة في التاريخ عندما أخذ أبناؤه به أخذاً صحيحاً.

وطلبت منهم أن يتعاون الأب والأم على تنشئة الأطفال تنشئة إسلامية، لأن هذه هي الوسيلة المتاحة الآن.

وذكرت لهم أن الأجيال اللاحقة من المسلمين في هذه البلاد سوف تنظر إليهم، وإلى ما يفعلونه في هذا الصدد، فحذار أن يقولوا: إن آباءكم

وأجدادكم قد غرسوا في أولادهم مبادئ الدين الإسلامي الحنيف، وأنكم لم تفعلوا ذلك في أولادكم.

إن من يفعل ذلك منكم فإنه سيتحمل المسؤولية عن ذلك أمام التاريخ، وأمام إخوتكم المسلمين في سائر أنحاء العالم الإسلامي.

وقلت لهم: إن إخوتكم المسلمين ينظرون إليكم خاصة أنتم جيل التحول والتطور هذا، وينتظرون منكم أن يكون أولادكم خلف خير لسلف خير.

وقلت لهم: إن كل مسلم مسؤول أمام الله أيضاً عن نصيحة أخيه المسلم، فإذا لاحظ أن أخاه المسلم لا يحضر إلى المسجد فإنه يجب عليه أن يناصحه، ويبين مزايا الصلاة في المسجد، والحكمة من مشروعيتها، وأن من الحكمة في مشروعية الصلاة أن يجتمع المسلمون ويتعارفوا، وأنها الاجتماع اليومي المتكرر، فقد جاء الدين الإسلامي باجتماعات دورية بين المسلمين من أجل التعارف والتعاون، فكان اجتماع الجيران للصلوات الخمس كل يوم وليلة في مسجد واحد، ثم اجتماع أهل المحلة لصلاة الجمعة مرة في الأسبوع، ثم اجتماع أهل البلدة لصلاة العيدين مرتين في السنة، ثم الاجتماع الأكبر، وهو اجتماع المسلمين كلهم من أنحاء العالم في مكة المكرمة لأداء فريضة الحج التي يجب على المسلمين أداؤها مرة في عمره إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ثم عاودنا تفقد هذا المسجد العظيم من الداخل، وتأمل بنائه السخي الضخم، وتيقنت أنه لو كان بني في عهد الثورة الشيوعية لما استطاع المسلمون أن يبنوه بهذه الهيئة، هذا إن استطاعوا الحصول على الإذن ببنائه.

وتخلل ذلك حديث عن عدد المصلين الذين يحضرون للمسجد، فأفادوا بأن الذين يحضرون للصلوات الخمس ليسوا بالكثير، ويحضرون لصلاة الفجر أكثر من الأوقات الأخرى لأنهم غير مشغولين، وهذا أمر سمعناه من غيرهم من أئمة المساجد في الاتحاد السوفييتي، لأن الذين يعملون لا تتاح لهم فرصة حضور الصلاة.

أما الذين يصلون الجمعة فذكروا أن عددهم يتراوح ما بين ٥٠٠ إلى ٦٠٠ مصلٍ فيهم نسبة كبيرة من الأخوات المسلمات.

وأما في العيدين فإن العدد من النساء والرجال والأولاد يصل إلى خمسة عشر ألف شخص، ويمتلئ بهم المسجد وأفنيته الخارجية.

ولاحظت أن المسلمين رغم كونهم من أهل (لينين قراد) وربما كان بعضهم من أهلها القدماء فإن الغلظ في تقاسيم الوجوه هو السائد، فهم بالروس أشبه منهم بالأوكرانيين، مع أن كثيراً منهم من أصل تتري، أي ليس من الجنس الذي كان أسلافنا العرب يسمونهم بالبلغار واختلط بهم ببعض التتار مع أن أصولهم في الحقيقة تتارية، أو من البلاد التي قدم منها التتار في منطقة تركستان الشرقية، إلا أن الملاحظ أن شقرة الشعر فيهم كثيرة، وأما البياض الذي هو بياض الأوربيين فإنه هو اللون الذي لا لون غيره فيهم.

في بيت الإمام:

مرة أخرى تتاح لنا فرصة زيارة بيت من بيوت المواطنين المعتادة في الاتحاد السوفييتي، وذلك عندما ذهبنا إلى بيت الأخ الإمام (جعفر بن نصيب الله) لتناول الغداء فيه، وقيل لنا: إن الغداء هو ضيافة جمعية المسجد التي يرأسها الأخ (علي فخر الدين)، ولكن لم يذكر لنا ذلك صراحة.

ومع ذلك فإنه من المفهوم أن يكون الأمر كذلك، لأنه من الصعب على فرد ذي دخل محدود أن يقيم مأدبة ضخمة تقدم فيها المآكل الفاخرة الغالية كالكافيار والسمك الذي يبيض ذلك الكافيار، وهو لا يوجد إلا في بحر قزوين.

لذلك رأينا المآدب التي تقام للوفد تكون في بيت متولي المسجد، أو رئيس الجماعة التي تشرف على المسجد، أو تكون في بيت الإمام الذي هو المرشد للمسلمين، وهو المرجع لأهل المسجد الذي يصلهم بالإدارة الدينية

الإسلامية التي تتبعها المنطقة.

ويقع بيت الإمام في شارع (باغاتر)، وهو شارع واسع عليه (العمارات) الضخمة جداً بعرضها وطولها الذي يحكي في بعض الأحيان الهضبات المتواضعة من الجبال الصغيرة.

فدخلنا في عمارة ضخمة ذات مصاعد صغيرة، لم تتسع للمرافقين، ففضل بعضهم الصعود من الدرج.

ووجدنا بيته مؤلفاً من أربع غرف صغيرة يؤدي إليها ممر ضيق، وليست فيها قاعة توزيع، وفيها مطبخ متوسط، وحمامان صغيران جداً، كلاهما دون حوض أي مغطس للاغتسال.

وذكر لنا الإمام جعفر أنه حصل على هذه الشقة المؤلفة من أربع غرف لأن عدد أفراد أسرته كان ستة.

وقد تزوج منهم اثنان، وهما ابنه وابنته، فإذا طلب من يتزوج من الأولاد مسكناً خاصاً به وحصل عليه، ونقص بذلك عدد أفراد السرة، فإن الساكن الذي أصبح يسكن في منزل تألف من أمتار أكثر مما صارت أسرته تستحقه يخير في أن يخرج إلى منزل أصغر منه، أو تزاد عليه أجرة الأمتار الزائدة زيادة قليلة.

وبيت الشيخ جميل مرتب ليس فيه من عيب إلا الضيق، وهو ضيق أقل مما كنا قد سمعنا به عن ضيق البيوت في الاتحاد السوفييتي، ولا أدري ما إذا كان الشيخ الإمام قد ميز عن غيره بالسكن في هذا البيت لأهمية وظيفته كما ميزوا كبار الموظفين، ومن يلحقون بهم، وإن لم يكونوا موظفين في الدولة مثل رؤساء الإدارات الدينية.

وعندما أبدينا إعجابنا بجمال البيت من الداخل قال الشيخ جعفر: إنه هو الذي رتبه وزينه من الداخل، فالدولة ليست مسؤولة عن داخل الغرف في

المنازل، وإنما هي مسؤولة عن إصلاح المرافق.



في منزل الإمام جعفر نصيب الله إمام جامع لينين قراد

في متجر روسي:

كثيرون يشتاقون لدخول المتاجر الروسية لكي يعرفوا ما تحتويه من البضائع، ويروا كيف تدار هذه المتاجر لأنها كلها حكومية مملوكة للدولة، وجميع الباعة فيها هم موظفون عند الدولة.

لذلك ذهبت مع الشيخ سالم بن عبد الله السالم عضو الوفد لتمشية فيما حول الفندق، فدخلنا عدة متاجر كبيرة، وهي في مساحاتها الواسعة تشبه المتاجر الكبيرة في البلدان الغربية، ولكن البضائع التي فيها تقل عن البضائع الموجودة في المتاجر الكبيرة في البلدان ذات الاقتصاد الحر بكثير.

وليس الأمر مقتصراً على مقدار البضائع، وإنما هو الاختلاف أيضاً في كيفية البضائع ونوعها، فهي هنا أكثرها من الضروري؛ سواء في ذلك الآلات

أو الأدوات أو الملابس.

وكنا نتوقع أن نرى عنواناً لما في أذهاننا عن التقدم التقني الهائل الموجود في الاتحاد السوفيتي؛ غير أنه تبين لنا أن ذلك موجود في إدارات خاصة، وفي مناطق محدودة، ولأغراض مهمة/ وأما عامة الشعب فإنهم يعيشون كما يعيش سكان البلدان النامية في العالم الثالث، ويستعملون من الأدوات ما يستعمله أولئك، ولا تتوفر لهم من السلع ما يتوفر للأفراد في البلدان الغربية الأوروبية فضلاً عن الأمريكية.

وهناك شيء مهم جداً وهو غلاء البضائع التي رأيناها سواء أكانت ملابس، أو أحذية، أو أدوات، أو آلات ليس بالنسبة إلى دخول الأفراد المحدودة، وإنما أيضاً حتى بالنسبة إلى الأسعار العالمية، أو الأسعار التي توجد لها مثيلات هذه السلع في البلدان الحرة الاقتصاد كبلادنا.

فمثلاً اشترى أحد الإخوة المرافقين الروس وهو الشيخ (شامل) مظلة صغيرة، وهي الشمسية بخمسة وأربعين روبلاً، وتساوي بالصرف الرسمي حوالي ٧٠ دولاراً أمريكياً، وبالسوق السوداء التي صرف بها بعض المرافقين لنا اثنين وعشرين دولاراً أمريكياً، وهذا معناه أن ثمنها على أرخص الافتراضات يساوي سبعين ريالاً سعودياً، مع أن مثيلتها تباع في المملكة العربية السعودية بعشرة ريالات، أي أقل من ثلاثة دولارات أمريكية، لأن هذه المظلة الروسية ليست من المظلات الفاخرة، فإذا أضيف إلى ذلك كون دخل الفرد محدوداً لا يستطيع أن يزيد فيه صار ثمنها أغلى من ذلك بكثير بالنسبة إلى البلاد التي يزيد دخل الفرد فيها عن دخل الفرد في الاتحاد السوفيتي بكثير.

وقل مثل ذلك عن حذاء غير جيد ثمنه ٤٥ روبلاً أيضاً، ولا يزيد ثمنه عن ٢٥ ريالاً سعودياً.

وقل مثل ذلك عن الآلات والأدوات الحديدية الصغيرة كالمفاتيح

والسلاسل والمقابض، وأدوات السيارات، وكان زميلنا الشيخ سالم يعرف أثمانها في بلادنا، ويعجب من غلائها الفاحش هنا.

والشيء المهم الذي يلاحظه الداخل إلى هذه المتاجر الحكومية هو الفارق في الاستقبال بين الباعة هنا والباعة في البلدان الحرة في اقتصادها، فالباعة في هذه المتاجر السوفييتية وأغلبهم من النساء، بل إنك تدخل متجراً كبيراً فلا ترى فيه من الباعة الذين يبلغ عددهم العشرات غير النساء أنهن لا يفرحن بدخول المشتري، فضلاً عن أن يرحبن به أو يتبسمن له، بل إن بعضهن يقف الشاري أمامها فترة من الوقت قبل أن تمن عليه برفع رأسها إليه وسؤاله عما يريد، وإذا اشترى شيئاً فإن ذلك يتم بطريقة آلية، بل ربما ظهر له ان البائعة كأنما تمن عليه بذلك.

وهذا سببه مفهوم، وهو أنها ترى في الشراء من المتجر مجرد إضافة جهد جديد لها، لا سيما في آخر اليوم، وهو الوقت الذي حضرنا فيه، لأن البضائع للدولة، والمال الذي تشترى به البضائع يعود إليها، والبائعة أو البائع مجرد أداة للبيع بيد الدولة.

ودخلنا متجراً بعد آخر نبحث عن شرائط ملونة (أفلام) للمصورة، فوجدناها بعد لأيٍ، ولم يكن البائع إذا سألناه عن شيء لم يكن عنده يبادر فيخبرنا بمكانه، بل كنا نطلب منه أن يرشدنا إلى المكان الذي يوجد فيه الشريط، وأكثرهم لا يفعل ذلك ما عدا بعض النساء اللاتي كن يشرن إلى جهة المحل الذي يوجد فيه دون تحديد، فكنا نسأل ونسأل حتى وجدناه، فاشترينا منه ثلاثة بسعر الأمريكي المعتاد من صنع (كوداك)، ولكنه أسوأ منه تغليفاً وأقل عناية.

واشترينا أيضاً حاشدات صغيرة (بطاريات) للمصورة بعد جهد لأننا لم نعثر عليها في أول متجر بثمن يزيد عن ثمنها عندنا إذا حسبنا قيمة الروبل بالسعر الرسمي لها بالنسبة للدولار، والانطباع الذي خرجنا به من دخول هذه

المتاجر الروسية، وهي كثيرة ومفتوحة رغم كون اليوم هو الأحد، هو أنها فقيرة في كل ما هو من الترف وزائد عن ضروريات الحياة، أما ما كان ضرورياً، أو قريباً من الضروري فإنه موجود، ولكنه ليس رخيص الثمن، وذلك له فائدة اقتصادية وقومية مهمة، وهو الحد من استهلاك السلع المتعلقة بالخدمات التي لا يمكن الاستغناء عنها، وليس الأمر كما هو عليه في بعض البلدان الفقيرة التي تستهلك ما تملكه من مال في وسائل الترف، والبضائع الاستهلاكية التي يمكن الاستغناء عنها، أو التعويض عنها بأرخص منها.

كما لاحظت في متاجر هذه المدينة التي هي مدينة سياحية، أي مفتوحة للسياح، أنك تجد في المتجر من يحسن الكلام بالإنكليزية، أو يعرف طرفاً منها، على خلاف غيرها من المدن الروسية الداخلية التي لا تكاد تجد فيها من يعرف شيئاً من الإنكليزية.

طابور (الآيسكريم):

ذهبت مع زميلي الشيخ سالم بن عبد الله السالم بعد جولة المتاجر في جولة في الشوارع للتفرج برؤية هذه المدينة التي سنغادرها الليلة، فشاهدنا من بين ما شاهدناه (طابوراً) أي صفاً طويلاً من المنتظرين أمام أحد المحلات الصغيرة، وكانت في ذهني صورة للصفوف الطويلة التي كانت موجودة بأن أكثرها من ربات البيوت في روسيا حسبما كنا نقرأه في الصحف والكتب، وتكون أمام المخابز ومحلات بيع الأطعمة.

وقد عرفت أن تلك الصفوف أو (الطوابير) التي تكون أمام محلات بيع الأغذية قد اختفت الآن من الاتحاد السوفييتي، وذلك لوفرة الأطعمة والسلع الضرورية فيها.

ولذلك استغربت هذا الصف الطويل المتعرج أمام محل صغير، فعرفت بعد استجلاء الأمر أنها أمام محل لبيع المثلجات التي هي خاصة هنا

بالآيسكريم، وذلك لكون هذه المادة غير ضرورية، وهي لا تتوفر بكثرة.

ولاحظ زميلي الشيخ سالم بن عبد الله السالم كثرة الزحام من المشاة في الشوارع حتى كانت الأرصفة تمتلئ بهم، وأكثرهم يلاحظ المرء أنهم يسيرون على أقدامهم، ويجلسون على المقاعد المخصصة للجلوس في الشوارع التي لا تطرقها السيارات، أو الحدائق من دون أن يلاحظ المرء كثرة في حركة البيع والشراء.

وفسرت هذه الظاهرة بضيق البيوت، وكون السكان في هذا اليوم الذي هو يوم العطلة الأسبوعية، ولا يكون لديهم فيه عمل أنهم يخرجون إلى الشوارع يقضون الأمسية فيها.

وقد انضم إليهم طوائف من السياح الأجانب الأوروبيين، فكانت الشوارع مزدحمة بالمشاة، والمظهر العام للناس جميعاً سواء أكانوا من السياح أم من أهل البلاد، مع أنه يصعب التفريق بين الطرفين من ألوانهم أو ملامحهم، هو الشقرة في الألوان، والزرقة في العيون.

وأما الملابس فإن فيها أناقة ونظافة، ولكن ليس فيها مغالاة ولا ترف ظاهر، ولذلك لم ألاحظ بينها تفاوتاً واضحاً.

والملاحظ هنا كثرة النساء في الشوارع اليوم، ولا أدري السبب، مع أنه يوم عطلة للجميع، والآداب العامة بينهم في الطريق جيدة، فلا مغازلة، أو حتى نظرات حادة للغريب، وإنما هم يكادون يكونون كالأوروبيين من هذه الناحية.

قبل مغادرة لينين قراد:

كان العشاء في الفندق في التاسعة هذا المساء هو آخر عشاء في المدينة، وهو في غرفة خاصة بالوفد، ليس لها علاقة بالمطعم، ولا تختلط بالآخرين،

وهي مائدة عامرة يستطيع أي شخص لا يأكل إلا أنواعاً معينة من الطعام أن يجد ما يأكله فيها لتنوعها.

وأهم ما يلفت النظر هنا هو الماء المعدني الذي يقدمونه في الفندق، فطعمه طعم الحديد، وهو شبيه بمياه تخرج عندنا من الآبار الارتوازية العميقة، فيه مثل هذا الطعم. وقال لي الإخوة المرافقون: إنه مكتوب على الزجاجة أن في هذا الماء نسبة كبيرة من الحديد.

وقد حضر هذه المأدبة الوداعية عدد إضافي من المسلمين، وبحثت فيها أموراً عامة من أمور المسلمين كانت تشغل بال إخوتنا هنا، منها مثلاً أن الشيخ (علي فخري) رئيس المتولين على المسجد، ويريدون بهم الجمعية التي تشرف عليه سأل قائلاً: لماذا لا يتحد المسلمون في وجه الأخطار التي تهددهم، ولماذا يتركون أعداءهم ينفردون بهم فيظلمونهم قطراً قطراً، ولا يكونون يداً واحدة ضدهم، فيكون هذا رادعاً لمن يريد الاعتداء عليهم !؟.

إن الإخوة هنا ينظرون إلى تفرق كلمة المسلمين وبخاصة العرب نظرة مستوحاة من حالة الاتحاد السوفييتي المؤلف من عدة قوميات وجنسيات ولغات، بعضها غريب عن بعض، ومتباعدة أيضاً في المواقع، وهم يعجبون من كون العرب لا يتحدون سياسياً، ولا تجتمع كلمتهم على ما فيه نفعهم، مع أنهم أمة واحدة، وبلاد متجاورة، ومصلحتهم في رد الاعتداء واحدة !.

مغادرة لينين قراد:

تركنا فندق أوروبا (أوربسكايا) في الحادية عشرة مساء على سيارات الموكب المعتادة التي تتقدمها السيارة المخصصة لرئيس الوفد، وهي سوداء طويلة رسمية، وقد أخبرونا أنها هي التي تقدم للضيوف الذين هم في رتبة وزير أو رئيس وزراء، كما أخبرنا إخوتنا المسلمون بذلك. وذلك احتفاء من مضيفينا بأول وفد ديني يأتيهم من بلاد الحرمين الشريفين كما قالوا.

وهذا بطبيعة الحال هو شعور إخوتنا المسلمين، أما المسؤولون في الإدارة السوفييتية وهم الذين يحددون مرتبة الاحتفاء بالضيوف الأجانب فإن لهم وجهة نظر أخرى، وهي أنهم يريدون أن تكون لهم علاقات قوية مميزة مع رابطة العالم الإسلامي، حتى يستفيدوا من ذلك في نفي التهمة عن نظامهم بأنه معادٍ للأديان، وأنه ضد الدين الإسلامي بوجه خاص، إلى جانب ما تقصده الدول العظمى من العلاقات بالدول والهيئات الأجنبية واستثمار ذلك فيما يفيد سياستها، ويحسن سمعتها عند الآخرين.

وصلنا إلى محطة القطار، وجاء الحمالون للأمتعة معهم العربات التي تدفع باليد، وقال الإخوة: إنهم موظفون للدولة لا يستفيدون شيئاً لأنفسهم زائداً عن رواتبهم. وقلت: معنى هذا أننا إذا أعطيناهم شيئاً فإنه سينفعهم ؟.

فذكروا أنهم لم يتعودوا على ذلك، ولذلك لا ينتظرونه من المسافرين، ولو علمت الدولة به لم ترضَ به، بل ربما عاقبت الحمال الذي يقبله.

وسيكون سفرنا بالقطار، وهو الوسيلة التي لم نجربها خلال رحلتنا في الاتحاد السوفييتي، وقال الأخ الشيخ (طلعت تاج الدين): إذا أكملنا رحلتنا هذه بالقطار فإننا نكون قد قطعنا بصحبتكم نحو خمسة عشر ألف كيلو متر داخل هذه البلاد.

أما نحن فقد رحبنا بالسفر في القطار لأنه يتيح لنا فرصة تجربة السفر بالقطار الذي كانت له أهمية كبيرة في الماضي في الاتحاد السوفييتي قبل السفر بالطائرات أو السيارات، وكان ذلك واضحاً في الأدب الروسي القصصي عند كبار الأدباء الروائيين من الروس قبل الشيوعية وفي أول عهدها.

من لينين قراد إلى موسكو:

تحرك القطار في الموعد المحدد لتحركه، وهو الثانية عشرة إلا عشر

دقائق قبل منتصف الليل من دون أن يرسل نفيراً أي صوتاً قوياً كما تفعل بعض القطارات قبيل تحركها، وذلك ثقة من المسؤولين عنه بأن المسافرين يعرفون النظام المتبع فيه، ويعرفون دقة مواعيده.

وركبنا في الدرجة الأولى منه، وهذا أمر عجيب لم نكن نتصوره، وهو أن يكون في القطار درجات متفاوتة حسب ما يدفعه الراكب في الدرجة التي يختارها، لا سيما بعد أن كنا رأينا الطائرات السوفيتية ليس فيها درجة أولى، بل كلها درجة سياحية في جميع الرحلات داخل الاتحاد السوفييتي.

بل الأغرب من ذلك أننا عرفنا أن القطار هذا فيه أربع درجات، وليست ثلاثاً أو اثنتين كما هو المعتاد في أكثر القطارات في العالم.

وهي درجات متفاوتة في الأثاث والراحة والسعة وحتى الخدمة.

والدرجة الأولى التي ركبنا فيها لا تقل عن مستوى الدرجة الأولى في قطارات الدول الرأسمالية، فهي نظيفة الأثاث، مجهزة بكل ما يحتاجه الراكب، وفيها سرر مريحة للنوم كما يكون في الدرجة الأولى في القطارات العالمية.

ومع ذلك دهشنا لرخص الأجرة في بعض درجات هذا القطار، فقد أخبرونا أنها في الدرجة الثالثة لا تزيد على خمسة روبلات، وحتى الدرجة الأولى هي أرخص أجرة من السفر بالطائرة على رخص أجور السفر بالطائرات الداخلية.

وركبت في غرفة فيها سريران متقابلان، معي في أحدهما الشيخ (طلعت تاج الدين) وهي تغلق.

وجاؤوا بالشاي، وكنت أظن أنهم يأتون به داخلاً في أجرة الغرفة، وعرفت بذلك أنه بنقود، وليسوا كالصينيين في الصين الشعبية الذين ركبنا معهم في الدرجة الأولى في قطاراتهم، وهي أدنى من هذا القطار الروسي

بمراحل، وذكرت قصة السفر في قطار الصين في كتاب: « داخل أسوار الصين ».

ولاحظت أن الحمام في الدرجة الأولى جيد جداً، فهو نظيف، وفيه الماء الحار، وأوراق التنظيف كما يكون في مثيلاته في العالم الحر، وهو أحسن من حمامات الطائرات السوفييتية.

ورغم كون السرير في الغرفة مريحاً ومجهزاً بكل ما يحتاجه الراكب من الأغطية والأشياء الأخرى كمصابيح القراءة، ومصابيح الإضاءة المختلفة فيما إذا أراد ذلك، فقد حاولت النوم ولم أستطع إلا إغفاءات متقطعة بسبب الاهتزازات الطبيعية في سير القطار.

ولم يكن في العربة التي شغل أعضاء الوفد المرافقون أكثر غرفاتها أناس كثيرون غرباء لأرى مستوى الركاب ونوعهم فيها.

يوم الإثنين: ١٩ شعبان ١٤٠٦هـ ـ ٢٨ إبريل ١٩٨٦م.

صباح الريف الروسي:

عندما أسفر الفجر، وقبل أن تطلع الشمس أزحت ستارة النافذة في القطار فأسفرت عن منظر أنيق، وهو منظر الريف الروسي الأصيل، لأن هذه المنطقة التي يخترقها القطار هي بلاد روسية حقيقية، وليست كأكثر البلدان التي مررنا بها في هذه الرحلة تسمى (سوفييتية)، وهي من حيث التبعية والائتمار بالأمر روسية، وإن كانت بلاد قوم آخرين ليسوا من الروس ولم تكن لهم بهم في القديم أية صلة عنصرية ولا ثقافية ،فتسلطت عليهم أو على بعضهم روسيا القيصرية ،ثم جاءت الثورة الشيوعية وهي بقادتها وتفكيرها ثم نظامها روسية الأصل والمنشأ، وحتى الفرع والاستمرار.

والريف الروسي الأصيل كما رأيته هنا هو بحر من الغابات المتصلة التي اخضر بعض أشجارها، وبعضها لم يخضر بعد.

ولم أر بعد فترة من النظر من نافذة القطار ما يفصل بين هذه الغابات من الأشجار إلا بحيرة ما لبثت أن رأيت غيرها عشرات من البحيرات الصغيرة، إما أن تكون من ذوب الثلوج، أو تكون من بقايا الأمطار.

وقال أخي ورفيقي في الغرفة الشيخ طلعت تاج الدين: إن سيبيريا كلها غابات ملتفة مثل هذه الغابات، ولا شك بأنه يقصد بذلك سيبيريا التي يعرفها التاريخ بأنها كانت بلاداً مسلمة أصلها مملكة (سيبير) الإسلامية، التي سميت هذه المنطقة الباردة باسمها، واتسعت التسمية بعد أن احتل الروس مملكة (سيبير) المسلمة، وقضوا على استقلالها، واستمرت كذلك حتى الآن، ومنها مناطق شمالية باردة: بل جليدية اشتهرت ببرودتها وقسوة جوها، حتى جعلوها منفى للمغضوب عليهم من الأفراد والجماعات.

وأشرقت الشمس وكان الجو صاحياً في هذا اليوم كما كان صاحياً

في الأيام الثلاثة التي قبله، وكان المنظر بديعاً أن يتمتع المرء منا بجو مشرق دفيء كجو بلادنا في أول الربيع، وبخاصة في منطقة القصيم، وهو في بلاد الثلج والصقيع.

ورأيت الأعشاب الخضر قد بدأت تطل برؤوسها على استحياء، أو لنقل بدأت ترفع رؤوسها المبللة بندى الدفء الأخضر بعد أن كانت وجوهها عابسة يابسة، بل جامدة هامدة.

واستمر القطار في سيره، واستمرت رؤية الغابات الكثيفة، وزادت رؤية مناقع المياه المتخلفة من ذوب الثلوج.

ورأيت بيوتاً ريفية متجمعة في الغابات، فتصورت وجودها في هذا العراء في الشتاء الشاتي عندما تهبط درجة الحرارة، أو لنقل درجة البرودة إلى الثلاثين أو ما دون الثلاثين تحت الصفر، فرثيت لحال أهلها، وحمدت الله تعالى على ما رزقنا من بلاد دفيئة حانية لولا أن دفأها يزيد، ويزيد في الصيف حتى ترتفع حرارته إلى ما لا تكاد تطيقه في هذا العصر الذي انغمسنا فيه بالترف بعد أن ودعنا الشظف، فصار الجو الذي كان معتاداً لنا شاقاً علينا، ونسأل الله تعالى حسن العاقبة لنا ولخلفنا من بعدنا.

وهذه البيوت الريفية الروسية تشبه الأكواخ الخشبية، وهي مسنمة السقوف لكي تنزلق عنها الثلوج والأمطار.

وجاءت خادمة العربة، وهي روسية أصيلة ثقيلة الجسم، نَصَفٌ في العمر إلى الكهولة ما هي، فجاءت بالشاي في أكواب نظيفة وبلطف ظاهر على خلاف العادة، وربما كانت قد عَرفت أو عُرِّفت بأن في هذه العربة قوماً من الضيوف الأجانب ينبغي الاحتفاء بهم.

على مشارف موسكو:

وصل القطار في سيره الذي يكاد يكون رتيباً حتى إنه كان قليل الوقفات إلى أبنية ضخمة متعددة الطوابق (عمارات)، تبين أنها العمارات السكنية الحكومية المألوفة في المدن الروسية؛ بل في مدن الاتحاد السوفيتي كلها، فعرفنا أننا الآن على مشارف العاصمة الروسية موسكو.

وهذا كان الدليل الوحيد، لأن منطقة الغابات كانت استمرت تساير القطار ولم تنقطع.

وكثرت الأبنية السكنية الضخمة هذه، وأكثرها ذو طلاء أبيض بلون الثلج الذي يرين على هذه المنطقة لشهور طويلة.

أو هو كلون الدب الروسي الشهير.

ورأينا في الضواحي مصانع متعددة، وسيارات كبيرة من سيارات القوة، وأما سيارات الركوب الصغيرة المترفة فإنها هنا قليل في هذه الساعة من الصباح.

وكان الجو دفيئاً منذ الصباح، وأخبرني الأخ الشيخ طلعت أنه كان قد سمع من الإذاعة البارحة أن درجة الحرارة في موسكو ستكون في هذا اليوم ما بين ٢٢ إلى ٢٤ درجة مئوية، وهو أمر غير معتاد في بلادهم في مثل هذا الفصل من السنة، إذ لا تصل الحرارة إلى هذه الدرجة إلا في فصل الصيف الذي يعتبرونه حاراً، وكانت درجة الحرارة في موسكو عندما وصلنا قبل أسبوعين تقريباً صفراً مئوياً.

وأخبرني أيضاً أنه قرأ في جريدة أمس أن درجة الحرارة التي سجلت قبل أمس السبت، وهو يوم وصولنا إلى (لينين قراد) كانت مرتفعة إلى درجة لم يعرف منذ عشرات السنين أنها وصلت إليها في الارتفاع في شهر إبريل.

ووصلنا موسكو في الثامنة والدقيقة الثانية والعشرين صباحاً أي قبل

الموعد المحدد لوصول القطار في الأصل بدقيقتين اثنتين إلى محطة القطارات في موسكو.

وعندما وقف القطار في المحطة تبينا طوله، وعرفنا كثرة المسافرين الذي نزلوا منه، وذلك أن اليوم الإثنين هو أول أيام العمل الأسبوعية، وبعض الناس يخرجون خارج موسكو ليقضوا يوم العطلة الأسبوعية التي هي يوم واحد هو الأحد، ولكن أجور الانتقال رخيصة سواء في داخل المدن السوفيتية، في وسائل المواصلات العامة أو في خارج المدن، والمحطة واسعة كثيرة القطارات، والركاب الذين ينزلون من القطارات أو الذين فيها عددهم كثير جداً.

ووجدنا في الاستقبال في المحطة المفتي الدكتور شمس الدين بن ضياء الدين بابا خانوف رئيس الإدارة الدينية لمسلمي وسط آسيا وقازاقستان، فرحب بنا كثيراً، وكنا فارقناه عندما فارقنا مدينة سمرقند في نهاية الرحلة في بلاد بخارى وما وراء النهر، وبدأنا رحلتنا هذه التي بدأت بزيارة باكو عاصمة جمهورية أذربيجان، وقد ذكرت الحديث عن الرحلة في سمرقند وما قبلها في كتاب: « في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر ».

وركبنا في الموكب المعتاد من السيارات المعتادة، وحتى الفندق كان هو الفندق الذي نزلنا فيه عند قدومنا إلى موسكو وهو فندق (سوفييتا كايا).

حيث تناولنا طعام الإفطار، واسترحنا قليلاً ثم خرجنا إلى:

مجلس شؤون الأديان:

وهو أعلى سلطة في الاتحاد السوفييتي مسؤولة عن شؤون الأديان فيه، ورئيس المجلس الذي سنقابله هو برتبة وزير.

وتتجلى أهمية هذا المجلس في كون الاتحاد السوفييتي دولة إلحادية، ولكن الشعب الكبير العدد أكثره كان من المتدينين بديانات مختلفة، فكان على الحزب الشيوعي والحكومة المنبثقة منه أن يجدوا وسيلة للتعامل مع هذه الأديان من أجل إخضاعها للحزب، أو على الأقل من أجل السيطرة عليها، وضمان عدم تأثيرها على الناس إلى درجة قد تصل إلى تحدي الحزب أو النظام.

ومن هنا نفهم مهمة مجلس شؤون الأديان والإدارات المتفرعة منه في جميع أنحاء الاتحاد السوفييتي، وقد قدمت أننا كنا نقابل بممثل لشؤون الأديان في عواصم الجمهوريات السوفييتية التي زرناها.

ومن الغريب في بادئ الأمر أن تكون في البلدان الشيوعية الإلحادية التي لا تعترف بالإله الخالق، فضلاً عن أن تسكت عن انتشار الدين، وزارات أو دوائر شبيهة بالوزارات مثل مجلس شؤون الأديان في الاتحاد السوفييتي هذا، ولا تكون مثل هذه الوزارات والإدارات في الدول الغربية التي لا تتبنى الإلحاد مثل دول أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية.

ولا شك في أن غرابة الأمر ستزول إذا عرفنا ما ذكرته من أن المقصود من إنشاء هذا المجلس هو السيطرة على الأديان، وملاحقة نشاط المتدينين، وإخضاعه إذا لم يمكن القضاء عليه كما هو حادث الآن في الاتحاد السوفييتي.

فبالنسبة للدين الإسلامي يتعامل مجلس شؤون الأديان مع الإدارات الدينية للمسلمين في الاتحاد السوفييتي، التي تعتني بأمور المسلمين ونشاطهم المحدود والمسموح به، ولكنه لا يقدم لها أية مساعدة مالية، بل العكس هو الصحيح، لأن الإدارات الدينية الإسلامية تقدم في كثير من الأحيان لجهات حكومية، أو هيئات سوفييتية شبه حكومية مبالغ مالية مما يتوفر لدى الإدارات الدينية من تبرعات المسلمين التي هي عماد الحركة الإسلامية في

الاتحاد السوفييتي.

والاسم الرسمي لهذا المجلس هو: (مجلس شؤون الأديان في رئاسة مجلس الوزراء السوفييتي).

وكان موعد اللقاء برئيس المجلس هذا الصباح في ختام الجولة التي قام بها وفدنا في الاتحاد السوفييتي خارج موسكو.

وقال لنا الشيخ الدكتور شمس الدين بابا خانوف الذي هو همزة الوصل القوية بين الإدارة السوفييتية والوفد: إن المقصود من المقابلة هو معرفة انطباعات الوفد عن زيارته للمساجد والإدارات الدينية في الاتحاد السوفييتي، والبحث معه في الأمور المتعلقة بذلك.

وصلت إلى مقر مجلس شؤون الأديان في مبنى قديم الطراز، ولكنه في حالة جيدة، واستقبلنا عند الباب الخارجي عدد من الموظفين الكبار في المجلس الذين يعرفون العربية جيداً.

ثم تقدمونا إلى مكتب رئيس المجلس الذي هو برتبة وزير، وعمله دقيق وهام، واسمه: (قسطنطين ميخائيلوفتش خارتشوف) الذي استقبلنا عند الباب الخارجي للمكتب مهلياً مرحباً ترحيباً سياسياً ظاهرياً.

وهو مما يظهر من حاله قوي الشخصية، واسع الدهاء، واستقبلنا معه عدد من نوابه ومساعديه.

وفي غرفة الاجتماعات بدأ رئيس المجلس حديثه مرحباً بمقدم وفد الرابطة فقال: باسم قيادة مجلس شؤون الأديان أعبر لكم عن سرورنا البالغ لزيارتكم بلادنا ومجلسنا في هذا المبنى، ولكم الشكر العميق.

ثم تحدث عن الأعمال الأساسية في مجلس شؤون الأديان قائلاً: إن مجلس شؤون الأديان مؤسسة تابعة للدولة، تملك صلاحيات حكومية، وتعمل واسطة بين الدولة والمنظمات الدينية، وتعمل على توفير حرية العقيدة، وحرية

كافة الممارسات الروحية لأي مؤمن، ويقوم المجلس بحماية المساجد والكنائس وكافة أماكن ومجالس العبادة. وصلاتنا عميقة مع المؤسسات والإدارات الدينية، ونرى أن من واجبنا وضمن قدراتنا تنفيذ أعمالها النبيلة. ويضم المجلس أكثر من ٦٠ موظفاً من القوميات المختلفة، يعملون في خدمة عشرات الملايين من المؤمنين، وحرية الاعتقاد وعدم الاعتقاد، وممارسة شعائر الدين مكفولة بحكم الدستور، ويعمل المجلس على تنفيذ تلك القوانين الخاصة بالأديان.

ثم اختتم حديثه بقوله: مرة ثانية أريد أن أعبر لكم عن امتناني التام لكم لإتاحة هذه الفرصة لمقابلتكم والتكلم معكم.

وقد أجبته بالشكر على الاستقبال والترحيب، وتقديم الإيضاحات عن المجلس، ثم قلت: إن الدين الإسلامي بالنسبة لنا ليس مجرد عبادات، وإنما هو دين معاملة وعلاقة وثقافة، وأي بادرة طيبة نحو المسلمين وثقافتهم تسر المسلمين في كل مكان، كما أن الإساءة إلى المسلمين تنعكس سلبياتها على المسلمين في أنحاء العالم.

إن المسلمين السوفيات تربطنا بهم علاقة ثقافية منذ ألف أو أكثر من ألف سنة، ونعتقد أن الصلات والتعاون بين الرابطة والإدارات الدينية سيعود بالنفع للمسلمين وشعوب الاتحاد السوفييتي.

وقلت: إن رابطة العالم الإسلامي ليست منظمة حكومية، بل هي منظمة شعبية عالمية، تضم في مجالسها ممثلين ومندوبين من مختلف الشعوب والجماعات الإسلامية في العالم، ومنها مسلمو الاتحاد السوفييتي الذين يمثلهم الدكتور شمس الدين بابا خان، وهو عضو في المجلس الأعلى العالمي للمساجد. والرابطة تتعاون وتتعامل مع الجمعيات الإسلامية في العالم، والمسلمون يحصلون على المعلومات عن إخوانهم المسلمين منها. وكانت ترد إلى الرابطة أسئلة واستفسارات عن أحوال المسلمين في الاتحاد السوفييتي، وكنا

نجيبهم بأننا سنخبركم عنهم بعد الزيارة إلى ديارهم، ومشاهدة حياتهم الإسلامية، والآن بعد أن وفقنا الله ﷻ إلى هذه الزيارة أصبح لدينا ما يمكن أن نقوله لهم عن إخوانهم المسلمين في الاتحاد السوفييتي.

ولقد سررنا بصفة خاصة بأن المسلمين يقيمون مساجد حديثة، كما سررنا بأن كثيراً من المسلمين يحافظون على صلاتهم وتمسكهم بدينهم.

فعلق على كلامي رئيس مجلس شؤون الأديان بقوله: هذا اليوم من الأيام المشهودة لنا بأن نستقبل وفداً صديقاً، ولا شك أن الصداقة هي عامل مهم على تطوير العلاقة، وتوطيد السلام العالمي، ونحن مسرورون بهذا اللقاء والاجتماع، ونؤكد لكم بأن التعاون بين الإدارات الدينية الإسلامية السوفييتية ورابطة العالم الإسلامي سيتطور، ومن جانبنا سنبذل أقصى جهدنا في تطوير هذه العلاقة.

كان اللقاء متحفظاً ملتزماً بالطابع الرسمي، ومع ذلك كان متلفزاً ومصوراً.

وكان مترجم اللقاء روسياً نحيفاً على خلاف العادة واسمه (قريقوري كافالوف)، وكان ماهراً في الترجمة بحيث كان يلاحق ما يتكلم به رئيس المجلس باللغة الروسية يترجمه إلى العربية قبل أن يتم الجملة التي يريد أن يقولها فيما يخيل لسامعه لسرعة ترجمته. وقلت: ربما كان سبب ذلك أنه يعرف فحوى كلام الرجل.

وقد عجبت من ذلك، وانتظرت ما يفعله بترجمة كلامي من العربية إلى الروسية، فكان أن فعل به مثلما فعل بكلام رئيسه الروسي.

إذْ كان يلاحق الكلمات التي أقولها ويترجمها قبل أن أتم الجملة التي أقولها حتى إذا أتممتها ترجمها بسرعة عجيبة.

وفي نهاية اللقاء قدمت للرئيس هدايا تذكارية كالتي نقدمها لأمثاله،

ومنها عباءة عربية مقصبة، وساعة يدوية، فقدم إلينا هدية مناسبة منهم، وبخاصة في هذا المقام مقام زيارة وفد أجنبي يقدم لأول مرة إلى مدينة موسكو، وهو كتاب مصور دعائي باللغة الإنكليزية عن مدينة موسكو يظهر ما فيها من أبنية كبيرة، وميادين واسعة، وشوارع متعددة من باب الدعاية والإعلان.

إلى الكرملين:

كلمة الكرملين معناه: القلعة طبقاً لما أخبرنا به المترجم النابغة (قريقوري كافالوف)، فقد صار مرافقاً لنا في جولة في الكرملين هذا الصباح، وإن كنا سمعنا قبل ذلك أنها القصر أو الحصن، وذلك بعد الخروج من مجلس شؤون الأديان مباشرة.



وفد الرابطة في الساحة الحمراء في موسكو

وقفت سيارة الموكب في ركن من الساحة الحمراء فقال المترجم

قريقوري موضحاً شيئاً كان خافياً على كثير من الناس وأنا منهم من كون هذه التسمية للساحة بالساحة الحمراء هي قديمة من عهد القياصرة، وليست نتيجة للثورة الشيوعية التي اتخذت اللون الأحمر شعاراً لها، وقال: إن معنى الحمراء بالروسية: الجميلة، فهذه الساحة إذاً معناها: الساحة الجميلة.

فقلت: هذا عجيب أن يسمي قوم حمر الألوان الجميل بالأحمر، لأن البيض والحمر في العادة يرون الجمال في اللون الأسمر لكونه اللون النادر عندهم.

و(الساحة الحمراء) ساحة معتادة أهم ما فيها هو صدق التسمية بالحمراء إذا نظرنا إلى ما يحيط بها من أبنية قديمة أكثرها أحمر اللون.

وكانت الساحة مليئة بالسائحين الذين ليس بينهم من المواطنين السوفييت إلا عدد قليل يدل على ذلك كون الموجودين يلتقط بعضهم لبعض صوراً تذكارية، ويرى بعضهم بعضاً بشوق ما يرى أنه يستحق المشاهدة في هذه الساحة.

أما نحن فإن دليلنا ماهر، ويتكلم العربية بطلاقة، وذكر لي أنه تعلم العربية أولاً في الجامعة في موسكو، ثم سافر إلى سوريا ملحقاً بالسفارة السوفييتية هناك، وبقي في سوريا ثلاث سنين.

وهو يتكلم العربية بلهجة عجيبة أشبه ما تكون بلهجة المثقفين العرب التي تبرأ من اللهجات المحلية، ولكنها لا تصل إلى الفصحى.

وذكر أنه لأول مرة في حياته يترجم لقوم من المملكة العربية السعودية، وأنه لم يجد صعوبة في ترجمة كلامي بدليل أنه كان يلاحق كلماتي فيترجمها حتى قبل أن أسكت عند إتمام الجملة.

وذكر أنه درس اللهجات العامية في البلدان العربية التي زارها إلا أنه يعلم أن هناك لغة مشتركة بين المتعلمين في البلدان العربية.

الكنيسة وقباب المسجد:

بعد التقاط صور تذكارية في الساعة الحمراء للوفد كان من الصعوبة فيها عدم مرور أناس بين المصور ومن يريد أن يصورهم، وإلقاء نظرة عامة على هذه الساحة سرنا مع (قريقوري كافالوف) جهة كنيسة مشرفة القباب والأبراج، وهي من أهم المعالم السياحية الواقعة على هذه الساحة الحمراء.



تذكارية في الميدان الأحمر لوفد الرابطة
وفي أقصى الصورة كنيسة فاسيلي

وقال (قريقوري) وقد سكت المرافقون الذين كانوا كلهم معنا، وكلهم يعرف العربية، إذ الوفد الإعلامي المرافق المؤلف من خمسة أشخاص قد تركنا عندما تركنا مجلس شؤون الأديان، قال: هذه الكنيسة مهمة هنا، وتسمى كنيسة القديس باسيلوس، أسست في عام ١٥٥٢م.

وقد لاحظت أن قباب الكنيسة وأبراجها فيها شبه عظيم بقباب

المساجد التي تبنى على الطريقة المغولية، فسألت المترجم قريقوري وهو مثقف مطلع عن السبب في ذلك فذكر أنه لا يعرف سببه.

ثم عرفت السبب بعد ذلك وهو أن القيصر الروسي المعروف بإيفان الرهيب عندما احتل مدينة قازان عاصمة الدولة المسلمة التي كانت تنازع الروس وتقاتلهم، بل استمرت على قهرهم مئات من السنين هدم مسجدها الجامع، وبنى هذه الكنيسة في هذا المكان جاعلاً قبابها وأبراجها على هيئة قباب (جامع قازان) الذي هدمه.

وربما كان (قريقوري) يعرف هذا الأمر ولكنه لا يريد أن يذكره.

وأياً كان الأمر فإنه ذكر أن الذين بنوا هذه الكنيسة للقيصر هم إيطاليون وأن طراز البناء روماني، وإن كانت القباب والأبراج مغولية المظهر.

وقبابها وأبراجها مطلية بطلاء ذهبي لامع، لا شك في أنهم يتعهدون تجديده وطلاءه باستمرار ليبدو جميلاً منسجماً مع الأبنية المعتنى بها حول هذه الساحة، لأن القوم وإن كانوا شيوعيين ملحدين فإنهم يعتبرون هذه الكنيسة وأمثالها من الآثار الهامة التي تؤلف معالم سياحية ثمينة بالنسبة إليهم.

عند قبر لينين:

عندما كنا في الأردن نستعد للسفر إلى موسكو قال لنا أحد إخواننا الكبار هناك: إنكم يجب أن تخبروا مضيفيكم المسلمين أنكم لا ترغبون في زيارة ضريح لينين، لأنهم في العادة يجعلون دخول الضريح جزءاً من البرنامج، ويصورون ذلك، ويبثونه في التلفاز، ويطلبون في العادة من الضيوف الزائرين أن يضع رئيسهم باقة من الزهور على ضريح لينين، وهم الذين يعدون هذه الباقات من الزهور، فإذا كنتم تشعرون أن في هذا الأمر شيئاً من الإحراج بالنسبة إليكم فيجب أن تنتبهوا له من الأول.

وطبيعي أننا لا نود ذلك، فزيارة ضريح لينين الذي هو في الحقيقة المنفذ الأول للنظام الشيوعي لأنه هو الذي طبقه عملياً على الاتحاد السوفييتي بعد أن كان نظريات مهزوزة، ثم وضع باقة من الزهور أو إكليل من الزهور عليه يعني عند الناس احترامه وتعظيمه، وهذا ما لا نعتقده، بل إننا نحمل ضده من المشاعر، فنحن نكرهه، ولو كان اللعن مشروعاً للعناه، لأنه هو الذي ثبت الشيوعية الإلحادية التي حاولت أن تقضي على الإسلام في نفوس إخوتنا المسلمين في هذه البلاد التي تسمى الآن بالاتحاد السوفيتي.



في ميدان الكرملين في موسكو

وقد التزم الإخوة المضيفون هنا برغبتنا هذه، فلم يضعوا الدخول إلى ضريح لينين في برنامج الزيارة، ولكننا صادفنا جمعاً من الناس قد تجمهروا بالقرب من باب مكان في هذه الساحة، فقال قريقوري: إنهم تجمعوا من أجل مشاهدة تبديل حراس المدخل الخارجي إلى قبر لينين، لأن لذلك مراسم يحرص السياح الأجانب على مشاهدتها، ومعلوم أن لينين قد توفي في عام

١٩٢٤م، وأنهم حنطوا جثته، وأبقوها محفوظة في هذا المكان من الكرملين.

ووقفنا ننتظر ذلك وسط زحام أناس كانوا قد سبقونا إلى المكان، وأخذوا مواقفهم، ولا نقول مقاعدهم، لأن الجميع وقوف أمام الحاجز من القضبان التي ترتفع حوالي المتر، يفصل الممر الذي يمر فيما بينه وبين جدار الضريح ليقفوا أمام المدخل إلى القبر.

والضريح نفسه من الخارج بناء معتاد ذو مظهر حديث لا يوحي بأي شيء، ولما كان موقفنا بعيداً ذهب قريقوري إلى ضابط من ضباط يحنظلون النظام فأخبره بأننا ضيوف أجانب، وكان ذلك واضحاً من ملابسنا العربية الكاملة التي كنا نرتديها لكوننا خرجنا من اجتماع رسمي في (مجلس شؤون الأديان).

فأخذ الضابط يبعد السياح أمامنا حتى أوقفنا على حاجز القضبان مباشرة.

وبعد قيل بدأ تبديل الحراس بحيث أقبل أربعة منهم قد اختاروهم من الشبان المديدي القامة، الجميلي المظهر، وقد ألبسوهم لباساً عسكرياً زاهياً يبدو غالي الثمن، وهم يقبلون على باب الضريح بنظام عجيب، وحركات عسكرية صارمة موزونة، فيتبخترون في مشيتهم، ومشية البخترة هي مشية المتعاظم المتمايل في سيره، وهي مشية مكروهة في الإسلام إلا عندما يسير الرجل إلى قتال الأعداء.

وإذا مد أحدهم يده ببندقيته، مدها بحركة قوية عنيفة، ولكنها موزونة، وحتى خطواتهم كانت محسوبة، وهم يضربون الأرض بأحذية لهم ثقيلة، وبصوت مسموع، وفي لحظة واحدة.

والحقيقة أنني لم أرَ مثل هذه الحركات العسكرية من قبل، وهي تدل على قوة التدريب العسكري السوفيتي، بل قسوته، وهذا هو ما أراده الذين

نظموا تبديل الحراس أمام السياح في ساعة معينة من نهار كل يوم وهي الثانية عشرة؛ حيث يقصد الناس ذلك المكان لمشاهدة ذلك.

عرين الشيوعية:

الكرملين هذا هو أحد كفتي الميزان في العالم التي تميل إحداهما، وهي الكفة الأمريكية، فتحرك الأخرى لكي تقيم ذلك الميل.

وعلى بعد خطوات من موقفنا هذا تحاك خيوط السياسة السوفييتية، وهي سياسة فيها الكثير من المؤتمرات والدسائس والمكايد، وفيها الكثير من القوة والقسوة.

وللروس أن يفخروا بقوتهم التي حققوها حتى صاروا يملكون أقوى جيش مسلح في العالم إذا نظرنا إلى الأسلحة المعتادة من الرجال والطائرات والدبابات والمدافع والسفن الحربية.

وفي السنوات الأخيرة لحق الاتحاد السوفييتي الذي يسيره الروس كما أسلفت بركب التطور العسكري الذي كانت الولايات المتحدة قد سبقته في مضماره، فصار لديه من الصواريخ ذات الرؤوس النووية، ومن التقنية الحربية الحديثة التي لا يعرف إلا القليل منها ما جعل كبار العسكريين الأمريكيين يطلقون صيحات الإنذار بأنه إذا استمر الحال على ما هي عليه فإن الولايات المتحدة الأمريكية ستكون متخلفة عن الاتحاد السوفييتي في القوة العسكرية بمراحل.

ونضرب مثلاً على ذلك بما أذاعته الدول الغربية ومنها الولايات المتحدة الأمريكية التي صرح رئيسها (ريغان) بأن الاتحاد السوفييتي لديه الآن أكثر من عشرة آلاف عالم جلهم من العلماء الشبان، كلهم متفرغون لتطوير سلاح الصواريخ المضادة للصواريخ.

وهذا بالنسبة إلى فرع واحد من فروع التسلح، أو لنقل من فروع القوة العسكرية، فما بالك بالفروع الأخرى؟



جرس الكنيسة الكبير في ساحة الكرملين

وهذا كله يتم في الوقت الذي لا يملك الاتحاد السوفييتي من التجارة العالمية ما تملكه الولايات المتحدة، وليست لديه من موارد العملات الأجنبية ما لدى بعض الدول المتوسطة في العالم الغربي فضلاً عن الدول الكبيرة، وإنما فعل ما فعله بتصميمه الذي لا يكل على أن تكون موارد البلاد كلها مصممة لما يكسب الدولة القوة والمنعة، ولو كان في ذلك حرمان الشعب من الأمور الكمالية، وإهمال المشروعات التسهيلية مثل الطرق السريعة. والمنازل الواسعة، والملابس الجيدة، فضلاً عن تقييد الحريات في السفر خارج البلاد، والتصرف الفردي بالمال والتجارة حتى صار الاتحاد السوفييتي في هذا الحال مثل الدول الناقصة النمو التي تسمى من باب المجاملة بالدول النامية، بل إن مستوى معيشة السكان في الاتحاد السوفييتي هو أقل من بعض البلدان التي

ساعدها الاتحاد السوفييتي مساعدات اقتصادية.

والحاصل أن هذه القوة العسكرية هي على حساب معيشة الشعب معيشة طيبة.

تخليد أساطين الشيوعية:

من عند قبر لينين الذي رأينا باب الدخول إليه، ورأينا كيفية تغيير الحراس حوله انتقلنا سيراً على الأقدام بصحبة المترجم قريقوري الذي أخذ يشرح لنا ما نشاهده في هذه المنطقة المهمة من قلب العاصمة الروسية، وكان يحاول أن يقتصر على ذلك، وأنا أحاول أن أجعله يشرح أشياء أخرى مما لا تراه العين، وإنما ترى مظاهره مما يتعلق بالنظام الشيوعي، وعلاقة عامة الناس من غير الشيوعيين به.

فكان من ذلك قوله في الحديث عن نفسه: إنه غير شيوعي.

وقوله بعد تمنع ومحاولة للتهرب من الجواب: إن الموظف الذي يشغل وظيفة مهمة، وهو يكون عادة في الحزب الشيوعي، فإنه لا يستطيع أن يؤدي العبادة في داخل المعبد، فإذا كان مسيحياً مثلاً لم يستطع أن يدخل الكنيسة لأداء الصلاة، وإذا كان مسلماً لم يستطع أن يؤدي الصلاة في المسجد، وإذا فعل ذلك يكون نصيبه الفصل من وظيفته، ومن عضوية الحزب، لأنه يكون قد خالف مبدأ أساسياً من مبادئ الحزب الشيوعي وهو الإلحاد الذي ينكر الخالق، وبذلك يعتبر التدين تأخراً وتخلفاً.

فهو يفصل من وظيفته، ويطرد من عضوية الحزب بسند قانوني.

ولما أبديت له أن كثيراً من الناس في خارج الاتحاد السوفييتي يعتقدون أن معظم سكان الاتحاد السوفييتي هم من الشيوعيين استنكر ذلك وقال: كيف يكون ذلك، والحزب الشيوعي نفسه قد أعلن خلال آخر مؤتمر عقده

وهو المؤتمر السابع والعشرون أن عدد أعضاء الحزب ثمانية عشر مليوناً ؟ لأن الحزب الشيوعي نفسه يقول بهذا الإحصاء إن ما معناه أن هناك قرابة مائتين وستين مليوناً من المواطنين السوفييت ليسوا شيوعيين.

وغني عن القول إنه لا بد أن يكون هناك طوائف من الناس غير أعضاء في الحزب الشيوعي، ولكنهم متأثرون بالمبادئ الشيوعية بسبب وقوعهم تحت تأثير دعاية شيوعية مكثفة ومستمرة.

وفي ركن من الساحة الحمراء رأينا جرساً ضخماً على هيئة الخيمة الضخمة من الحديد، وهو موضوع على الأرض ذكروا أن علوه خمسة أمتار ووزنه مائتا طن.

تركنا الساحة الحمراء نتمشى في هذه المنطقة المهمة، فسرنا بجانب شارع رئيسي اسمه شارع ماركس، وكارل ماركس هو أحد أساطين الشيوعية الذين قعدوا قواعدها، وبينوا كيفية تطبيقها، وكتابه (رأس المال) يعتبر من أناجيل الشيوعية.

وهذا الشارع واسع لا يكاد المرء يفرق بينه وبين الشوارع المهمة في المدن الغربية أي ذات الاقتصاد الحر، إلا أنه ليس فاخراً، فهناك شوارع تماثله، وربما تفوقه اتساعاً وتنظيماً، ومن ناحية الأبنية الجميلة الشائقة التي تقع عليها في دول معتبرة من دول العالم الثالث كالأرجنتين والبرازيل في أمريكا الجنوبية، وكوريا الجنوبية من الدول الآسيوية.

ورأينا شارعاً مهماً آخر اعترض شارع ماركس وهو شارع جوركي، وتقع عليه بلدية مدينة موسكو، وهي ذات طلاء أحمر يتناسب مع ما هو معروف من تفضيل الثورة الشيوعية اللون الأحمر وإن لم يكن كل ما في الشارع من الأبنية أحمر اللون.

قبر الجندي المجهول:

ملنا عائدين إلى جهة الكرملين، فرأينا عند أسواره رمزاً لقبر الجندي المجهول، وقد احتفوا به احتفاء زائداً، وكتبوا عليه العبارة التالية: « اسمك مجهول، ولكن مأثرتك خالدة ».

والجندي المجهول في بلاد خاضت الحرب العالمية ضد ألمانيا، وقتل من أبنائها في تلك الحرب عدد كبير، أمر له مغزاه، فقد فقد كثير من الرجال المحاربين، ولم تعرف أماكن وفياتهم ولا تواريخها، بل لا يدرى عنهم شيء إلا كونهم قد ماتوا في الحرب.

ثم رأيناهم أوقدوا ناراً بالقرب منه دائمة الاتقاد رمزاً على دوام الاحتفاء به، وعرفنا أنها توقد من خزان مجاور لها خفي من الغاز، وليس من الحطب مثلاً.

والمدن البطلة:

من عادة الاتحاد السوفييتي في ظل الشيوعية أن يعطي من يقومون بعمل جليل أوسمة ونياشين مختلفة بدلاً مما يفعل غيره من الأقطار في إعطاء الأشياء المادية.

ويسمى من يقوم بعمل جليل بطلاً، أو بطل الاتحاد السوفييتي على تفاوت في مقدار ذلك العمل ونوعه، فمثلاً الأم التي تلد عشرة من الأولاد تحصل على لقب بطلة الاتحاد السوفييتي، وقد استفاد المسلمون أكثر من غيرهم من هذه المزية، فرأيناهم في طشقند قد نوهوا بأن في جمهورية أزبكستان، وهي من مواطن المسلمين، مائة ألف بطلة، أي مائة ألف امرأة ولدت كل واحدة منهن عشرة أولاد، على حين كون الكفار لا يخلفون إلا قليلاً من الولد.

ومن البطولة التي سجلوها هنا أنهم أقاموا في هذه المنطقة التي هي حديقة تحف بسور الكرملين نصباً يشبه التابوت من الرخام الأحمر نقشوا عليه أسماء المدن البطلة، أي التي حازت على لقب البطولة في الاتحاد السوفييتي.

وتجولنا بعد ذلك في حديقة الكرملين، وقد أخذت أشجارها بالاخضرار، وصارت أوراقها تطل برؤوسها الدقيقة تلتمس الدفء في شمس الربيع.

وبجانب حديقة الكرملين تقع جامعة موسكو القديمة.

وقد علق قريقوري على ذلك بقوله: إنني تعلمت في هذه الجامعة اللغة العربية، قال: وعدد طلابها ستة وثلاثون ألف طالب، وفيها أقسام جديدة تقع خارج هذه المنطقة التاريخية التي ضاقت بها.

ثم دخلنا الكرملين مع بوابة تدخل منها السيارات، ولا يمنع من دخولها أحد، لأنها توصل إلى الساحة الخارجية للكرملين.

أما الأبنية الداخلية فإن أكثرها لا يدخل إليه إلا بإذن لأهميته، ومن ذلك مجلس السوفييت الأعلى الذي هو أعلى سلطة في الاتحاد السوفييتي، ومقر مجلس الوزراء وقصر المؤتمرات، وأكثر هذه الأبنية قديمة، بل تاريخية مثل مجمع الكنائس، وفي الكرملين أكثر من كنيسة، ومنها كنيسة لمن يسمونه (إيمانويل) الملاك، وفيها مقبرة القياصرة قبل أن ينقلوا عاصمتهم من موسكو إلى لينين قراد.

ثم قسم تاريخي يسمى قسم الحريم في القصر القيصري، وبرج إيفان الكبير، ومعناه يوحنا الكبير، وهو يحيى بلغتنا، ينطقونه بلغتهم (إيفان)، ويسمون به كثيراً، ومن أشهر من سموا به (إيفان الرهيب).

ووقفنا طويلاً عند جرس ضخم ذكروا أنه استمر صنعه لسنوات لكي

يرفع إلى مكانه في إحدى كنائس الكرملين، غير أنه لم يرفع لصعوبة ذلك في ذلك العهد. ثم جاءت الشيوعية وأبقته في مكانه من ساحة الكرملين، لأنها رفعت بديلاً عنه وأمثاله شعار المطرقة والمنجل.

وعند مدخل من المداخل إلى أحد القصور في داخل ساحة الكرملين رأينا مدفعاً ضخماً قديماً، بل هائل الضخامة، وقد أخبرونا أن وزنه يبلغ أربعين طناً، وكنت ظننته عندما رأيته يزن أكثر من ذلك.

شهد نصر الإسلام:

بعد هذه الجولة في هذه البقعة التاريخية المهمة التي اكتسبت أهميتها من قدمها، ثم من أهميتها وتأثيرها في شؤون العالم في الأزمنة الحديثة، بل صارت في عهد الشيوعية الروسية مقر إحدى القوتين العظميين في العالم يجدر بنا أن نقول: إن منطقة الكرملين هذه كانت قد شهدت مجد الإسلام، بل أمجاده لقرون، فكان لا يعقد فيها لواء الإمارة على موسكو وما حولها، بل وعلى غيرها من أنحاء روسيا التي كانت تتبع موسكو في وقت من الأوقات، إلا بإذن من أمير المسلمين في قازان، وهو الذي كان يسمى الخان بمعنى الملك أحياناً، وأحياناً كان يسمى بالسلطان. ولا بد من قراءة مرسوم من سلطان المسلمين بتعيين الحاكم من أولئك الحاكمين على روسيا في ذلك الحين، وكان لا بد لذلك من حضور مندوب وممثلين للسلطان من التتار والبلغاريين المسلمين لتتويج أولئك الأمراء من الروس، لأن الروس لم يكونوا يملكون من أمر بلادهم إلا ما كان السلطان يأذن به، وليس من أموالهم إلا ما فضل من الإتاوة التي كانوا يؤدونها إلى سلاطين المسلمين في قازان، أو غيرها من عواصم المنطقة في البلاد المسلمة المجاورة: بلاد البلغار والتتار.

وهذا أمر معروف مشهور في التواريخ، وليس كتابنا هذا كتاب تاريخ حتى نسطر فيه الشواهد التاريخية الصادقة على ذلك، وإنما نكتفي بإيراد

نص من كتاب لأحد المؤرخين القازانيين في أخبار البلغار والتتار، قال وقد سمى الكرملين (الكريملة):

« وكان خان أوردو الكبير أحمد في تلك الأثناء يعد خاناً كبيراً، وكانت الروسية أيضاً معترفة بذلك، وكانت تؤديه الخراج كما في السابق، ومتى جاء أحد من طرف الخان إلى موسكو كان الكيناز الأعظم يستقبله من خارج موسكو، وكانوا يفرشون لمن يقرأ فرمان الخان مفارش من السمور، فيجلس عليه ويقرأ فرمان الخان، والكيناز الأعظم وأمراؤه يسمعونه جاثين على ركبهم، وكان في وسط دار إمارة الروس المسماة عندهم (بكريملة) دائرة مخصوصة لمأموري الخان، ويقيم فيها سفير الخان والباصقاق يعني عامله، وكثير من المأمورين، وكانوا بهذا السبب واقفين على أسرار الروسية وحركاتهم وسكناتهم، وكانت تلك الحالة لا تلائم طبع صوفية زوجة الكيناز إيوان لكونها من سلالة قيصر الروم، فقالت يوماً لزوجها إيوان: إلى متى أستمر أنا جارية للتتار، لا أحب أن تخدم التتار بعد ذلك، وأن تحترمهم هذا الاحترام، وكانت تريد دائماً أن تخلص الروسية من رقبة التتار، وكانت ذات حيلة وخدعة، فمن حيلتها أنها كتبت إلى زوجة أحمد خان كتاباً تقول فيه: إني أمرت في رؤياي أن أبني معبداً في الدائرة المختصة بمأموري الخان في كريملة، فأرجو من مرحمتكم أن ينقل حضرة الخان هذه الدائرة إلى محل آخر، ويأذن لي في بناء معبد في محلها من كريملة، وأرسلته مع واحد من أخصائها بهدايا عظيمة، فصار رجاؤها هذا مقبولاً لدى الخان، وأرسل منشوراً مشتملاً على الإذن بذلك، فأخرجوا مأموري الخان من كريملة إلى محل آخر، وبنوا في دائرتهم من كريملة كنيسة، وسموها بكنيسة إسباس، فكانوا بعد ذلك لا يتركون مأموري الخان يدخلون دار الإمارة، فصارت التتار بهذا السبب لا يقفون على أسرار الروسية، وعينوا لاستقبال من يجيء من طرف الخان مأمورين مخصوصين، وعينوا لنزولهم وقراءة فرمان الخان محلاً مخصوصاً خارج دار الإمارة، وكان

ذلك من نقصان تدبير الخان المذكور، وكانت الروسية تتدرج هكذا في التخلص من سلاسل رقية التتار قدماً فقدماً، وكانت التتار أيضاً مواظبين على إرسال تلك السلاسل وإرخائها.

قلت: كيف لا يرسلونه بعد أن انضمت إلى الدب المسلسل جم غفير من جنسهم، وصاروا يهجمون عليهم معه من كل جانب، نعم، ﴿وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال﴾. ويقال لهذا انعكاس الأمر وانقلابه، فإن الروسية كانت قبيل هذا بمدة يسيرة على ما كانت عليه التتار الآن من تفرق الكلمة، وتشتت الآراء والمقاصد والشقاق والنفاق، وكان المؤرخ الروسي كارامزين يتأسف على ذلك ويقول: إن هذا من صنيع التتار وخدعتهم، وإنهم يجتهدون في تسليط الروس على الروس كما مر عنه، نعم كانوا يفعلون ذالك حين كان باب الإقبال مفتوحاً لهم، ولما أغلق باب الإقبال دونهم، وفتح للروسية انعكس الأمر، فسبحان من أقام العباد على ما أراد، وهو الفعال لما يريد، ولله الأمر من قبل ومن بعد، ﴿ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون﴾ ألا ترى ما قاله المؤرخ المذكور بعد ذلك، قال: وعلى كل حال كان اطمئنان قلب الكيناز إيوان من جهة التتار في ازدياد دائماً لعلمه ويقينه أن خوانين التتار سينقرضون عن قريب انقراضاً كلياً بسبب محاربة بعضهم بعضاً، ولذا أمسك يده عن محاربتهم، وصار يداريهم بتأدية الخراج لهم، وإرسال الهدايا إليهم لتنظيم أموره، وتحسين أحواله بالراحة والاطمئنان، وكان في سنة ١٥٧٥م مصادفة سنة ٨٧٩هـ يقرأ فرمان الخان في موسكو، وكان سفير الخان مرزا قراجق أيضاً فيها مع ستمائة نفر من عسكر التتار، وكان سفير الكيناز أيضاً عند الخان، وفي السنة المذكورة كان ٣٢٠٠ من تجار التتار مشغولين في الروسية بالتجارة، وكانوا جاؤوها بأربعين ألفاً من خيل آسيا، وفي سنة ١٥٧٩ رجع سفير الكيناز إيوان لازاريق من الأردو الكبير، وأخبره بأن احمد خان أرسل ترويزان سفير وينيستان إلى إيطاليا بحراً، ولم يرد أن يحارب عثمانلي. ا. هـ.

قلت: يفهم من هذا أن مجيء هذا السفير من طرف قرال إيطاليا إنما هو لدعوة أحمد خان إلى محاربة عثمانلي، وإنه لم يجبه إلى ذلك، وقد ناسب هنا أن ننتخب ما أطنب فيه السيد محمد رضا أفندي في السبع السيار في بيان ماجريات أحمد خان مع مكلي كراي خان لكونه ملتقياً ما ذكره كارامزين في بعض النقط، ومفارقاً إياه في بعض آخر منها ليكون المطالع على البصيرة ". انتهى كلامه.

ومما يجدر ذكره أن مدينة موسكو التي تكرر لفظها (مسكوا) بألف بعد الميم هي قديمة العمارة، يرجع تاريخها لأكثر قليلاً من ثمانية قرون.

ثم عدنا إلى فندقنا الكبير (سوفيتكايا)، وهو فندق ضخم قديم، وكان في زمن ستالين طاغية الشيوعية في روسيا من أهم الفنادق، فكان ينزل فيه ضيوفه الأثيرين لديه، مع أنه في أثاثه ورياشه ومرافقه لا يصل إلى هذه الدرجة بمقياس الأبنية الفخمة الموجودة الآن في أنحاء العالم.

وتكرر هنا ما رأيناه في المرة الأولى التي نزلنا فيها هذا الفندق عند قدومنا إلى موسكو وكنا قضينا فيه ليلة واحدة، وهو أن الموظفة الموجودة في مكتب في الطابق الذي تقع فيه غرفتي لا تحسن الإنكليزية، فكانت لديها خارطة للغرف كلها التي في الطابق مكتوباً عليها أرقامها، فإذا أردت مفتاح غرفتك أبرزت لك الموظفة الخارطة عليها أسماء الغرف، فتشير إلى رقم غرفتك، فتعطيك الموظفة مفتاحها بدون أن تحتاج إلى أن تتكلم معها.

وعلى ذكر الأرقام أقول إنهم يستعملون الأرقام التي يسميها الأروبيون بالأرقام العربية، ويسميها عوام المتعلمين من بني قومنا العرب بالأرقام الإفرنجية. وكذلك رأيت الناس في الصين واليابان وكوريا وتايلند وكلها ذات لغات تختلف حروفها عن الحروف اللاتينية، ولكنهم لا يستعملون للأرقام غير هذه الأرقام العربية.

إلى جامع موسكو:

لم نلبث طويلاً في الفندق، وإنما كان ذلك بقدر ما توضأنا، وكانت الساعة تقارب الثانية ظهراً، فخرج الموكب قاصداً (جامع موسكو).

وعندما وصلت إليه سررت بمظهره الجميل على البعد، فهو ذو قبة بهيجة المنظر، ويقع وسط حديقة واسعة من الأشجار، لذلك يرى منها على البعد.



ينصتون إلى كلمة المؤلف في جامع موسكو

وعجبت من إبرازه بهذه الصفة، وبخاصة كون المنطقة التي تليه خالية من البناء، وليس فيها إلا هذه الأشجار التي هي بهيجة المنظر، وقد بدأت مواضع الأوراق منها بالابتسام للربيع، فعرفت السبب بعد ذلك، وهو أن المسجد واقع بجانب قسم من منشآت رياضية، قد أعدها القوم للألعاب الأولمبية العالمية التي أقيمت في موسكو، وقاطعتها فرق رياضية كبيرة بسبب

تدخل الروس في أفغانستان، وإرسال جيوشهم لاحتلاله.

وكان المسجد قبل ذلك محاطاً بثكنات عسكرية تشوه من منظر المنطقة المحيطة به، فأزالوا تلك الثكنات، وأبقوا الأشجار التي كانت نامية بينها، وجددوا طلاءه ليتناسب مع المظهر الجميل للمنشآت الرياضية الحديثة، ومن أهمها ظهوراً مسبح عالمي كبير.

وقصدوا من ذلك أيضاً أمراً دعائياً، وذلك أن هناك فرقاً رياضية كبيرة من أبناء المسلمين، ويسرهم أن يروا المسجد الجامع بقبته ومنارته ظاهراً واضحاً ذا مظهر جميل، وحتى بالنسبة إلى غير المسلمين فإن ظهور (جامع موسكو) بهذه الصفة يعطي الانطباع بأن الروس لا يغمطون الأقليات العددية حقوقها، ومنهم المسلمون.

استقبلنا عند الباب الخارجي للمسجد إماما المسجد، وهما اثنان: الشيخ أحمد جان مصطفى، وعمره ٨٣ سنة، ونائبه، وهو إمام يصلي أحياناً حتى في حضوره الشيخ رضاء الدين بصيري، وعمره ٦٩ سنة، ومعهما جماعة من المسلمين المسؤولين عن المسجد وغيرهم.

وكان وقت الصلاة قد حان إذْ ذكروا أنه يحين في الثانية والربع بالتوقيت الصيفي لمدينة موسكو، وهو توقيتها الحالي، ويتقدم ساعة عن توقيت المملكة، أما توقيت موسكو المعتاد فإنه مساوٍ لتوقيت المملكة العربية السعودية.

فدخلنا إلى المسجد حيث وجدنا جمعاً حاشداً من المسلمين أقدر عددهم بستمائة شخص معظمهم إن لم يكونوا كلهم من المتقدمين في السن، ولم أر بينهم من الشبان، أو حتى من هم من الرجال، أو في أعمارهم أحداً كالذين رأيناهم في داغستان مثلاً.

ومع ذلك بدأ حفل خطابي بعد أداء ركعتي التحية للمسجد، فتقدم

الشيخ (أحمد جان مصطفى) وقدمني للإخوة المسلمين، وقال: إن الوفد الذي يرأسه الشيخ قد زار عدداً من المدن السوفييتية، والتقى بالإخوة المسلمين هناك قبل وصوله إليكم.

ثم ألقى الكلمة المكتوبة التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أيها الضيوف الكرام من رابطة العالم الإسلامي، أحيِّيكم أجمل تحية، وأتمنى لكم طيب الإقامة في العاصمة السوفييتية موسكو، وأرحب بكم نيابة عن مسلمي العاصمة، وأصالة عن نفسي.

يا رسل الأراضي المقدسة، ويا أحفاد الرسول الأعظم، إننا نبتهج دوماً بلقاءاتنا مع إخوتنا بالدين من الأرض المباركة، من الأصقاع التي أنجبت خاتم الأنبياء والمرسلين محمداً ﷺ.

قديماً قال شاعر عربي:

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا نحن الضيوف وأنت رب المنزل

وها أنتم بين أهلكم وإخوانكم، يا من نوّرتم ديارنا بقدومكم.

أيها الإخوة الأعزاء، لقد أوصانا الله تعالى بالبر والتقوى وعمر قلوبنا بالرحمة والمودة، وأننا على دربه سائرون، وأننا بحبله مستمسكون، وأننا بدينه واثقون.إن المسلمين بأشد الحاجة الآن إلى توحيد صفوفهم، ولمِّ شملهم، وتوطيد مواقعهم لكي يتمكنوا من الوقوف بوجه أعداء الإسلام والمسلمين من إمبرياليين وصهيونيين وعنصريين، هؤلاء الذين دنّسوا مدينة القدس والمسجد الأقصى، وشرّدوا الشعب الفلسطيني من دياره ووطنه، ويحاولون قتله

في المنفى. وكما اعتدوا على لبنان ومزّقوه، فإنهم يعتدون الآن على ليبيا الشقيقة، فقد قتلوا الأطفال والشيوخ والنساء في قصفهم الوحشي على ليبيا. وقد بلغت بهم الوقاحة باتهام الشعوب العربية التي لا تركع لهم بالإرهاب، وهم من أكبر الإرهابيين في العالم. لعنة الله على الصهيونيين والإمبرياليين والعنصريين أعداء السلام والإسلام، أعداء البشرية.

أيها الإخوان الأعزاء، إن المسلمين السوفييت مثل كل أبناء الشعب السوفييتي، يناضلون من أجل إقامة سلام عادل بين الشعوب، وتحويل المنجزات العلمية لخدمة الإنسان الذي خلقه الباري ﷻ ليكون سعيداً مرفّهاً حرّاً في هذه الدنيا، ولينعم برحمة ربه في الآخرة.

لكن أعداء الإسلام والسلام يعبثون في العالم، ويعتدون على الشعوب الضعيفة، ويسلبون خيراتها، ويحوّلون أهلها إلى عبيد، وهذا ضدّ إرادة الله ورسوله.

أيها الأئمة الكرام، لقد زرتم بلادنا، ورأيتم كيف يعيش وكيف يعمل المسلمون السوفييت/ وهذا هو واقع حياة المسلمين، وإننا نقرن العبادة بالعمل المثمر لأجل ازدهار بلادنا الواسعة، ورفاهية شعبنا المتعدّد القوميات، وإعلاء شأنه في العالم من اجل توطيد السلام في العالم، وإشاعة روح العدالة الاجتماعية، والصداقة بين الشعوب.

إننا نفرح من أعماق قلوبنا عندما نلتقي بإخواننا من بلدان العالم الإسلامي، وبخاصة من البلدان العربية، لأن هذه اللقاءات تجعل قلوبنا أقرب، وأهدافنا أوضح، وآمالنا أكبر، وسعادتنا أعظم.

قال تعالى: ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ إن هذه الآية الكريمة هي التي ترسم علاقاتنا بالأشقاء، وإننا ندعو الباري ﷻ أن يوفقنا لما فيه خير الإسلام والمسلمين. إنه على كل شيء قدير.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وفي الختام: أتمنى لكم يا إخواننا الأجلاء دوام الصحة والعافية، وأن تتكرر زيارتكم لديارنا، كما أرجو منكم يا إخواننا الكرام أن تبلّغوا إخواننا المسلمين تحيات المسلمين في مدينة موسكو أطيب التمنيات والرفاهية والتقدم.

ثم تكلم المفتي الشيخ تاج الدين مقدماً ومعرفاً بوفد الرابطة وأسماء أعضاء الوفد كلهم وموضحاً أعمال الرابطة ونشاطها لمساعدة المسلمين في أنحاء العالم.

ثم تحدثت بعد ذلك شاكراً لحفاوتهم، ومبلغاً المسلمين تحيات المسلمين في الحرمين الشريفين والمسلمين في أنحاء العالم، وأثنيت على تمسكهم بدينهم، كما أوصيتهم بتعليم أبنائهم أحكام الدين الحنيف وتربيتهم على الإسلام.

ومن الغريب أن الحديث كله كان باللغة التترية التي يفهمها من في المسجد إلا رجلين عربيين كانا حضرا للصلاة.

وبعد أداء صلاة الظهر تقدم المسلمون للسلام على أعضاء الوفد فرداً فرداً.

وكان يظهر على وجوههم التأثر البالغ والفرحة التامة برؤية ومصافحة القادمين إلى بلادهم من الأراضي المقدسة.

ثم كان حديث عن إنشاء جامع موسكو منه قول الإمام: إن تاريخ بناء هذا المسجد يرجع إلى ما قبل ٨٠ سنة عندما اشترى المسلمون أرضه وبنوه عليها، وإن الذي قام على بنائه هو الشيخ صالح الششني.

وقد صار الآن صغيراً يضيق بالمصلين رغم كونه من طابقين، صلى معنا الرجال في المسجد الرئيسي، وصلت النساء في شرفة كبيرة ملحقة به.



المؤلف يتكلم في جامع موسكو

وأثاث الجامع من الفراش جيد، ورأينا فيه سجادة طويلة من السجاجيد التي صنعتها وزارة الحج والأوقاف لمساجد المملكة، وتهدي منها للمساجد الأخرى في الخارج، ويقولون إن هذه السجادة والتي كانت في جامع لينين قراد جاءتهم من الجمعيات الإسلامية في فنلندا، وقد حصل عليها الإخوة الفنلنديون من المملكة العربية السعودية، وأعطوا الفائض منها عن حاجتهم لجامعي لينين قراد وموسكو، ومنها هذه السجادة الطويلة.

ومن عادتهم بعد الصلاة التسبيح والتحميد والتكبير، ثم بعده يدعون دعاء طويلاً يتكون من آيات كريمة من القرآن، وبعد القرآن يتلون: سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، ثم دعاء آخر.

وذكروا أنه يصلي معهم صلاة الجمعة ألفان من المصلين في المتوسط، وتصلي النساء في الطابق الأسفل، والرجال في هذا المصلى الرئيسي وفي الشرفات فوقه.

وذكروا لنا بأسف شديد أن بعض سفراء الدول الإسلامية لا يشهدون صلاة الجمعة معهم.

ثم انتقل الوفد إلى منزل مجاور يقال إنه لمؤذن الجامع الحاج شامل قانصوار، فتناول طعام الغداء عنده مع بعض المسلمين، منهم: إماما جامع موسكو، وألقى الإمام الشيخ رضاء الدين بصيري كلمة باللغة التتارية مرحباً بوفد الرابطة القادم من الأراضي المقدسة إلى بلادهم لأول مرة في التاريخ، وقال: إننا نحترم هذا الوفد، ونجله لأسباب ثلاثة، وهي أنه ضيف زائر لنا، وثانياً لأنه قادم من أرض الحرمين الشريفين مهبط الوحي ومنبع الإسلام، وثالثاً لأنه عربي. وقد قال الرسول ﷺ: (أحبوا العرب لثلاث: لأني عربي، ولغة القرآن عربي، ولغة أهل الجنة عربي) أو كما قال ﷺ.

ثم تكلم الحاج عثمان ولي عن الاختلافات العربية والإسلامية، وحرب العراق وإيران، وظلم اليهود في فلسطين المحتلة ولبنان، وأخيراً الهجوم الأمريكي على الشعب الليبي بدون ذنب أو جريمة. ودعا إلى أن تقوم رابطة العالم الإسلامي ببذل الجهود لتوحيد صفوف المسلمين، وجمع كلمتهم لصد مكايد الأعداء، ثم ختم حديثه بأهمية السلام العالمي، ونزع السلاح في توطيد الأمن والرخاء في العالم.

وقد رددت على هذه الكلمة بالشكر والتقدير على مشاعرهما الطيبة، وموضحاً مساعي الرابطة في خدمة القضايا الإسلامية.

وكان الهجوم الأمريكي على ليبيا الذي استنكرته حكومة الاتحاد السوفييتي تذاع أخباره في أجهزة الراديو والتلفاز، وكان المسلمون الذين يتابعون الأخبار متأثرين جداً، ومتأسفين لأوضاع العرب التي مزقتها الخلافات

الجانبية، كما كانت فرصة لهم لمدح سياسة الاتحاد السوفييتي، وذم سياسة الولايات المتحدة الأمريكية نحو العرب.

وكانت المأدبة كبيرة ممتدة، ذكر لنا أن التي أقامتها هي جمعية المسجد، ولقد عجبت حينما شعرنا بشيء من الحر في موسكو مع أننا في أواخر شهر إبريل، وكنا قبل أسبوعين قد مسنا بردها بزمهريره، لأن الحرارة فيها كانت صفراً مئوياً.

وفي نهاية الحفلة قدموا هدايا تذكارية للوفد، منها أباريق لصنع الشاي مما هو تقليدي عندهم.

ورددت عليهم بإهدائهم هدايا قيمة، منها ما هو لأشخاصهم ساعات يدوية، وتمر من تمر المدينة المنورة، ومصاحف قرآنية كريمة فاخرة الطباعة والتجليد مذهبة الأغلفة، ومنها ما هو للمسجد الجامع من المصاحف وتسجيل القرآن الكريم مع آلة التسجيل.

ثم ودعونا بعد التقاط صور تذكارية عند الفناء الخارجي للمسجد بحفاوة بالغة.

عدنا إلى الفندق مع أحد الشوارع الواسعة من شوارع العاصمة السوفييتية التي تتميز بالسعة بالنسبة إلى المدن السوفييتية الأخرى مثلها في ذلك مثل (لينين قراد) التي ناوبتها في فترة من الفترات في كونها عاصمة للقيصرية الروسية.

وتغص شوارعها بالسيارات الرسمية التي يبين ذلك من ألوانها، وتكون تابعة للمؤسسات والإدارات الحكومية، وسيارات الركوب الخاصة التي يملكها الأفراد، وأكثرها من الحجم الصغير الذي هو سيارة (فيات) الإيطالية الصغيرة تصنع في روسيا، أما السيارات الصغيرة المملوكة لمؤسسات الدولة والمؤسسات العامة فإن فيها قدراً من السيارات التي هي أكبر من ذلك،

وأكثرها من طراز (فولغا).

المؤتمر الصحفي الكبير:

كان الشيخ الدكتور شمس الدين بابا خانوف رئيس مجلس العلاقات الخارجية للإدارات الدينية يعرف أنني لا أحب المؤتمرات الصحفية في رحلتي هذه، وذلك لئلا أضطر لقول ما لا أريد قوله مجاملة لمضيفينا الذين أظهروا لنا الإكرام والاحترام، أو أضطر إلى قول ما يجرح مشاعرهم، ويتنافى مع ما تقضي به اللياقة من كون الضيف المكرم يرد ذلك الإكرام لمضيفه إهانة، أو ما قد يعتبرونه إهانة، لأن الحقيقة المجردة إذا ما قيلت عن أوضاع المسلمين في الاتحاد السوفييتي فإنها ستغضبهم من دون شك، ونحن لا نخاف من غضبهم، وإنما نخاف من أن نوصم بسوء التقدير للأمور، والعجز عن سلوك الطريق الصحيح الذي لا يقر الروس على ما فعلوا بالمسلمين، وفي الوقت ذاته لا يجرح مشاعر المسلمين، وينافي حقيقة الأوضاع.



في المؤتمر الصحفي الكبير في موسكو

لذلك قال لي الدكتور شمس الدين: إن هناك اجتماعاً بسيطاً لك بالمسؤولين عن الصحافة المحلية، وموعده الساعة السادسة من مساء هذا اليوم.

كان يقول لي ذلك قبل الموعد بنصف ساعة، فلم يكن بد من الاستجابة، لا سيما مع معرفتي بأن الرجل هو إلى جانب كونه رئيس الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان فإن بعض الناس يعتبره أيضاً رجل دولة، وقد أمرت الدولة بانعقاد هذا المؤتمر وحضره مصورو التلفزة، وعدد من كبار رجال الصحافة المحلية والعالمية، ومنهم مراسلون لصحف تصدر في البلدان العربية مثل (الوطن) التي تصدر في الكويت، و(الأنباء) التي تصدر في لبنان وغيرها، ويمثلها مراسلون من البلدان العربية.

إلى جانب مصورين محليين، ورجال الإدارات الدينية بحيث كان المكتب الذي جرى عليه الحديث طويلاً لا تستوعبه عدسة المصور، وكان الحديث فيه من مكبر للصوت موضوع أمامي على هذا المكتب الطويل.

وقد استمر المؤتمر حتى الساعة الثامنة، وطرقت فيه موضوعات عديدة منها ما يتصل مباشرة بجولتنا في الاتحاد السوفييتي، ومنها ما يتناول أموراً من أمور المسلمين، أو الأمور المتعلقة بالدين بصفة عامة، وهذه جاءت من مراسلي الصحف العربية في موسكو، ومنهم مراسل وكالة الأنباء الكويتية.

وكان حديثي بالعربية إذْ كان المترجم البارع (قريقوري) يترجم السؤال إلى العربية، ثم يترجم الجواب أيضاً.

وإذا كان السؤال من الصحفيين العرب وهم يلقونه عليَّ بالعربية فإنه يترجمه إلى الروسية ليفهمه الصحفيون والإعلاميون من الروس، ثم يترجم جوابه إلى الروسية أيضاً.

وهذه بعض الأسئلة والأجوبة مما دار في هذا المؤتمر الصحفي الكبير:

قلت: إن الوفد يقوم بزيارة لمسلمي الاتحاد السوفييتي تلبية لدعوة من الإدارات الدينية لمسلمي الاتحاد السوفييتي، وقد بدأت الزيارة في ١٥ إبريل ١٩٨٦م، وخلال الأسبوعين الماضيين تجولنا في عدة جمهوريات سوفييتية، وبخاصة في الجمهوريات التي تقطنها أغلبية مسلمة، وإن تخصيص الوفد بزيارة تلك المناطق الإسلامية ناشئ على أساس قدومنا من رابطة العالم الإسلامي التي هي منظمة شعبية عالمية غير حكومية، تهتم بالعلاقات بين المسلمين في أنحاء العالم. ولذلك عندما تلقينا دعوة من الإدارات الدينية في الاتحاد السوفييتي سررنا بها، ولبيناها شاكرين، ونحن نرجو أن تكون هذه الزيارة فاتحة خير في التعاون بين الرابطة والإدارات الدينية، وهو تعاون ثقافي في ميدان الثقافة والدين.

س/ كيف رأيتم أحوال المسلمين في تلك الجمهوريات التي زرتموها ؟

جـ/ لقد أتيح لنا الصلاة مع الإخوة مثل صلاة الجمعة، أو صلاة الظهر في غير أيام الجمعة، وقد استقبلنا المسلمون وغيرهم من المسؤولين بالحفاوة، وكان لاستقبالهم الطيب الأثر الحسن في النفوس، وقد يكون مشجعاً لتكرار الزيارة، وركزنا في زيارتنا على المساجد فوجدنا المساجد التي زرناها جيدة، وعددها محدود، وأرجو أن يكون عدد المساجد التي نزورها في المستقبل أكبر.

مراسل وكالة الأنباء الكويتية في موسكو يسأل:

ما هي مجالات التعاون التي ترونها ممكنة بين مسلمي الاتحاد السوفييتي والمسلمين في العالم ؟

جـ/ كما قلت: إن رابطة العالم الإسلامي منظمة شعبية، ومجالات التعاون متعددة مع الجمعيات الإسلامية في العالم، منها إرسال الكتب الدينية،

وكذلك تبادل الزيارات، واستضافة الوفود العلمية، كما أن الرابطة قد درجت على إعطاء منح دراسية لدراسة العلوم العربية والإسلامية. وكذلك الدعوة إلى المؤتمرات والدورات التدريبية للأئمة والخطباء في مناطق الأقليات، كما أن الرابطة تقدم المساعدة المالية على إصلاح وترميم المساجد، وبناء المساجد الجديدة، إضافة إلى الاتصالات المتنوعة مع المسلمين في العالم.



بعد المؤتمر الصحفي الكبير في موسكو

مراسل جريدة الوطن الكويتية:

س/ هل يمكن أن تعمل الرابطة مع المسلمين في الاتحاد السوفييتي على استرجاع القدس؟.

جـ/ أرى أن على كل مسلم على وجه الأرض أن يعمل على المساعدة في استرجاع القدس.

س / هل زيارتكم خطوة في إعادة العلاقة بين الاتحاد السوفييتي والمملكة العربية السعودية ؟.

جـ/ نحن - كما قلت - من رابطة العالم الإسلامي منظمة شعبية غير حكومية، والحكومة السعودية تقدم مساعدة مالية لها، كما تساعد الجمعيات الإسلامية الأخرى، ولذلك ليس من صلاحياتنا بحث هذا الموضوع، لأنه خارج عن نطاق زيارتنا.

س / هل وجدتم تجاوباً مع الجهات الإسلامية في تحقيق الأهداف التي تتوخونها ؟.

جـ / زيارتنا كانت في الدرجة الأولى هو للتعاون مع الإدارات الدينية، وقد وجدنا من المسؤولين والإدارات الدينية الترحيب والاستعداد لأن تكون هذه الزيارة فاتحة خير بين الرابطة والإدارات الدينية، والاتصال كان موجوداً من السابق، فالدكتور شمس الدين بابا خان رئيس الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازاقستان هو عضو المجلس الأعلى العالمي للمساجد.

وقد تولد عندي وزملائي بأن هذه الزيارة ستكون فاتحة تعاون وثيق بين الرابطة والإدارات الدينية في الاتحاد السوفييتي.

مراسل إذاعة موسكو:

س/ من المستمعين من يوجهون الأسئلة حول أوضاع المسلمين في الاتحاد السوفييتي، ويستفسرون عن صحة ما تنشره الصحف الغربية حول اضطهاد المسلمين في الاتحاد السوفييتي، فما رأيكم في ذلك ؟.

جـ / أتفق مع الأخ الكريم بأن هناك أسئلة كثيرة توجه إلى الرابطة حول المسلمين في الاتحاد السوفييتي، ربما يرجع ذلك لعدم وجود اتصالات كافية مع المسلمين، وسيكون لزيارتنا هذه دور كبير في الإجابة

على كثير من الأسئلة، ونحن نعتقد أن رابطة العالم الإسلامي تكون همزة وصل بين المسلمين سواء في الاتحاد السوفييتي أو في غيره.

س / كيف يتم التعاون في الشؤون الثقافية والعقائدية بين الرابطة والإدارات الدينية ؟.

جـ / تعلمون بأن هناك ثقافة مشتركة، بل هو تراث ثقافي يرقى إلى أكثر من ألف عام بين المسلمين في الاتحاد السوفييتي والمسلمين في الأقطار الأخرى، ورعاية هذا التراث الثقافي هو مسؤولية الجميع، وفي هذه المرحلة التي تتم فيها أول زيارة لوفد من الرابطة، فقد ناقشنا كيف يتم التعاون والعلاقة في المستقبل، ونفعل ذلك من وجود هذا التراث الثقافي الإسلامي ورعايته تفيد الإدارات الدينية السوفييتية والمسلمين في االعالم، وهدفنا هو هدف ثقافي خالص.

وكالة نوفوستي للأنباء:

س / ما هو موقفكم تجاه المقترحات السلمية لتخفيف حدة التوتر في العالم ؟.

جـ / كما قلت: إن الرابطة منظمة ثقافية، لا تكون السياسة من أهدافها، ولكن تركز اهتمامها من أجل التعاون مع الجمعيات والمنظمات الإسلامية في ميدان الثقافة والدين.

إذاعة موسكو:

س / بصفتكم منظمة إسلامية، ما هو موقفكم من الاعتداء الأمريكي على ليبيا ؟.

جـ / موقفنا هو موقف كل مسلم، وهو استنكار الاعتداء على ليبيا.

س / هل لاحظتم أن ثمة تعاطفاً بين مسلمي الاتحاد السوفييتي مع القضايا الإسلامية، مثل قضية القدس ؟.

جـ / لقد تحققنا من تعاطفهم، بل فوجئنا باهتمام المسلمين بالقضايا الإسلامية التي تهم المسلمين في العالم، فإن العواطف الإسلامية التي لمسناها قوية، ولكن هذه القضايا لم تطرح للبحث والدراسة.

س / قبل توجهكم للاتحاد السوفييتي، كان لديكم انطباع خاص عن الاتحاد السوفييتي، وبدون شك فإن ذلك الانطباع قد تغير بعد زيارتكم عما كان قبل الزيارة ؟.

جـ / يقول المثل العربي: " وما راء كمن سمع " فرأينا أشياء لم نكن نتصورها، ومن ذلك رغبة المسلمين في التعاون في المجال الثقافي، لأنكم تعلمون أن الإسلام يدعو إلى التعاون على الخير، والرابطة يسعدها التعاون مع المسلمين في ميدان الثقافة الإسلامية بدون أن تتدخل في الأمور الداخلية لأي حكومة، وليس لها أغراض سياسية أونحو ذلك.

س / تعرفون أن الآثار الإسلامية، أقصد أماكن العبادة وغيرها في مدينة القدس، أصبحت على شفا هاوية بسبب التهديد الصهيوني، ومحاولات اليهود لهدم المسجد، وثانٍ لإحراقه، وثالث لادعاء ملكيته، واستفزازات كثيرة لا أول لها ولا آخر، هل بحثتم هذا في الرابطة ؟ فإن كان الجواب بالإيجاب فما هي المقررات ؟.

جـ / أوافق الأخ الكريم على كلامه بأن السلطات اليهودية تعمل بجد لإزالة الأماكن الإسلامية في القدس، ورابطة العالم الإسلامي تتابع ذلك، وتعمل في ميدان صلاحيتها. وفي العام الماضي استقبلت الرابطة السيد ياسر عرفات، وقد تكلم أمام مجلس الرابطة فشرح أحوال المدينة المقدسة، والمسجد الأقصى بصفة خاصة، وقد اتخذت الرابطة الإجراءات اللازمة أولاً بأن يكون هناك صندوق المسجد الأقصى اعتمد له بعض المبالغ، وطلبت له التبرعات، والرابطة تتابع الموضوع من خلال مكتبها في عمّان بالأردن، كما أن الرابطة على اتصال بالآلاف

الجمعيات الإسلامية في توعية المسلمين، وإيضاح الأخطار التي تهدد المسجد، كما أنها على اتصال دائم مع الأمانة العامة لمنظمة المؤتمر الإسلامي في جدة في هذا الموضوع.

س / كيف يمكنكم التعليق على الخبر الذي يقول: إن المرتزقة الأفغان يقتلون إخوانهم الأفغانيين باسم الجهاد ؟

جـ / لا تعليق على هذا الخبر.

س / لقد زرت كثيراً من الدول الإسلامية، وبعض الدول التي فيها أقليات إسلامية، فما رأيكم عن انتشار الإسلام في العالم ؟

جـ / زرت أكثر البلدان التي فيها أقليات إسلامية، وآخر زيارة قمت بها قبل الاتحاد السوفييتي كانت في جنوب شرق آسيا، شملت الزيارة الجزيرة الجنوبية لنيوزيلندا، وذلك لافتتاح أول مسجد في هذه الجزيرة، لأنه يوجد في الجزيرة الشمالية خمسة مساجد، وأهل هذا المسجد الذي تم افتتاحه يقولون: نحن أقرب من يقول لا إله إلا الله للقطب الجنوبي، لأنها تقع في جنوب تسمانيا في أستراليا. كما زرت بعد نيوزيلندا مملكة تونغا، وهذه المملكة دخلها الإسلام في شهر سبتمبر ١٩٨٣م، وقبل هذا التاريخ لم يكن أحد من أهل البلاد مسلماً، وقد اتخذ المسلمون بيتاً وجعلوه مسجداً، والرابطة ساعدتهم على استئجاره، وفي جزر فيجي يوجد ٥٦ مسجداً، وفي أول زيارة لي إلى البرازيل عام ١٩٧٠م لم يكن بها إلا مسجد واحد، وقد زرتها أيضاً قبل ثلاثة شهور، فوجدت فيها ٢٦ مسجداً، و١٢ مركزاً إسلامياً، وفي ترينيداد ٩٦ مسجداً، وفي غويانا التي تجاورها ٥٢ مسجداً، وفي سورينام ٥٣ مسجداً، وهكذا يسجل الإسلام انتشاره في مناطق وبلدان جديدة في العالم كل عام.

تصريح للإذاعة العربية في موسكو:

كان أحد العاملين في الإذاعة العربية في موسكو قد اتصل بي هاتنياً وكلمني بالعربية يريد مني أن أخص هذه الإذاعة بكلمة تذاع منها لمناسبة انتهاء زيارتنا للاتحاد السوفييتي.

وقد حضر إلى غرفتي بعد المؤتمر الصحافي فسجلت له كلمة أذاعتها الإذاعة الروسية بالعربية فيما بعد. وقد ألقى أسئلته التي كان يتلوها من ورقة في يده، وكنت أراه يمليها في مسجل معه لأنه ليس لدي وقت أكتب فيه الأجوبة، ولم يكن من عادتي أن ألقي في الإذاعة أو في الخطب كلمة مكتوبة، بل كانت كلماتي كلها عفوية مرتجلة.

ومن أهم ما سأل عنه بعد أن تحدثت عن الهدف من زيارتنا للاتحاد السوفييتي، وبينت أن الزيارة جاءت استجابة لدعوة تلقتها رابطة العالم الإسلامي من الإدارات الدينية في هذه البلاد، وأن الهدف هو توثيق الصلات الثقافية ما بين رابطة العالم الإسلامي التي هي مؤسسة شعبية عالمية غير حكومية وبين الإدارات الدينية في الاتحاد السوفييتي.

وإننا نرجو أن يزيد التعاون في هذا الأمر في المستقبل نتيجة لهذه الزيارة عملاً بقوله تعالى: ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾ لأن تعاوننا نع الإخوة المسلمين في الاتحاد السوفييتي في مجال العلاقات الثقافية هو من الامتثال لما جاء في هذه الآية القرآنية الكريمة، فسأل قائلاً: وما هو انطباعكم عما تردده الأوساط الغربية عن اضطهاد المسلمين في الاتحاد السوفييتي؟.

فقلت: إننا اطلعنا على أشياء كثيرة ومهمة من أوضاع المسلمين في البلدان السوفييتية، وأعتقد أننا سوف نطلع على أكثر من ذلك في المستقبل عندما تزيد العلاقات الثقافية ما بيننا وبين إخوتنا المسلمين في هذه البلاد، وفي زيادة المعلومات والاطلاع على الحقائق ما نستطيع أن نعلق التعليق الصحيح عل أمثال تلك الأقوال.

ثم ذكرت له شكر وفدنا على ما لقيه من تسهيل وتعاون لإنجاح الزيارة من رجال الإدارة السوفييتية في الجمهوريات والمدن التي زرناها، كما أننا لن ننسى العواطف الجياشة التي قابلنا بها إخوتنا المسلمون في هذه البلاد، وسوف ننقل ذلك كله لرابطة العالم الإسلامي التي يمثل المسلمون من أنحاء العالم في مجالسها المتعددة.

حفل وداعي:

أقام مجلس العلاقات الخارجية للإدارات الدينية حفلاً وداعياً لأنه سيكون آخر دعوة للوفد.

وكان ذلك على حفلة عشاء أقيمت في مطعم من أشهر المطاعم الفاخرة في موسكو، ويسمى (مطعم براغا)، أي مطعم براغ التي هي عاصمة جمهورية تشيكوسلوفاكيا، سمي المطعم على اسمها.

وقد حضر الحفل عدد من المسلمين والوفد الإعلامي الذي رافقنا في الرحلة كلها، وبعض العاملين في مجلس شؤون الأديان.

وكانت مائدة جيدة إلا أنها دون الموائد التي كان يقيمها الإخوة المسلمون لوفدنا في البيوت في المدن التي زرناها.

وقد تقدم أحد أعضاء الوفد الإعلامي المرافق، وهو يعرف العربية، فقدم إليّ شريطين للتلفاز قائلاً بالعربية: إنهما يا سيدي يتضمنان بعض ما جرى في جولتكم في الاتحاد السوفييتي، يسرني أن أقدمهما هدية متواضعة لكم أرجو أن تنال القبول.

ثم قدم الشيخ الدكتور شمس الدين خلال الحفل أيضاً دفترين مليئين بالصور التي التقطت للوفد في زيارته لبلاد بخارى وما وراء النهر، ووعد بإرسال الصور الأخرى مع وفد الحجاج السوفييت.

وجلسة المرافقين المسلمين:

وفي الساعة الحادية عشرة كان لي اجتماع بالإخوة المرافقين من المسلمين في غرفتي شكرتهم فيه على ما تجشموه من عناء السفر في مرافقتنا في رحلاتنا هذه، وطلبت منهم العفو عما نكون قد سببناه لهم من تعب خلال الرحلة.

كما شكرت منهم بصفة خاصة الإخوة الذين وقع عليهم عبء الترجمة لنا من العربية إلى اللغات الأخرى وبالعكس، وقدمت لهم هدايا تذكارية قيمة.

وقد رتبت هذا الاجتماع الذي لم يحضره معي إلاّ الأخ (رحمة الله بن عناية الله) سكرتير الوفد في هذه الساعة المتأخرة من أجل عدم ما قد يصيبهم من إحراج في قبول الهدايا منا، ومنها على سبيل المثال ساعات يدوية، وسجادة للصلاة، وعباءات عربية مقصبة، ومصاحف كريمة من طباعة المدينة المنورة كان أكثرهم وهم يتناولونها يقبلونها وذلك لصعوبة الحصول على المصاحف في الاتحاد السوفييتي ولو بالأثمان الغالية، إضافة إلى ما لهذه المصاحف الكريمة التي أعطيناها لهم من أهمية الطباعة في المدينة المنورة، ومن العناية بأغلفتها المذهبة، وكانوا كلهم يسكنون معنا في الفندق نفسه.

وحديث لمجلة إسلامية:

وفي الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً كان الأخ الشيخ (عبد الحميد) يسجل معنا حديثاً مطولاً لمجلة (المسلمون في الشرق السوفييتي)، وهي التي تصدر في طشقند بثلاث لغات منها العربية، دار حول الأوضاع الحاضرة في العالم الإسلامي وشؤون ثقافية أخرى، وما ننتظر أن تكون عليه العلاقات ما بين رابطة العالم الإسلامي وبن الإدارات الدينية لمسلمي الاتحاد السوفييتي.

يوم الثلاثاء ٢٠/ ٨/ ١٤٠٦هـ ٢٩ / ٤/ ١٩٨٦م.

مغادرة الاتحاد السوفييتي :

تركنا فندق سوفيتكايا الفخم في السادسة والنصف صباحاً قاصدين مطار موسكو، ويبعد المطار عن الفندق اثنين وثلاثين كيلو متراً، وكان المرور في شوارع موسكو في هذه الساعة المبكرة من الصباح خفيفاً، مع أنه حتى في ذروة الازدحام لا يقارن بزحام السيارات في مدن الدول الغربية، أو حتى في مدن العالم النامي، ناهيك عن البلاد التي تتمتع بوفرة في النقود مثل بلادنا ولله الحمد.

ومررنا على حدود مدينة موسكو نفسها بنصب عليه علامة كالصليب، وليست بالصليب، ولكنها من مانعات تقدم الدبابات، وهي التي تكون كالصليب من الحديد القوي يوضع على الأرض.

ذكر الإخوة المرافقون أن هذه النقطة هي التي وصلها الألمان في محاولتهم لاحتلال مدينة موسكو خلال الحرب العالمية الثانية.

وفي غرفة كبار الزوار حضر رؤساء الإدارات الدينية كلهم، وقد جاء اثنان منهم من أجل توديعنا وهما الدكتور شمس الدين بابا خانوف الذي قدم من طشقند، والشيخ محمود فيكي من (محج قلعة).

أما الشيخ طلعت تاج الدين، فإنه كان ملازماً طيلة سفرنا في الاتحاد السوفييتي - جزاه الله خيراً -. وأما الشيخ (الله شكر باشا زاده) رئيس الإدارة الدينية الرابعة فإنه كان غائباً عن الاتحاد السوفييتي في مؤتمر إسلامي عقد في عمان بالأردن، كما حضر ممثل وزارة الأديان الذي كان قد حضر لاستقبالنا عند وصولنا أول مرة وهو يعرف العربية، وكان هذا على مرأى ومسمع من المودعين الروس غير المسلمين.

وغادرنا مطار موسكو على طائرة سوفييتية غادرت مطار (شرميتوف ٢) في موسكو في التاسعة وخمس دقائق قاصدة مدينة (وارسو) عاصمة بولندا، وأعلنت المضيفة أن المسافة ستكون ساعتين إلا عشر دقائق.

وصلنا بعدها مدينة (وارسو) في التاسعة وخمس دقائق، وذلك لكون فارق التوقيت الصيفي لمدينة موسكو وتوقيت وارسو ساعتين.

وقد ذكرت خبر الرحلة إلى بولندا في كتاب خاص بها حافل وعنوانه: "مع المسلمين البولنديين".

والله أعلم.

المحتويات

مطبعة النرجس التجارية
NARJIS PRINTING PRESS
تلفون : ٢٣١٦٦٥٣/٢٣١٦٦٥٤
فاكس : ٢٣١٦٨٦٦ الرياض